الدكتور حماة الله ولد السالم

تاريخ موريتانيا

العناصر الأساسية

قضايا تاريخية

9

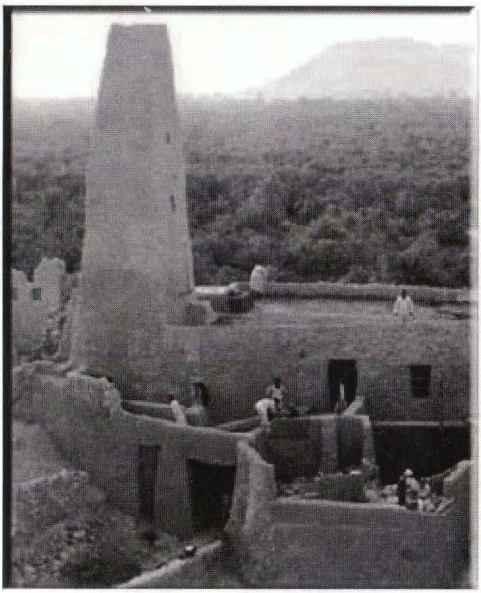

منشورات الزمن

قضايا تاريخية العدد 9

المدير : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

المشرف : إبراهيم القادري بوتشيش

الإخراج التقني : خديجة فارس

الإيداع القانوني: 2007 / 1670

ردمك: 0 - 77 - 408 - 9954

طبع: مطبعة النجاح الجديدة ـ الدارالبيضاء

توزيع: سبريس

الإدارة والتحرير: 153 ، شارع سيدي محمد بن عبدالله رقم 7 ـ العكاري ـ الرباط

الهاتف + الفاكس : 44 98 29 37 212 00

البريد الإلكتروني: mazzaman@menara.ma / az_zaman@hotmail.com

كل الآراء والأفكار الواردة في "إصدارات الزمن" لا تعبر بالضرورة عن رأي "الزمن"

2007

تاريخ مُوريتَانْيَا

العناصر الأساسية

الدكتور حماه الله ولد السالم

جميع الحقوق محفوظة للزمن

منشورات الزمن

تقديم

هذه دراسة مختصرة، تتناول الملامح الأساسية من تاريخ موريتانيا العام، منذ العصر القديم إلى بداية الغزو الفرنسي على البلاد. وهي مقصورة، لأسباب ذاتية ومنهجية، على تاريخ البيضان "عرب الصحراء الكبرى"، دون غيرهم من سكان البلاد اليوم من المجموعات السودانية "الزنجية": الهالبُولار، السوننكى.. والذين ظلت صلتهم وثيقة بتاريخ شبه المنطقة وأسسوا دولا مهمة وقادوا حركات إصلاح كبرى، أثرت كلها على بلاد البيضان تأثيرا عظيما.

أقدم تلك الكيانات مملكة غانة وثانية عواصمها هي "قمب صالح" الواقعة في جنوب شرق موريتانيا حاليا، واستمرت إلى القرن 8هـ تابعة لمالي، وكان زحف الفاتح الفلاني تانكلا وابنه كولى عظيم الأثر على منعطف نهر السنيغال، حيث أخضع السينغامبيا ونشر اللهجة الفلاّنيّة، فتحولت بعض القبائل إلى التحدث بها، فنتج عن المزيج ما يعرف بشعب "الهالبولار: ومعناه: الناطقون باللهجة البولارية "الفلانيّة"، وكان ذلك التطور مشاكلا لدور قبائل

بني حسّان العربية في فرض سلطانها ولهجتها على السكان من صنهاجة. وأحدث تلك الكيانات دولة الحاج عمر الفوتي تـ.1864م التي هزت رتابة الوحدات السياسية والدينية والبشرية في عموم حوضي نهر السنيغال ونهر النيجر، وكانت نتائجها بالغة المدى على صعُد متعددة، سلبا وإيجابا.

ونقدم هذه الدراسة سدا لبعض النقص الملحوظ في دراسات التاريخ الموريتاني الموجودة، بينما المتاح في هذا الحقل إما أطروحات جامعية متخصصة، أو أعمال لاتمتلك من التاريخية إلا الاسم وهي في أحسن الأحوال، بالنسبة لبعضها، مفتقرة للمنهجية الحديثة وجمع ساذج لشتات الروايات والأنساب والأسماء المكتوبة لغايات آنية وبواعث ضيقة.. وهي كذلك مفعمة بالأحكام الخاطئة، والبعد عن الأمانة العلمية.

وقد نأينا بأنفسنا عن الخلاصات السهلة والاستنتاجات المتسرعة، مركزين على التحولات العميقة في حياة الناس من هجرات، وصراعات كبرى، وتحولات بنيوية في الاجتماع، والسياسة، والفكر والاقتصاد.

ولم نفصل في بعض الأحداث المحلية، لكي لا نثقل على القارئ الذي لا يعرف الكثير عن تاريخ البلاد، بينما يهمه في المقام الأول معرفة مسار الأحداث الكبرى التي شكلت المجتمع سياسيا،

وفكريا، ومجتمعيا وذهنيا، وهي التحولات الأساسية: الفتح الإسلامي، قيام **دولة المرابطين، الهجرة العربية "الحسّانيّة"، الحرب بين صنهاجة وبني حسّان**، ثم **دخول الاستعمار** الذي كان حدثا بارزا في الذاكرة لكنه لم يؤثر في البنية المجتمعية مطلقا، رغم بشاعة تصرفات الغزاة الفرنسيين إزاء السكان.

وهناك أحداث أخرى لم يكن لها تأثير في تاريخ البلاد لأنها لم تغير من حياة الناس، وإن بقيت في ذاكرتهم الجمعية، مثل: حملة جيش المنصور السعدي على دولة سنغاي، وسقوط عاصمتها الثقافية تنبكتو ذات الصلة الوثيقة بتاريخ البيضان الثقافي، لأن الحملة كانت بعيدة عن عمق البلاد وبنيتها الداخلية، وهو حال الحملة السعدية التي تمت قبل ذلك ومرت على طول الساحل الموريتاني حتى وصلت نهر السنيغال، ولكن السكان لا يعرفون اليوم عنها شيئا، لأنها انتهت بسلام، ورجعت، ولم تلق بأسا ولم تخلف ضررا، وهناك أيضا "حرب شرّ بَبّا" التي دارت في جنوب غرب البلاد نهاية القرن 17م، ولكنها كانت حدثا محدودا في الزمان والمكان، ولم تغير البنية المجتمعية ولا الحياتية للسكان، رغم قيمتها الرمزية لدى المجموعات القبلية الزاوية التي شاركت فيها، أما القبائل العربية المنتصرة في الحرب فلم تعرها أي اهتمام!

وستكون البدايات المدروسة من العصور القديمة الغامضة إلى دخول الإسلام في القرنين الأول والثاني الهجريين / السابع ولثامن الميلاديين، ثم التركيز على تاريخ دولة المرابطين بصحراء الملثمين (موريتانيا وأحوازها) ثم السعي إلى استجلاء الفترة الموالية التي لانكاد نعرف عنها شيئا وتمتد من بداية القرن السادي الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، عهد انتشار قبائل بني حسان العربية، فنشأة المدن، فقيام الإمارات والرئاسات الحسّانية، فازدهار المجتمع الأهلي، فانهياره، وبداية السيبة مع تأزم الأوضاع بفعل الحصار الأوروبي للبلاد تمهيدا لاختراقها. وهي كلها محطات بارزة مهمة نكاد تصلح أساسا لتحقيب تاريخ البلاد.

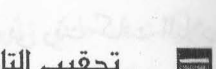

تحقيب التاريخ الموريتاني

التّحقيب عملية معقدة يُراد بها تقسيم التاريخ العالمي إلى حقَب تبدأ بأحداث حاسمة وتنتهي بأخرى. وتكون أصعب في التاريخ الإقليمي والتواريخ المحلية.

يُقسّم التاريخ العالمي إلى حقب كبرى هي: التاريخ القديم ويبدأ من ظهور الكتابة وينتهي بسقوط روما، ويليه التاريخ الوسيط المنتهي بفتح القسطنطينية أو كشف أمريكا، وتليه مرحلة التاريخ الحديث ونهايته محددة بالثورة الفرنسية، ثم يأتي التاريخ المعاصر ونهايته مع الحرب العالمية الثانية، لتبدأ مرحلة مايسمى بنوع من التجوّز "التاريخ الراهن"، مع اختلاف بين المؤرخين في تلك التواريخ وجدلهم حول تلك البدايات والنهايات.

هذا التّحقيب مدرسي صرف، يُراد به تسهيل دراسة التاريخ، لأن نهر الأحداث، أي التجربة الإنسانية، لايمكن تقطيعه أو تغيير مجراه، فضلا عن أنه تحقيب وضعه مؤرخو أوروبا في الغرب المعاصر.

كما أن ذلك التّحقيب "العالمي" ليس مُلزما للحضارات كلها، لأن لها تحقيبها للتاريخ تبعا لتجربتها الخاصة ونظرتها للآخر. ولذلك لايمكن فرض التّحقيب "العالمي" على الحقبة الوسيطة الممتدة من ظهور الإسلام إلى سقوط بغداد، لأن الحضارة العربية ـ الإسلامية عرفت ازدهارا منقطع النظير في تلك الحقبة، في وقت كانت البلاد الأوروبية تعيش في ظل ماتُسمّيه "العصر الوسيط المظلم".

ينضاف إلى ذلك أن تحديد بدايات ونهايات العصور فيه من الاعتباط ما لايخفى، وما يطرحه الإختلاف البيّن في الاهتمام بالأحداث الفاصلة، لأن سقوط روما، رغم أهميته البالغة على الصعيد الأوروبي، فقد لايعني شيئا كبيرا بالنسبة للمسلمين.

رغم ذلك قد لا يختلف منطق التاريخين الإسلامي والأوروبي بشأن بعض الأحداث الكبرى التي أثّرت على مسار "التاريخ العالمي"، كتحديد بداية التاريخ الحديث بسقوط الأندلس أو باكتشاف أمريكا، لأن القرن الخامس عشر الميلادي كان بداية الانكفاء الحضاري للمسلمين وانطلاق النهضة الأوروبيّة، وقس على ذلك.

أما تحقيب "التاريخ الوطني" أي تاريخ بلاد بعينها أو إقليم محدد، كموريتانيا، أو غيرها من الأقطار، فهو أمر صعب لأنه يقتضي تحقيق التوازن بين الأحداث الكونية وتلك المحلية، وتحقيق الانسجام بين التحولات التي جرت في "الأطراف" وتلك التي تمت في "المركز".

ويمكن بشيء من التجوّز، تحقيب التاريخ الموريتاني بتقسيمه إلى العصور التالية:

1- تاريخ قديم: من الألف الثانية للميلاد حتى القرن السابع الميلادي، ويبدأ بظهور العربات التي جاء بها شعب الكرامانت، وشكلت فتحا في تاريخ الصحراء، وبداية للتواصل الفعلي بعالم إفريقيا الشمالية الروماني، ولذلك ظل سكان البلاد إلى اليوم يسمّون ذلك الشعب باسم "أغرمّان" أي: الرومان الصغار، تعبيرا عن علاقة الكرامانت بالرومان تجاريا وسياسيا. وينتهي بالفتح الإسلامي للصحراء في القرن السابع وتاليه.

2- تاريخ وسيط: ويبدأ من الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وينتهي بسقوط تنبكتو سنة 1591م، ونُسمّيه "العصر الصنهاجي" وينقسم إلى: "العصر الصنهاجي الأول" ويبدأ من الفتح الإسلامي إلى قيام دولة المرابطين في القرن الخامس، وفيه عرفت قبائل الملثمين قيام دولتها وعاصمتها "أودغست" في الحوض الغربي حاليا، و"العصر الصنهاجي الثاني" ويبدأ بقيام الدولة المرابطية وينتهي بسقوط تنبكتو سنة 1591 الذي كان أثره قويا على أحوال الصحراء، بفعل انهيار المؤسسات الدينية والثقافية والاقتصادية شمال نهر النيجر، وهجرة العلماء غربا وتشتت مسالك القوافل غربا وشرقا، وصعود الإمارات الوثنية في

الجنوب تساوقا مع الحضور الأوروبي على السواحل. كما هزّ سقوط تنبكتو، أو بالأحرى انهيار دولة سنغاي، رتابة الوحدات السياسية والمجتمعية في الصحراء والسودان.

3- تاريخ حديث: ويمكن تسميته "العصر الحسّاني" لأنه عرف السيطرة النهائية لبني حسّان على شبه البلاد الحالية، ويبدأ بسقوط تنبكتو 1591 وينتهي بحصار "الحنيكات" الشهير سنة 1778م، بين عشائر إدوعيش الصنهاجية وقبائل بني حسّان العربية، وكانت نتائجه المباشرة قيام إمارة تكانت، ونتائجه البعيدة نهاية الصراع الطويل بين الإمارات اللمتونية والقبائل العربية والذي بدأ مع القرن الثامن (14م)، وأفضى إلى تشكل المجتمع على النحو الراهن.

4- تاريخ معاصر: ويبدأ بنهاية حصار "الحنيكات" سنة 1778م وينتهي بالسيطرة الاستعمارية سنة 1903م وما تلاها.

5- تاريخ راهن: هذا الإصطلاح جديد ويعني الفترة التي أعقبت الحرب العالمية أو نهاية الحرب الباردة. ويمكن أن تكون بدايته الفعلية في موريتانيا بقيام الدولة الوطنية سنة 1960م.

والحق أن تحقيب "التاريخ الوطني" لأي دولة، عملية صعبة وغير نهائية، لأنه يتأسس على خطاب الهوية، وهو نفسه محل جدل، ويخضع لسيرورة متواصلة، ولمراجعة، ونقاش دائمين.

وكان بالإمكان تحقيب تاريخ البلاد على نحو أكثر دقة، برصد التحولات الكبرى التي تمت في نحلة العيش ومحيطها الطبيعي، حيث يمكن تتبع دورات الإنتجاع على مدى قرون، ورصد التحول البنيوي الذي طرأ على مسارها منذ الفترة الوسيطة إلى الحديثة فالمعاصرة، وكذا حركة الهجرة والانتقال البشري من إقليم إلى آخر.

ويمكن القول إن مصادر العصر ماقبل التاريخ والتاريخ القديم هي -بالأساس- الشواهد الأثرية والمعطيات المستغلة من قبل الإختصاصات المساعدة مثل التاريخ الطبيعي وعلم آثار ما قبل التاريخ.

أما الفترتان الوسيطيتان فأهم المصادر المكتوبة عنهما هي كتابات الجغرافيين والرحالة العرب، وكذا نتائج البحوث الآثارية في الحواضر العتيقة مثل: كمبي صالح وآوداغست... الواقعتين في شرقي موريتانيا الحالية.

وتظل مصادرنا قليلة ومثغورة، بل صامتة أحيانا في الفترة الوسيطة الثانية من نهاية دولة المرابطين إلى القرن التاسع الهجري / الخامس الميلادي. لكن المصادر التنبكتية والولاتية والبرتغالية تعتبر من أهم المصادر في هذه الحقبة.

أما العصر الحديث والمعاصر فستبدأ فيه الوثيقة السياسية يأخذ دورها، لاسيما بالنسبة للإمارات والرئاسات الحَسّانيَّة، وكذا الوثيقة الأهلية التي تؤرخ للحياة الاقتصادية والاجتماعية في المدن

والبوادي، ومنها الحوليات التاريخية التي تؤرخ لسنوات القحط والمجاعة ولحوادث الحروب وحياة الأعيان من أهل الشوكة ومن العلماء. ومن أهم المؤرخين في تلك العصور أحمد بن الحاج الرقادي الكنتي المتوفى سنة 1130هـ ولعله أول مؤرخ معروف في البلاد وكذا محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري المتوفى سنة 1271هـ، وكتاب الحوليات في المدن. وتبقى المصادر الفقهية، من فتاوٍ ونوازل، مصدرا في غاية الأهمية عن تاريخ الحياة اليومية والتحولات البنيوية عبر القرون في الفكر، والاجتماع ونمط العيش.

البنيـة الإجتماعيـة:

ينقسم المجتمع الموريتاني إلى فئات اجتماعية لكل منها "وظيفتها" الخاصة:

1- حَسّـان: (=العرب)، وهي الطبقة العليا في السلم الاجتماعي، وأعضاؤها هم أهل الشوكة، حياتهم تقوم على الغزو، والحرب، ويعيشون من الغزو والمغارم التي يفرضونها على الأتباع والأغفار التي يأخذونها من قبائل الزوايا التي تقوم بتجارة القوافل. وينحدرون من أصول مختلفة أغلبها من أصل قبائل بني حسّان العربية التي جاءت مع الهجرة الهلالية، ودخلت موريتانيا منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على الأقل، والبعض الآخر من أصول قبائل صنهاجة التي ظلت مستقلة وذات نزعة حربية.

2- **الزوايا** : (الطلبة): الطبقة الثانية في السلم الاجتماعي، وهي قبائل مسالمة في الغالب، ذات نزعة علمية ودينية تتولى وظائف الإمامة، والقضاء، والافتياء، والتدريس وقافلة الحاج، وتقوم كذلك بنشاطات التجارة، وتنمية الأنعام وحفر الآبار. وأغلب هذه القبائل ينحدر من أصول قبائل المرابطين المعروفة، أما البعض الآخر فينحدر من عرب الأمصار الذين وفدوا إلى الصحراء في عهود مختلفة.

3- **اللحمَةُ**: (آزناكا)، الطبقة الثالثة، وأصل كلمة اللحمة من اللفظ "الاستلحام" الوارد في النص الخلدوني ويعني الدمج والإلحاق، وهي طبقة من المجموعات المغلوبة، وجلها من صنهاجة، وبعضها من عرب حسّان الذين أخضعهم بنو عمومتهم في المعارك. وعملها محصور في تنمية المواشي المملوكة للزوايا وحسّان.

4- **الصنّاع**: (المعلّمون): فئة تمتهن الحدادة ولا ترجع إلى أصل واحد، فمنها العربي والصنهاجي والسوداني وغيره. وهذه الفئة أكثر ارتباطا بالزوايا نظرا لدورهم التجاري والاقتصادي.

5- **الزفّانونْ**: (المُغَنّون) حرفتهم الموسيقى والغناء. وأصول بعضهم أندلسية، وأغلبهم من التوارق والسودان. ويرتبطون عضويا بطبقة أهل الشوّكة (حسّان).

6- **الحراطين**: فئة تميل ألوانها إلى السمرة الداكنة أو السواد، وهي من مجتمع البيضان العربي والكثير منها كان من الموالي

أو العـتـقـاء. أصل هـذا الإصطلاح من لفظـة "أحَرضَـان": الخـلاسي، المهجّن من أب بربري وأم زنجيـة، وأسلافهم الحقيـقيون هم سكان الواحات القـديمة من البـربر المخـتلطين بالزنوج، ومن شعب "أغرمّان" أي: الكرامانت "الجرمنت" الذين كانوا في ليبـيا الرومانية وانتشروا في الصحـراء نتيجة الضغط الروماني وسعيا إلى موارد الذهب! والباقي من الحراطين "الجـدد" هم مجموعات زنجـيـة تعربّت وصارت من مـجتمع البيضان العربي كغيرها من البربر المُتعرّبين.

7- العبـيد: وهم مجمـوعات الرقـيق الأسود التي انتقلت إلى الصحـراء عبر تجـارة القوافل، وتزايدت في عهـد حروب الحاج عـمر الفوتي ضد ممـالك بامبرا الوثنيـة وغيـرها من المجمـوعات السـودانية في القرن 19م.

أولا: مُحـدّدات أولية

المجال الذي سنـدرس بعض محطات تاريخه هو "موريتـانيا قبل 1903" وهو نطاق يتجاوز الحدود السيـاسيـة للجمـهورية الإسلامـية الموريتانية الحاليـة التي رسمها الاستعمار، ليشمل الرقـعة المسماة بلاد شنقيط. وهي المجال الذي كان مسرحا لعمليـات الحركة المرابطية، والذي عرف أيضا حلول اللغـة العربيـة فيه محل اللهجات البربرية منذ القرن الهـجري الثامن (القرن الميـلادي الرابع عـشر)، كمـا يُعتـبر هذا المجـال وحـدة تاريخية لأنه عـرف مؤثرات تاريخية واحـدة، وهو أيضا

يعتبر وحدة بشرية لأن سكانه يتكلمون لغة عربية تسمى "الحسانية". وهي من أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى.

ولذلك فإن المجال المدروس يشمل بالإضافة إلى موريتانيا مناطق أخرى مجاورة، تربطها بها وحدة اللغة، والعادات والتقاليد، والنسب والتاريخ، وهذه المناطق هي من الشمال (إقليم الساقية الحمراء ووادي الذهب وإقليم تيندوف) ومن الشرق (إقليم أزواد). وبذلك نتحرر من "الفضاء السياسي" وتصوراته المثيرة للجدل، لنتحرك في مجال ثقافي أكثر إجرائية لدراسة حياة الناس وتحولاتها في الزمان والمكان.

وقد عرف هذا النطاق بتسميات مختلفة أشهرها: "بلاد الملثمين" قديما و"بلاد شنقيط" حديثا، وكان انتشار التسمية الأخيرة وثيق الصلة بتطور ركاب الحاج عند سكان المدن الصحراوية.

أما التسمية الحالية "موريتانيا" فهي اصطلاح روماني معروف أصله أمازيغي: "آتمورتناغ" تمورتنّا" أرضنا. ولعله متأت من قبائل المور الشهيرة التي ناهضت الرومان والوندال وغيرهم من غزاة بلاد الأمازيغ القديمة.

ثانيا: سكان موريتانيا القدماء

تكوّن المجتمع الموريتاني ضمن بنية سكانية قديمة، صاغتها تحولات تاريخية معقدة لاسيما من عهد المرابطين إلى بني حسّان.

أشهر سكان البلاد هم قبائل صنهاجة التي قدمت إلى الإقليم ضمن هجرة قبائل البربر التي غادرت إفريقيا الشمالية خلال القرن الثالث المسيحي وتوجهت نحو الغرب، وبدأت احتلال الصحراء من الشمال. مع أن بدايات هذه الهجرة كانت موغلة في القدم أي قبل الميلاد. وقد دفع هؤلاء أمامهم مجموعات أخرى لها صلة قربى بأهل العصر الحجري الحديث، ودفعهم الجفاف التدريجي للبحيرات فيما بعد إلى اللجوء لضفاف البرك المائية وأودية الظهر، العليا والسفلى منها، ثم قادهم القحط إلى الانتظام في قرى أخذت نشاطاتها في التزايد مع توافد الجماعات الجديدة.

وفي عهد متأخر نسبيا، أي في حدود 2800 إلى 2000 سنة، قبل الآن أصبح البربر حاضرين في عموم الإقليم وانضافت نقوشهم الصخرية إلى نقوش (سابقيهم). وهؤلاء البربر كانوا أكثر تكيفا مع ظروف القحط الجديدة في الصحراء الكبرى من سكان القرى، وذلك بفضل النحاس ثم الحديد، وعاشوا في القرى التي بدأ سكانها في التناقص.

وقد ساهم البربر في هذا التناقص لما لهم من دور في تغيير الأوضاع ثقافيا وديموغرافيا، وفي إرغام السكان الأوائل على الهرب، مع أن هذه المسألة الأخيرة تحتاج إلى برهان. وقد جرى نقاش مطول (دكار 1976) حول حقيقة عنصر الأثيوبيين الذين ذكرهم هيرودت وأشار إلى أنهم ينتشرون في الصحراء الكبرى.

ولم يتم التوصل لحد الآن، إلى معنى عبارة "أصحاب الوجوه المحروقة" التي وصف بها المؤرخ اليوناني سكان الصحراء. بعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد جابت الصحراء عربات ذات عجلتين أو أربع أحيانا، تجرها الخيول غالبا والثيران نادرا.

وتطرح هذه العربات مشكلا دقيقا يناقشه المختصون منذ زمن طويل. وبالفعل فإننا لا نعرف عن هذه العربات غير تمثيلها على الصخور في 800 مكان في عموم الصحراء، ولاشيء غير ذلك، إلا الإطار الصخري. ومع ذلك فإن أصلها واضح، فالعربة ذات العجلتين المربوطة بحصانين أو أربعة، آلة حربية تقليدية معروفة حول شرقي الأبيض المتوسط منذ منتصف الألف الرابع قبل الآن، وقد استخدمها جل شعوب هذه الإقليم، والرومان بشكل مكثف وكذلك "الليبيون والكرامانت والجتول" حين تمرسوا على الخيول منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، ويشير إليها كل من هيرودوت وديودور واسترابون[1].

أسلاف البربر الملثمين: ر.مونيي (R)MAUNY يعتقد أن اللوبيين - البربر هم أجداد الصنهاجيين الذين كانوا حاضرين في هذه المنطقة منذ القدم[2]. وأشهر أولئك اللوبيين هم شعب الكرامنت "الجرمنت".

الكرامانت "الجرمنت": هم السكان الأقدمون لفزان (في ليبيا)، كانت لهم –على مايبدو– دولة تسيطر على الطرق التجارية الصحراوية، وكانت عاصمتهم تسمى جرمة. وهيرودت هو أول من أشار إليهم في الكتاب الرابع: "ويعيش هنا قوم كثيروا العدد يدعون الكرامانت، وعند الكرامانت توجد الثيران، ويمضي هؤلاء الكرامانت في عرباتهم ذات الخيول الأربعة..".

والجرمنت هؤلاء هم السكان الأقدمون لفزان، وكانت لهم ـ على مايبدو ـ دولة تسيطر على الطرق التجارية الصحراوية، وكانت عاصمتهم تسمى جرمة. وهيرودوت هو أول من أشار إليهم في الكتاب الرابع: "ويعيش هنا قوم كثيرو العدد يدعون الكرامانت، وعند الكرامانت توج الثيران، ويمضي هؤلاء الكرامانت في عرباتهم ذات الخيول الأربعة..".

وقد كان الكرامانت الشعب الوحيد الذي يستطيع اختراق الصحراء جنوبا قصد التبادل التجاري، أو خلال مطارداتهم للحيوانات مثل الفيلة والنعام. ويرجح البعض أن التوارك الموجودين حاليا بالصحراء، هم نسل أولئك الكرامانت الأقدمين. ثم انفصل الفرس عن العربة وأصبح مطية للجتول والكرامنت في غزوهم للصحراء، ذاك الغزو الذي استقر وتوطد مع الميلاد بفضل الجمل.

وهكذا يحدد هذا الإطار التاريخي بدقة أصل العربات الصحراوية إذ أدخلها البربر الأوائل إلى الصحراء أثناء توغلهم جنوبا. وحضور البربر الأوائل في الصحراء يصادف الألف الثالث قبل الآن، لسبب بسيط هو انعدام الخيل فيها قبل ذلك التاريخ، وقحطها بعده بحيث لم يعد للفرس بها مقام.

لقد نزل أصحاب العربات على رعاة الأبقار قبل أن يرغم المناخ هؤلاء الرعاة على النزوح صوب أطراف الصحراء، وبقي أصحاب العربات سادة الميدان وأثبتوا وجودهم بواسطة نقش العربات على جدران الكهوف والصخور، بينما أخذ عنصر جديد في الظهور وهو كتابة "تيفناغ"، وتبقى العلاقة بين الثقافتين مجهولة. كانت العربات رمزا للشأن لدى سادة البربر القدامى، ولم تلعب دورا كبيرا في التجارة نظرا لضعفها التقني أمام المناطق صعبة المرور[3].

رغم العداء الذي استحكم بين الرومان والجرمنتيين، فقد انبثق تحالف مدهش بين الطرفين، تأسست عليه حملتان بارزتان قام بهما الرومان عبر فزان باتجاه البلدان في الجنوب. وتمت هاتان الحملتان في عهد **تراجان** حوالي سنة 100 بعد الميلاد. وتوغلت الحملة الأولى إلى بلاد السودان، ووصلت الحملة الثانية إلى "أرض **أجيسما** وهي بلاد الأثيوبيين" أي بلاد السودان جنوب الصحراء.

وربما كان السبب في تقرّب الجرمنتيين للرومان هو ظهور الجمل الذي كان سلاحا فتاكا جعل الجرمنتيين لم يعودوا بمأمن في الصحراء التي يلجؤون إليها، على نحو ما كان للقنبلة الذرية على النفسية اليابانية.

وقد وصف الجرمنتيون أنفسهم بأنهم سود نوعا ما أو حتى شديدو السواد، ويوصفون بأنهم قليلو السّواد حسب بطليموس.

كان البربر الليبيون "الموريون Maurii"، و"النوميديون Numiddians" في الساحل، و"الجيتوليون Getules" في السهول المرتفعة، والصحراويون البيض أو الخلاسيون "الهجناء" على حدود الصحراء، مثل الفاروسيين Pharusians والنجريتيين Nigrites والجرمانتيين Garamantes، و"الأثيوبيون" المنتشرون من وادي السويس إلى شط الجريد، هؤلاء جميعا كانوا شعوب إفريقيا الصغرى في عصر الرحلات الفينيقية البحرية الأولى، وقد بقوا على هذا الحال طوال العصور القديمة.

في القرن الخامس سمع هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما الجرمانتيون والنسامونيون، وعن طريق هؤلاء الجرمانتيين حصل الرومان على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية لإفريقيا في القرون التالية، ولكن هذه التجارة لم تترك أثرا. ولكن يذكر في

المؤلفات العقيق الأحمر كإحدى السلع الصحراوية، وربما كانت هناك تجارة الرقيق، فيقال إن الجرمانتيين كانوا يتعقبون الأثيوبيين بعربات تجرها أربعة جياد[4].

وتترجم، عادة، الكلمة الإغريقية Aithiops بـ"الرجل المسفوع الوجه" أي الذي لفحته الشمس وسودته، وهناك مناقشة صريحة جدا في ندوة داكار من 19 إلى 24 يناير "كانون ثاني" 1976 عن "إفريقيا السوداء وعالم البحر المتوسط في العصور القديمة".

كان يسكن وسط الصحراء وشمال الصحراء –أساسا– عناصر بيضاء "طوال القامة، لهم ملامح البحر المتوسط.. تتصف جمجمتهم بالضخامة... الوجه طويل نوعا ما وضيق... الأطراف نحيلة"، وهي الصفات التركيبية "المورفولوجية" ذاتها "للطوارق" المحدثين... كان الحراطين في الواحات الصحراوية، رغم وجود خلاسيين بينهم، مجموعة منحدرة من "الأثيوبيين" المقيمين، كما جاء في هيرودوت، وكانوا مستعبدين للجرمانتيين الأغنياء.

يظهر الكيان الإقليمي العظيم لما يسمى بمملكة الجرمانتيين في المؤلفات اليونانية – اللاتينية، باعتباره الدولة المنظمة الوحيدة في داخل إفريقيا، جنوب الأراضي التي كانت مملوكة أولا لقرطاجة ثم لروما. وقد تصدى الجرمانتيون –كما ذكر هيرودوت مبكرا في

القرن الخامس قبل الميلاد- للتقدم الروماني على الحدود الجنوبية للمغرب، لكنهم هزموا على يدي البروقنصل كورنيليوس بالبوس "الأصغر" في السنة التاسعة عشر قبل الميلاد، ثم نهائيا أمام قائد الفرقة الإفريقية فاليريوس فستوس في سنة 69 بعد الميلاد. ويبدو أن المملكة تحولت إلى دولة على شاكلة الدول التابعة للإمبراطورية.

اليهود: الموجة الحقيقية الأولى من مهاجري اليهود التي وصلت إلى شمال إفريقيا يحتمل أنها وصلت في أواخر القرن السادس قبل المسيح، إلى سيرينايكا "برقة" (ليبيا) حيث يحتمل أنها ذابت في محيط من البربر الذين اعتنقوا اليهودية.

وفي سنة 115 م اندلعت ثورة يهودية كبيرة ضد الحكم الروماني في سيرينايكا. وبعد أن أخمدت الثورة هرب الكثير من اليهود نحو الغرب، ومن المحتمل أن البعض منهم بقي في الواحات شمالي الصحراء.

وينسب البعض شعبي الفولبي والسوننكي إلى يهود شمال إفريقيا الذين قدموا من الشمال في عهود قديمة، لكن ذلك بقي مجرد تخمين.

وقد ذكر الجغرافيون العرب وجود اليهود في بعض الحواضر الصحراوية القديمة، مثل مدينة بانكلابين (؟)، وذكر الكاتب

البرتغالي فرنندش Fernandes (1506-1507) وجود جاليات من التجار اليهود الأثرياء في مدينة ولاتة في القرن السادس عشر. وذكر البرتلي (ت.1219هـ) في فتح الشكور وجود تجار يهود يعيشون في خفارة رؤساء المدينة. وتذكر بعض الروايات المحلية، وجود "ملاّح" "حي يهوديٍ" في مدينة وادان الحالية.

إلا أن اليهود كانوا دوما من سكان الحضر، ولم يكونوا رحّلا، ولذلك كان وجودهم في الصحراء وجودا تجاريا، مؤقتا.

البَافُور: قبائل من أسلاف صنهاجة، من المور الذين قاتلوا الرومان، ولا تزال أصول هذا الشعب غامضة إلى اليوم. فلا يوجد ذكر للبافور في المصادر العربية الوسيطية، وهم على ما يبدو سكان أسطوريون تعزو الروايات المتعلقة بتأسيس حواضر آدْرَارْ موريتانيا: تينيكيِ، آبيّر، شنقيط، وادان، إعمار؛ هذه الحواضر قبل انتشار الإسلام؟ تُرجع إليهم الروايات الشفاهية المتداولة إعمار أزوكَي قبل قضاء الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر عليهم وعلى كلابهم المفترسة!

وقد حاول الباحث البولوني ت. لفيسكي (T) LEWICKI البحث عن أصول البَافُور، فأرجعهم إلى إحدى القبائل اللوبية "libyque" بموريتانيا القيصرية تدعى بافار "Bavare " اضطلعت في

القرن الثاني للميلاد بأدوار هامة في شمال إفريقيا[5]. والحق أن البَافُورْ هم من أسلاف صنهاجة وبربر الصحراء، وتدل على ذلك أسماؤهم البربرية التي بقيت معروفة إلى القرن 17م مثل المسمى "كاليت بن محنض" وغيره.

وتدل آثار البَافُورْ على أنهم كانوا شعبا بربريا قويا، قاتلت فصائله المحاربة مع المرابطين، بدليل أن مجموعة "تيزكّا" الحالية (وتحوي مجموعات لمتونية) المنتسبة للبافور هي إحدى قبائل المرابطين التي كانت في مقدمة جيوش لمْطة، وكانت تقاتل باستخدام "الدرق" اللمطية الشهيرة.

ويمكن التأكد من أن قبائل البَافُورْ هي أولى طلائع المرابطين التي سيطرت على آدْرَارْ ولذلك سمي الجبل عليهم "آدْرَارْ أن بافور" أي: "جبل البَافُورْ" ونعتقد أن ذلك تم في بداية الحركة المرابطية حدود 446هـ.

ينضاف إلى ذلك وجود شواهد تؤكد أن البَافُورْ كانوا من الظواعن كغيرهم من صنهاجة، ومن ذلك "البَافُورِيَة" وهي أضاة كبيرة في بلاد الحوض الحالية.

والحق أن الخارطة البشرية للبلاد الصحراوية آنذاك "بلاد الملثمين" أكثر تعقيدا، ولذلك فابن حوقل وصف عشرات القبائل،

بينما لم يبق في الذاكرة المرابطية، المكتوبة، سوى عدة قبائل من صنهاجة التي كانت في غرب الصحراء، وأسست دولا وممالك منها مملكة آوكار في جنوب شرقي موريتانيا الحالية.

بلاد الملثمين: من القبيلة إلى الدولة:

(ق 1هـ/7م حتى ق 5هـ/11م)

لم يكتمل التطور السياسي لبلاد الملثمين دفعة، بل كان نتيجة تجارب متعددة، استطاعت بعدها قبائل الملثمين تكوين إتحادات قبلية "كونفدرالية" أشهرها تلك التي قامت في مملكة " آوكار" في جنوب شرق موريتانيا الحالية، بقيادة عشائر "أنبيتا" (الأنباط) وعاصمتها أوداغست ومملكتها تسمى "آوكار". لكن ما هي أصول وتقسيمات قبائل الملثمين من صنهاجة وأقاليمها؟.

1- الملثمون أو شعب صنهاجة: أصولهم ونظامهم

عُرف صنهاجة الصحراء بالمُلَثَّمين، تمييزاً لهم عن بني عمومتهم من حاسري الرؤوس والقاطنين آنذاك في التخوم الشمالية للصحراء الكبرى. ولا يُعرف الشيء الكثير عن أوّليّة اللثام ودلالاته، أكثر من أنه صار شعارا للقوم ومواطنهم الصحراوية.

يقول البكري (قرطبة تـ477هـ) في هذا الشأن: "... جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب، وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه

إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميه إلا إذا تنقب، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يُعلم من هو حتى يُعاد عليه القناع، وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم وهم يُسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم".

أما ابن خلدون (المتوفى 808 هـ) فقد كان أكثر دقة في التعريف بالقوم ومجالاتهم، على الرغم تأخره في الزمان عن عهد أهل اللثام ودولتهم، ولكنه وصفهم بما نصه:

".. هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد، وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها، انتباذا عن العمران واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر، فنزلوا من ريف الجهة جوارا، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما تمايزوا بشعاره بين الأمم..".

واسم صنهاجة تعريب للفظ "الأمازيغي": إِزْنَاكَنْ، (بكاف معقودة) وهم مع مصمودة: إِمَصْمُودَنْ، زناتة: إِزْنَاتَنْ، يكوِّنون المجموعات القبلية الكبرى للأمازيغ في المغرب الكبير.

ويذهب الباحث صدقي على أزايكو ضمن بحوثه حول أصول البربر إلى رفض الأصل الأنسابي لأسماء المجموعات المذكورة، ويقترح تفسير أسمائها بما ينسجم مع نحلة العيش الغالبة على حياة القوم. فيرى بخصوص صنهاجة أنها تعريب للفظ البربري إزناكن*، وهو مركب من: إهن (=إزن)، ومعناه: الخيام المصنوعة من الجلد، وإكن (المغاورون أو الذين يمارسون الغارات). يقع التركيب إذن على هذا النحو: إزن +إكن إزنكن، وبما أن التفخيم يعتبر من مَيِّزَات اللهجات الصنهاجية، يمكن أن نفترض أن الزاي (العادية) يمكن أن تنطق مفخمة، قد تعني كلمة إزنكن، إزن: خيام القوم الذين يقومون بالغارات، ومعلوم أن هذا النوع من الأنشطة يمارس بكثرة عند رحل الصحراء.

وفي فرضية أخرى (ب): أزن: بعث، أرسل، إكن: "فرقة غير نظامية من الرجال تجتمع للقيام بحركة حربية قصد النهب".

ويبدو أن نمط العيش ذاك كان غالبا على حياة الظواعن الصنهاجيين في الصحراء مع اهتمامهم بالتجارة وخفارة القوافل، والسيطرة على الممالح المهمة لدى جيرانهم السودانيين.. ومن أشهر القبائل الصنهاجية لهذا العهد (ق 1هـ/7م) قبائل لمتونة، ومسوفة، وكدالة.

---

* الكاف معقودة وتنطق جيما مصرية.

وكان لمتونة (إيلمظن) يتمركزون في الوسط مع اقترابهم من النطاق الجنوبي المحاذي للسودان، قبل أن ينتقلوا في عهد الفتوحات المرابطية إلى جبل آدرار الذي سيصبح جبل لمتونة. وهم المعروفون بـ لمطة (إلمطنايولمظن) في الشمال المتاخم للسوس.

أما مسوفة (إيمسوفن) فقد انتشروا على طول مسالك المحور الرابط بين سجلماسة وغانة، ولم تكن لهم أي مدينة باستثناء مدينة وادي درعة أو تيومتين الواقعة على مسيرة خمسة أيام من سجلماسة.

كدالة (إكدالن) فقد انزووا نحو الغرب منتشرين على طول الساحل الأطلسي، مُحكِمين سيطرتهم على مملحة آوليل، التي كانت تمون السودان في بعض العهود. والظاهر أن اسم كدالة ربما كان مشتقا من لفظ أكدَلْ (أكّدَل: والنطق بالذال معروف لدى صنهاجة) ومعناه الحامي أو الحارس، ويكون ذلك دالا على حمايتهم للقوافل. أو يكون اسمها مشتقا من اسم آكدال: الحصن، فتكون كدالة: الحصينة أو: المحروسة، أو: الممتنعة.

ولعل كدالة –وتنطق أيضا جدالة– فرع من جماعات الجيتول "الكيتول" التي كانت من الشعوب الأمازيغية القديمة في الشمال

الإفريقي، ولربما كان ذلك مبعث تميّز كدالة على قبائل صنهاجة الأخرى من مسوفة ولمتونة، وكذا سبب الصراع الدائر بين الطرفين، رغم التحالفات الكبرى التي أفضت أحيانا إلى قيام الدولة.

الفتح الإسلامي للصحراء 62هـ-123هـ

ترددت أصداء الفتح الإسلامي لشمال إفريقية في الصحراء الصنهاجية، ثم لم تلبث هذه الاتحادات القبلية أنْ تعرضت لتأثير الفتوح مباشرة. ويرى ابن خلدون أن جماعات لمتونة وقبائل صنهاجة الأخرى، لمْ تعتنق الإسلام إلا بعد فترة من دخول العرب للأندلس، أي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

وبغض النظر عن هذا الرأي ما ذكره الزهري (نحو عام 546 هـ/ 1150م) في كتاب **الجغرافية**، من أن المرابطين، وجماعة لمتونة على الخصوص، تحولوا إلى الإسلام إبان عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م) في الوقت الذي اعتنق فيه سكان واحة ورغلة الإسلام.

ومن أقدم الإشارات عن الفتوح وعلاقتها بالصحراء، ما يُذكر عن حملات عقبة بن نافع في السوس الأقصى عام 62 هـ/682م.

وتسرد المصادر العربية، بكل ثقة، مراحل حملات عقبة ووصولها إلى التخوم الشمالية لصنهاجة اللثام، لكنها تتحاشى أن تنسب إليه اجتياز الصحراء جنوبا. ويذكر ابن عبد الحكم أن عقبة غزى إلى "السوس، وأهل السوس بطن من البربر، يقال لهم أنبية فجول في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله".

أما ابن خلدون فذكر أن هذا الفاتح "أجاز إلى بلاد السوس، لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام، وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأثخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر، وقاتل مسوفة من وراء السوس وسباهم وقفل راجعا...".

ولا تقدم المصادر الأخرى، بوجه عام، أي جديد في هذا الشأن، ومايزال الفتح العُقْبي "نسبة لعقبة بن نافع" للمغرب نفسه محل إشكال على الرغم من اكتشاف مصادر جديدة، مثل رواية صالح بن عبد الحليم في كتاب الأنساب عن دخول عقبة إلى المغرب، وجولاته في بلاد هسكورة، ووصوله إلى السوس وقفوله منه، في تفاصيل لا تخلو من دقة، وقد سبق أن نشر **ابروفانصال** هذه الرواية (العدد الأول من مجلة **آرابيكا** Arabica سنة 1954)، واعتبرها أقرب روايات الفتح إلى الواقع وأبعدها عن الأسطورة، نظرا لاعتمادها على روايات شفهية لذكرى أحداث محلية...

وقد أورد البحاثة القدير أحمد التوفيق جانبا من هذا النقاش في أطروحته الشهيرة (المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: ص 58–59 و86) ونبّه إلى أن "التصديق بمثل هذه الجولة عبر المَمَرّات والخوانق الجبلية الوعرة، وخلال كُتَل بشرية هائلة متنافرة متلاحمة ومن أجل نشر دين جديد، من الأمور التي تستدعي غاية الحرص والتردد".

ومن المنطلق نفسه يقرر الأستاذ محمد بن مولود إبن داداه الشنافي "أن المجموعة المسوفية، كانت تنتجع إلى أطراف السوس، مما يعني أن جيوش الفتح قد خضدت شوكة قبائل اللثام في تلك الثخوم ولم تتوغل نحو الجنوب حيث مجالات صنهاجة المسماة "أنبية" والتي كانت تعني آنذاك صحراء الملثمين نسبة لمملكة أوداغست سالفة الذكر". كما أن اسم أنبية (أنبيتا) هذه، سيتردد في أخبار حملات أخرى انطلقت من السوس صوب الصحراء، ولعلها بلغت مصب نهر السنيغال في أقصى الجنوب الغربي الموريتاني!؟ ومن أشهر هذه الحملات ما تحدث عنه أبو الخطاب الأزدي (أو: الأسدي) (ت 145هـ/762م)، من رواية نقلها ابن الفقيه، منها العبارة التالية عن القائد العربي المشترى إبن الأسود "غزوتُ بلاد أنبيَّةَ عشرين غزوة من السوس الأقصى فرأيت النيل (نهر السينغال) بينه وبين الأجو الأجاج كثيب". ونحن نعتبر حملات المشترى بن

الأسود أهم مراحل الفتح الإسلامي لبلاد الملثمين "موريتانيا"، ولعلها تمت في عهد والي السوس اسماعيل بن عبيد الله ابن الحبحاب سنوات قبل 123هـ.

وبغض النظر عن حملات المشتري هذا، وأسباب ذكر اسم أبي الخطاب فيها، فإن حملات أحفاد عقبة قد وصلت إلى الإقليم. من ذلك حملة حبيب بن عبيدة بن عقبة التي وصلت إلى مشارف آوداغست، وقد عاد منها هذا الفاتح مُحَمَّلًا بالذهب والأسرى. وتلفت الانتباه إشارة المصادر بخصوص الغنائم جاريتان، فمن بينها وهي جنس تسميه البربر "أجّان" وهو على ما يبدو تحريف للتسمية التي يطلقها الصنهاجيون على مجاوريهم من السودان، وأصل التسمية يرجع إلى صيغة: أجان، جناوة، (بجيم مصرية)، وينطق أيضا بالكاف المعقودة الشائعة في النطق الصنهاجي: أكان، كناوة، وكذا الأمر في الصيغ الأخرى مثل: أكني، جني، تكانت: تجانت، (الكاف معقودة والجيم مصرية). وهي اصطلاحات تحيل إلى الغابة، أوالمناطق الكثيفة الأشجار، كما تطلق على سكان تلك الأماكن من السودان، ومنها: غانة، غينيا. والأمثلة كثيرة في هذا الباب وأشهر من أن نقف عندها.

ويُذكر أن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة قد حفر سلسلة من الآبار "من تامدلت إلى مدينة آوداغست"

وكان لهذا الإجراء نتائج طيّبة على حركة القوافل ونشاط الدعاة المسلمين.

والمفهوم أن مختلف الحملات المتأخرة، كانت موجهة ضد الاتحاد الصنهاجي الذي كان يقود نبلاء لمتونة المعروفين الأنبيتا (الأنباط)، ذلك أنه بعد انفراط عقد هذا التحالف، لم تشر المصادر إلى حملات أخرى على الإقليم. فهل يتعلق الأمر بحصول سكان الصحراء، آنذاك، على درجة من الأسلمة كافية لحمايتهم من بطش الفاتحين العرب؟

نحسب أن الأمر كذلك وإلا لما ذكر الإخباريون أن صنهاجة في تلك الفترة، أنهم كانوا "على السنة مجاهدين للسودان" وأن رئيس حلفهم عبد الله بن تفاوت كان "من أهل الفضل والدين والحج والجهاد". إلا أن هذا الإسلام "السني" و"الجهاد" ضد مشركي السودان، قد لا يعني تعمّق الأسْلَمَة بين الصنهاجيين، بدليل سطحية إسلامهم التي كشف عنها بدء أمر المرابطين، بل قصارى ما يمكن فهمه من تلك "السُّنِّيَّة" هو تَمَيُّز الإسلام الصنهاجي على ما يجاوره من الدوائر الدينية والمذهبية المنتشرة آنذاك حول الصحراء، ومن هنا لم يُنسَبْ الصنهاجيون إلى أيٍّ من تلك الفرق والمذاهب، كما لم يُصَنَّفُوا، في الكتابات التي أشارت إليهم، إلا في عداد "أهل السنة".

وتسرد المصادر العربية، بكل ثقة، مراحل حملات عقبة ووصولها إلى التخوم الشمالية لصنهاجة اللثام، لكنها تتحاشى أن تنسب إليه اجتياز الصحراء جنوبا. ويذكر ابن عبد الحكم أن عقبة غزى إلى "السوس (...) وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبيَّةَ فَجَوّل في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله". وقد هزّ الفتح العقبي رتابة الحياة الصنهاجية وعرّفهم على الدين الجديد وربط البلاد بدار الإسلام وهموم السياسة والحكم في الشمال. لكن الكيانات السياسية الصنهاجية التي نشأت بعد ذلك ظلت بعيدة عن الإسلام.

I- مملكة آوكار جنوب شرقي موريتانيا:

كلمة "آوكار" تعني بالصنهاجية العروق الرملية الكبرى الممتدة، "تعني جغرافيا إقليم الحوض الحالي الواقع في جنوب شرقي موريتانيا"، وعاصمته "أوداغُست" ومعناها: الجنوبية. وكانت عاصمة للملثمين من صنهاجة الذين تحكمهم قبيلة "أن بيتا الأنباط" ومنها بيت الملك "ور تاندغ ور ناسن" وتكتبه المصادر الجغرافية العربية : "ور تانطق" ومنه ينحدر ترجُوت: الجدة الجامعة لبيت الأمراء المرابطيين كأبي بكر ويحي، ابنا عمر، وابن عمهم يوسف بن تاجفنت "تاشفين" وذريته. ومن فروعه مجموعة تندغة التي ماتزال تحمل الاسم.

تكتلت هذه القبائل، في اتحادات سياسية وصل بعضها إلى مستوى كبير من النفوذ، ومن أشهر هذه الإتحادات، مملكة "آوكار" (كلمة بربرية معناها: الحوض وهي التسمية الحالية لنفس الإقليم في "شرق موريتانيا") وعاصمتها أودغست** التي ازدهرت قبل المرابطين بكثير، ومن أقدم من ذكر هذه المملكة الرحالة اليعقوبي، في حديثه عن "بلاد أنبيّةَ وقاعدتهم غُسْت (آوداغست) وأن لهم ملكا لا دين له يغزو بلاد السودان..."، وبعده أشار المسعودي (ت. 345 هـ/956م) ناقلا عن الفزاري (نحو عام 172 هـ/788م) إلى اسم أنبيّةَ (أنبيّتا) للإشارة إلى الأراضي الواقعة بين سجلماسة ومملكة غانة، أي تقريبا، النطاق الغربي من الصحراء بأكمله.

** أوداغست: مدينة تقع أطلالها شمال شرقي حاضرة تامشكط (تامشكذ) في ولاية الحوض الغربي من شرقي موريتانيا الحالية.

ازدهرت منذ القرن 2هـ/8م كمحطة للقوافل ومركز للتبادل بين بلاد السودان والصحراء والمتوسط، وسكنتها جاليات من بربر نفوسة وجربة (تونس) ووارجلان (ورجلة) (بالجزائر). وخضعت لسلطان ملك غانة ثم سيطر عليها صنهاجة ثم عاد سلطان غانة عليها قبل أن يفتحها المرابطون في أواسط القرن 5هـ/11م.

وصف ازدهارها التجاري وغناها الأسطورب بالذهب كثير من الرحالة العرب مثل اليعقوبي والبكري والإدريسي وغيرهم.

انجزت الحكومة الموريتانية بمساعدة أثاريين فرنسيين حملة تنقيب عنها منذ الاستقلال ونشرت نتائج الأبحاث في مجلة المعهد الموريتاني للبحث.

وتدلُّ أوصاف الرّحّالين على أن هذا الاسم "الغامض" كان يكمن وراءه أقدم اتحاد لبربر الصحراء الغربية، ويقول ابن خلدون إن هذا الاتحاد كان يتألف من مسوفة ولمتونة وكدالة.

دولة صنهاجة وعلاقاتها مع الفهريين: 127-157هـ

كانت طلائع الفتح الإسلامي الفعلية للصحراء، هي التي تغلغلت سنتي 116 و117هـ، وقاد الأولى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهري أو ابنه عبد الرحمن، وذلك في ولاية عبيد الله ابن الحبحاب على شمال إفريقية. وقد أصبحت الصحراء الصنهاجية تابعة للفهريين منذ أن آل أمر إفريقية والمغرب إلى الفهريين تحت إمرة عبد الرحمن بن حبيب حوالي سنة 127هـ. وكان أول ملك لمملكة صنهاجة هذه في ظل الفهريين هو ترجوت بن ور تاسن (ور تاندغ) بن منصور ت 157هـ/775م. ثم تولى الملك إبراهيم ابن ترجوت، وبعد الاضطرابات التي عرفتها دولة الفهريين منذ 138-140هـ، بدأ انفصال الصنهاجيين بدولتهم الخاصة. لكنها ظلت خاضعة للخلافة الإسلامية عن طريق ولاة آخرين في المغرب الإسلامي. وتولى بعده **تلاكاكين** وهو ملك معروف في شجرة ملوك أوداغست وأجداد قادة حركة المرابطين من لمتونة. وكان أول رئيس صنهاجي مستقل يتولى الحكم في غرب الصحراء هو

تيولتان بن تلاكاكين (أو: إتلوتان بن تلاككين) الذي ينتمي إلى قبيلة لمتونة، وترفع المصادر نسبه إلى مصالة بن منصور بن ويسنو بن نزار، وإن مركز مملكته كان في مدينة آوداغُست، وأنه حكم الصحراء كلها، ودان له أكثر من عشرين من ملوك السودان، حيث كانوا يدفعون له الضرائب، وكان يستطيع تجهيز مائة ألف من الجمال الأصيلة، وقد طال ملكه وتوفي في الثمانين من عمره وخلفه حفيده الأثير بن باتن، الذي تولى الملك حتى توفي عام 277هـ/900م. وكان آخر ملك لصنهاجة هو ولده تميم الذي تولى حكم هذه القبائل حتى عام 306 هـ/918م وقد قتل على أيدي أعيان صنهاجة الذين ثاروا عليه لأسباب نجهلها.

وقد كانت مملكة صنهاجة في أوقات القوة تفرض الجبايات على مملكة غانة، لاسيما عاصمتها الثانية "كومبي صالح" الواقعة في شرقي البلاد، والتي أسسها أحد أجداد شرفاء تيشيت من ذرية الشريف صالح الأخيضري من ذرية موسى الجون الإدريسي بالوطن.

وعلى إثر ذلك حدث انشقاق بين قبائل صنهاجة، ولم تعد إلى الوحدة من جديد إلا بعد 120 عاما تحت قيادة الأمير أبي عبد الله ابن تيفاوت المعروف باسم (تارشَنّى) وهو أحد رؤساء لمتونة، وقد توفي عام (426 هـ/1035م)، ولم يدم حكمه سوى ثلاث سنوات. وجاء بعد ذلك، حسب الرواية الشائعة، صهره يحيى

ابن إبراهيم الكدالي*، وأصبح رئيس صنهاجة، ونحن نعتقده لمتونيا، وبفضله تحولت هذه القبائل من إسلامها السطحي إلى مذهب أهل السنة على يد الداعية عبد الله بن ياسين.

وبذلك لم يتعمق إسلام القوم إلا مع حركة المرابطين التي ستضع ما سيكون المعتقد السني الصحيح في شكله الطبيعي وتوحّد المجال الديني والثقافي والسياسي على نحو حاسم.

II- حركة المرابطين: 426-541هـ

ينبع اهتمامنا بالحركة المرابطية من منزلتها من تاريخ موريتانيا، إن على مستوى مسار الحركة العام، أوعلى مستوى ما أفضت إليه من نتائج. ولكننا مع ذلك، سنركز على مسألة الرباط وسياقها الدلالي والمصطلحي لما لها من وثيق الصلة ببعض إشكالات الزوايا والتقاليد المرابطية الآتي بحثها، إضافة إلى النتائج البعيدة المدى للحركة على مستوى الثقافة والمجتمع.

أ أوّليّةُ حركة المرابطين:

تقص الرواية شبه المجمع عليها، أنّ أوّليّةَ المرابطين تعود إلى حجة زعيم صنهاجة يحيى بن إبراهيم اللمتوني وليس الكدالي كما هو شائع بل هو لمتوني لأنه من ذرية إبراهيم بن ترجوت حسب

* الكاف معقودة.

الصيرفي في شذراته الموجودة وهو الأعرف بالمرابطين تاريخا وأنسابا، وقد عرج في مقفله من حجه، على القيروان، وفيها لقي شيخ المالكية أباعمران الفاسي (ت.430 هـ/1039م) وقد طلب الكدالي (حسب الرأي السائد وهو ما سنلتزم به درءا للخلط) من الفاسي أن يرسل معه أحد تلاميذه، ليعلم قومه في الصحراء واجباتهم الدينية التي كانوا يجهلونها، ولما لم يجد الفاسي تلميذا يقبل تحمل مشاق الرحلة وصعوبة العيش في الصحراء، فقد نصح الكدالي بأن يمر بتلميذ آخر للفاسي هو وُكاك بن زلو اللمطي المقيم في ملكوس في السوس، وقد وجد الكدالي بغيته هناك، حيث أصحبه وجاج تلميذه عبد الله ابن ياسين والذي أبدى حماسا للرحلة وأهدافها.

وعلى الرغم من بعض المصاعب التي لقيها الداعية الجديد، وهو أمر مفهوم، فإن مسار الدعوة أفضى إلى تطور الدعوة بسرعة من دعوة إصلاحية إلى حركة جهادية، اندفعت شمالا محطمة سيطرة زناتة ومنهية سيطرة "الجيوب البدعية" (من مختلف أصحاب الفرق والدعوات المنحرفة)، ثم كرت جنوبا لتدك آودغست على سكانها دكا، عقابا لهم على قبولهم سلطان ملك غانة الوثني، ثم استمر مسار الحركة لتصبح دولة قائمة بين مراكش والصحراء في سياق معروف.

وقد ظلت مدينة "آزوكي" (أزكي) الواقعة حاليا قرب مدينة أطار في آدرار الموريتاني، عاصمة للمرابطين، وبها قلعتهم المشهورة،

وحيث قبر قاضي الدولة المرابطية ومتكلمها محمد بن الحسن المرادي المتوفى سنة 489م.

ويمكن، تلخيص كرونولوجيا الحركة المرابطية في التواريخ التقريبية التالية:

قبل 430هـ/1039م	محجّة يحي بن إبراهيم اللمتوني "الكدالي خطأ" 446هـ/ 1055/1054م فتح القبائل البربرية غير المسلمة، في وادي درعة والهجوم على سجلماسة والرجوع على أوداغست ودكها دكا على سكانها.
448هـ/1056م	ثورة كدالة
محرم 21 مارس- 19 أبريل 1056م	استشهاد يحي بن عمر اللمتوني
448هـ/ 1056م	تولية أبي بكر بن عمر اللمتوني غزو السوس ودخول نول لمطة "آسْرير"
محرم 450هـ/يناير إلى فبراير 1057م	الفتك بسجلماسة بأمر أبي بكر بن عمر
450هـ/1058م	استطلاع بلاد مصمودة بقيادة عبد الله بن ياسين
17 ربيع الثاني 450هـ/ يونيو 1058م	انطلاق الحملة نحو أغمات
2 جمادى الأولى 450هـ/27 يونيو 1058م	السيطرة على أغمات

1 ذو القعدة/11 ديسمبر 1058م	انطلاق الحملة إلى تامسنا حيث برغواطة
آخر شهر سنة 1058م	الحملة على زناتة تادلة
451 هـ/1059م	استشهاد عبد الله بن ياسين ووفاة ابن عدو خليفة ابن ياسين
460 هـ/1068م	تعيين الحكام بأمر من أبو بكر بن عمر اللمتوني
ذو القعدة 460هـ/ سبتمبر 1068	زواج أبوبكر بن عمر بزينب النفراوية
461هـ/1068–1069م	الحملة على بلاد المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين والبحث عن خيارات لبناء مدينة مراكش
465 هـ	تخلي أبي بكر عن حكم المغرب ليوسف، وتقسيم الجيش
468 هـ	فتح فاس على يد يوسف بن تاشفين
468 هـ	استشهاد أبي بكر بن عمر في هضبة تكانت "موريتانيا"
475 هـ	فتح وهران وتلمسان
480 هـ	وفاة ابراهيم بن أبي بكر
481 هـ	ولاية محمد بن يحي بن عمر على الصحراء وتوليته الحضرمي قاضيا له
489 هـ	وفاة القاضي أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي

واستمرت الحملات المرابطية حسب التطور المعروف في المصادر الوسيطة حتى انهيار الدولة في المغرب والأندلس. لكن المعارك المرابطية الكبرى في صحراء الملثمين لم تحظ بمعالجة كافية بل لعلها أُهملت تماما. ومن أشهرها معركة الجبل، وهو جبل آدرار الحالي (شمال غربي موريتانيا) وقد دارت فيه معارك طاحنة استمرت عدة أيام، وانتصرت فيها قبائل صنهاجة، فسماها الداعية عبد الله ابن ياسين بالمرابطين.

وفي هذه المعركة سيطر المرابطون على عاصمة آدرار وهي أزكي أو آزوكي، في بعض النصوص، وتقع حاليا في آدرار موريتانيا قرب مدينة أطار الحالية، وبنوا بها حصنا مهما في قلب الواحة، سيحاصره كدالة والوثنيون السودانيون قبل أن يواجههم يحيى بن عمر اللمتوني وحليفه المجاهد السوننكي أمير تكرور لأبي إبن وارجابي، ويستشهدان معا في موضع سمّاه البكري تيغرلي "بين تاليوين وأزكي"، وهو اليوم يقع على بعد 90كلم من قرية وكشضة من إقليم أوجفت بولاية آدرار.

نتائج الحركة المرابطية

لقد كان للحركة المرابطية نتائج بعيدة على المجتمع والثقافة في غرب الصحراء، ويمكن أن نذكر بعضا من هذه النتائج الأساسية في الآتي:

– **توحيد العقيدة:** مسح الإسلام المرابطي الطاولة مسحا، حيث قام بتصفية الجيوب البدعية في الشمال وقضى على رواسب الوثنية جنوبا، ولذلك لم توجد بعد المرابطين، على حدّ العلم، أية اتجاهات كلامية غير سنية بَلْهَ نحل ومذاهب مخالفة للإسلام على نحو صريح يعلنه أهل الصحراء.

ويمكننا تأكيد خلو الإسلام المرابطي وآثاره العقدية، من أي عنصر من العقيدة الأشعرية بل كان إسلاما سلفيا بالمعنى البسيط للكلمة آنذاك، ويرجع ذلك إلى عوامل منها جذور المرابطين المالكية، كما كان المالكيون متشددين، عموما، في رفض علم الكلام أسوة بالإمام مالك ابن أنس. وبالرغم من أن النفس الأشعري قد تسرب إلى المالكيين الأوائل في المشرق والقيروان، إلا أن الطبقة المالكية التي أطّرت الحركة المرابطية لم تكن لها صلة واضحة بهذا المنزع العقدي.

ينضاف إلى ذلك عنصر محدودية خصوم الحركة المرابطية في الصحراء، على مستوى الجدل العقدي والكلامي، حيث لم يُؤثَر عن ابن ياسين ولاعن غيره من المرابطين أنهم دخلوا في محاججة أيا كان شكلها العقدي مع أرباب المذاهب والملل في الصحراء، على الرغم من الوجود القديم للفرق الإسلامية الأخرى كالأباضية، والشيعة وعناصر باقية من الأديان السماوية الأخرى. ولذلك كانت

مواجهة المرابطين لخصومهم، هناك، "منازلة بالسيف والسنان لا بالقلم واللسان". ويبقى السبب الحاسم في غياب الأشعرية من الإسلام المرابطي هو السبب الهيكلي "البنيوي" المتمثل في عدم عناية البدو الرّحل والظواعن عموما، بالنزعات الباطنية، والعقائد الموغلة في التجريد، الذي يدق عن أفهام "العامة" ناهيك عن الحضور المتكلمين السنيين الأشاعرة المتمحضين لعلم الكلام إلى الصحراء بعد قليل وليس له تأثير يذكر.

والدليل على ذلك أن قاضي الدولة المرابطية في مدينة أزوكي(الكاف معقودة) وهي عاصمتهم بالصحراء، أبا بكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي القيرواني، (ت.489هـ)، لم يستطع نشر أي موروث كلامي أشعري بالصحراء، على الرغم من كونه شخصيا أول من أدخل علوم الاعتقادات إلى المغرب الأقصى، كما أنه صاغ آراءه الكلامية والعقدية ضمن أرجوزات سهلة الحفظ، ومع ذلك لم تبق لنا منها آثرة أو ذماء، وإلا لكان المتأخرون قد تداولوها حفظا وقراءة أو أعادوا إنتاجها على نحو آخر. وهو حال أضرابه من علماء دولة مرابطي الصحراء: إبراهيم الأموي ت.512هـ الذي تولى خطة التدريس وعُرفت أسرته وتلاميذه بـ"المجلس" وهو عينه "مدلش" اسم القبيلة الزاوية المشهورة، التي أسست تقاليد التخصص الديني والعلمي بين القبائل الصنهاجية.

ثم إن الطابع المذهبي المالكي قد طغى، منذ البداية، على المشروع المرابطي، فضلا عن قبول أهل الصحراء هذا المذهب. وبسهولة، تفسر نجاح دعوة المرابطين واستمرارها في الإقليم.

الانسجام الفكري: وضع المرابطون أسس الوحدة المذهبية عندما نشروا المذهب المالكي على نحو صارم مع قدرة مشهودة على مواجهة ما يستجد من إشكالات.

وسيظل الفقهاء المحليون، بعد ذلك، يَمْتَحُون من هذه الوحدة المذهبية في مواجهة كل نزعة تجديدية أو تأصيلية. ويبدو أن العوامل التي أدت إلى ضمور الأشعرية في الإسلام المرابطي، كانت هي الفاعلة في التمكين للمذهب المالكي في الصحراء. ويرجع ذلك إلى أن المذهب المالكي كان معارضا للرأي، وعلم الكلام سدا للذرائع، وهو ما جعله يشكل، آنذاك، الوجه الآخر لعقيدة السلف التي هي على الأرجح، حسب رأينا، العقد الذي قبله أهل الصحراء لبساطته ووضوحه قبل أن يتبنوا نقيضه "الأشعرية" في القرن العاشر الهجري بفعل انتشار الثقافة العربية ـ الإسلامية المعمقة في مجتمع قبائل الزوايا..

ولعل هذا مقصد ابن خلدون بقوله إن "البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس (ومن في معناهم من أهل الصحراء) ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا لأهل

الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي عندهم غضا ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب".

إن هذه الخصوصية التي امتاز بها المذهب المالكي على مستوى مبادئه وأساليبه، أي نسقه الفكري، هي ما نحسبه البريق الذي جذب إليه جماعات صنهاجة الصحراء لكونهم رحلا وظواعن، لا يستطيعون، كحالهم مع العقد الأشعري، قبول الأنساق الفكرية التي تميل إلى التعقيد أو تَبَنِّي الأساليب الاستدلالية المفضية إليه. ولم يقبلوا الأشعرية إلا بعد أن تمهدت لديهم أسباب العلم الشرعي ومتماته من معارف العربية، وهو ماتم لهم بعد قرون متطاولة في حدود 10هـ وتاليه.

ونظرا لأن الصنهاجيين الرحل كانوا أميل إلى الأفكار التي تلائم حياتهم الصحراوية قسوة وبساطة، فقد وجدوا في المذهب المالكي، وفي صورته المرابطية، ضالتهم المنشودة، حيث حمل هذا المذهب إلى الصحراء طابعه الماثل في زهد موغل في البساطة، وورع صارم معروض في صرامة الأحكام وسد الذرائع، إلى جانب قدرة مشهودة على التكيّف مع الواقع وما يطرحه بين الحين والآخر، من نوازل تستدعي انزياحا مقابلا لها على مستوى المدونة المالكية.

– **المستوى السياسي والاجتماعي:** ترك العهد المرابطي تقليد السلطنة الاسلامية الشرعية، النابعة من رضا المسلمين وبيعتهم، وبذلك فقد بقيت دولة المرابطين "الراشدة" النموذج الذي يقاس عليه في كل الحركات التوحيدية العملية والنظرية، كما بقي البحث عن شخص الإمام هاجس فقهاء البلاد وإلى اليوم.

وتعزو للمرابطين الذاكرة الشعبية تقسيم المجتمع إلى فئات ثلاث حسب حرفها الأساسية: فئة محاربة (سميت بعد ذلك: حسّان) فئة عالمة (سميت فيما بعد: الزوايا)، وفئة تمتهن الرعي والإنتاج (أزناكة) والكاف معقودة. ومهما كان في هذا التصور من الميكانيكية، فإنه يدل على أن الحركة قد أورثت المجتمع الصنهاجي (فالموريتاني عموما) بنية من النماذج والأطر والتعيينات المؤسسية والخطابية، متجددة وقابلة للاستثمار في كل العصور، لإنتاج مختلف الاختيارات في الفكر والاجتماع ونحل العيش.

ب– مسألة الرباط:

كان التفسير الرائج لاشتقاق كلمة مرابطين أنها مشتقة من رباط أو من رابطة، كانت في شكل موقع محصّن يقع على الساحل أو قرب التخوم، يكرس للعبادات والتربية الزهدية، أو لهذا بأجمعه، وليس لهذا التفسير من أساس سوى عبارة لابن أبي زرع ات. بعد

عام 733هـ/1325م) في سياق حديثه عن اعتزال ابن ياسين مع جماعة في مكان منعزل قرب البحر أو النهر، وقد تابعه ابن خلدون بأسلوبه المميز، مما أعطى للرواية مصداقية عجيبة، مع أنه لا أساس لها. وقد تخلت المدرسة الحديثة عن هذا الرأي القائل إن كلمة المرابطين تعني "أصحاب الرباط". وقد جاء الدليل القاطع على يد علماء الآثار في حملتهم في جزيرة تيدرة (شمال انواكشوط على الساحل)، حيث لم يجدوا ما يسمح بقبول فكرة ابن أبي زرع. وقد خصص الباحث الشهير موريس فرياس دراسة ضافية وجامعة لمسألة الرباط وأصولها المختلفة، وقرر بناء على رأي البكري، أن كلمة رباط، في كل ما يتعلق بالمرابطين، كان لها معنى مرتبط مباشرة بالجهاد والقوات التي تخوض الجهاد.

توصل، من خلال مناقشات بارعة، فارياس إلى أن الافتراض المأمون هو أن كلمة رباط، متأتية من المعنى القرءاني الأصلي، الذي لا علاقة له بالمنشئات العمرانية الحصينة التي ظهرت لاحقا بنفس الاسم، ولقد كان هذا المعنى الأصلي متصلا بالجهاد، إما عبر فكرة حبس الخيل جمعا وإعدادا للجهاد أو عبر فكرة ترتيب المحاربين صفوفا لأجل القتال، وفي نفس الاتجاه، نعتقد أن تقاليد المرابطة، على هذا النحو، قد تلقاها ابن ياسين عن شيوخه الأول ولا سيما وُكاك، وقد كان وُكّاك (اسم بربري معناه: ابن الطالب) بن زلوى اللمطي يؤكد

صاحب كتاب القبلة إنه كان من تلاميذ ابن تَيْسيّيت بأغمات قبل قيام المرابطين، ومن طلبة هذا الشيخ الذين جاهدوا برغواطة.

إن المهم من صلة وجاج بابن التيسييت، هو أنه قد تلقى عنه تقاليد المرابطة والجهاد التي عمقتها المعارف المتلقاة عن الفقيه الفاسي، مما جعل وجاج يؤسس رباطا أكثر أهمية سماه دار المرابطين، ولعل هذا التأسيس كان المرحلة الأكثر اكتمالا لتقاليد المرابطة في بلاد المغرب.

وبذلك فإننا نعتقد أن لفظ المرابطين تعبير عن مجموع تعاليم "دعوة الحق" التي كانت شعارا للمنضوين خلف لواء الحركة، أكثر منه تجسيدا لرباط أو رباطة حصنا كان أو مدرسة، ونحن نقول برأينا هذا لكونه الأنسب لتاريخيّة المفهوم والأكثر انسجاما مع "النظر الحَفْرِيِّ" الذي أضحى يشكك في إجرائية مباحث البدايات والأصول وما إليها.

ومع ذلك فإن أشهر الرباطات المرابطية التي لاجدال في تاريخيتها، مدينة "أرْتَنَنّي" الواقعة في شرقي موريتانيا الحالية. وكذلك لإن اللفظ قد فشى في المصادر الوسيطة وفي الروايات المحلية، علَمًا على القبائل التي قامت بأمر الدعوة تمييزاً لها على القبائل "المغضوب عليها" التي ناوأت الحركة في مهدها الأول أو في

الشمال. على الرغم أننا قد نجد اسم المرابطين دالا على لمتونة دون غيرهم من قبائل الدعوة، مثل مسوفة، وربما كان ذلك بفعل المكانة التي حازتها لمتونة في قيادة جيوش الدعوة، ثم في تولي السلطة في الشمال والجنوب، أو بما كان للمتونة من السبق في الإسلام المرابطي، أو لهذا بأجمعه، كما ظل يطلق على مجموع القبائل المرابطية بعد اضمحلال المركزية المرابطية، يذكر ذلك سيد محمد الخليفة الكنتي المتوفى سنة 1242هـ/1826م، في كتابه الغلاوية، في سياق حديثه عن إمارات لمتونة في الصحراء أواخر القرن الثامن الهجري/14م. ويمكن بشيء من التجوز التفكير في الافتراضات التالية حول نهاية المرابطين وتشكل المجتمع الصنهاجي بعدهم ثم الحرب الحسّانية- اللمتونية.

نهاية دولة المرابطين (543هـ/1148م) الأولى

لا نعرف بالتدقيق ظروف نهاية سلطة المرابطين الموحدة في الصحراء، لكننا نملك بعض الإشارات المفيدة. فبعد الخلاف بين أبي بكر ويوسف بشأن ملك المغرب، انقسمت الدولة إلى شطرين: شمالي يملكه يوسف، وجنوبي يحكمه أبوبكر.

ولم يبق في ذاكرة أهل الصحراء من سكان موريتانيا اليوم إلا حدث رجوع هذا الأمير المرابطي نحو الصحراء، بل إن الرواية

الشفهية غلب عليها عنصر المبالغة كالعادة، واعتبرت أبابكر بن عمر اللمتوني فاتحا للصحراء، قادما من الشمال، وقد يكون لذلك التصور مسوغه لأهمية فتوحات الرجل مقفله من المغرب.

كما ظل عالقا بالذاكرة المحلية حدث رجوع "محلّة بوبكر ابن عامر" في الإصطلاح الشعبي وكونها أصل كل الإمارات اللمتونية التي نشأت في الصحراء بعد نهاية الدولة المرابطية. وهو استحضار له أهميته في تاريخ تلك الحقبة وما تلاها، لأن "المحلّة" هي تعريب لـ"تاكرارت" وهي أيضا "المعسكر" وقد سمّى به المرابطون جل الأمكنة التي نزلوها وكل الأحياء التي احدثوها ابتداء.

ذكر ابن خلدون[6] أن يوسف بن تاشفين لما فتح تلمسان "أنزل بها محمد بن تيغمر المسوفي، فصارت ثغر المملكة واختط بها مدينة تاكرارت.. وهو اسم المحلة بلسان البربر. وورود اسم تاكرارت هذه في تاريخ المرابطين كثير ومشهور، حتى تمهد لنا أنه جزء من نظام قائم في حياة القوم[7].

وكان ذلك بداية تشتت قوة لمتونة وقبائل صنهاجة الأخرى. يقول البكري المعاصر لهم[8]: "وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة، أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر غير ملتئم.." لقد توفي أبو بكر بن عمر اللمتوني 468هـ/ 1075م أو 480هـ/1087م بعد معركة

ضد وثنيي السودان ومايزال قبره معروفا في بلدة "أم العويتقات"، في بلاد تكانت، من شرقي موريتانيا الحالية. وقد شكلت حملة الجهاد الطويلة التي خاضها أبوبكر بعد رجوعه تأسيسا للطريق التجاري الذي سلكه وظل يعرف بـ"طريق اللمتوني"[9]. وقد تولى السلطة بعده أبنه ابراهيم بن أبي بكر بن عمر، وكان تولى ولاية سجلماسة في عهد أبيه بدليل النقود التي ضربت في عهده سنتي 463هـ و465هـ. لكن يبدو أن ملكه لم يُعمّر، إذ سرعان ما سيطر يوسف بن تاشفين على مقاليد الأمور من مراكش. وقد حاول ابراهيم استرداد الملك من يوسف، فنفر في جمع كثير من لمتونة ونزل أغمات لكن الأمير مزدلي بن تيلكان أو تيجكان نصحه بالعدول عن الفكرة وحصل له على هدايا عاد بها ابراهيم إلى الصحراء. ويبدو أن محمدا بن يحي بن عمر كرر المحاولة، لكن في اتجاه إحياء الجناح الصحراوي للدولة، حيث أعاد تنصيب المرادي في نفس الخطة التي تولاها في عهد أبي بكر. يقول ابن بسام الشنتريني: "..." ويذكر ابن حامد نقلا عن الغرناطي ما نصه: "بقيت إفريقية في أيدي الملثمين إلى أن استردها الملك محمد بن يعقوب الموحدي منهم في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وطردهم إلى البر وأكلهم الدهر. ولم يبق من هذه الطائفة من يلي الملك بعدهم إلا طائفة **بالتكرور** أولهم ابراهيم بن عمر التكروري، وهو أول من ملك من آل بيتهم بالتكرور. ثم ملك بعده ابنه داود ثم ملك بعده إدريس

بن إدريس بن إبراهيم ثم ملك بعده عثمان بن إدريس بن إبراهيم. وكان عثمان هذا ملكا مرابطا مجاهدا. وهؤلاء إما في جزء بلاد التكرور من برنو وكانم لوجود هذه الأسماء في ملوكهم، أو في ممالك مالي وسنغاي لإشارة ليون الإفريقي إلى ذلك.

ويذكر ابن عذارى[10] أن لأبي بكر ابنين هما: إبراهيم ويحي. وأن إبراهيم "لم تُعرف أمه وكان أسود الجلدة" فلعله عُرف بالتكروري نسبة لأمه.وجاء في راوية مهمة أوردها ليون الإفريقي[11] أن أسلاف مملكة مالي أسلموافي عهد أبي بكر بن عمر ويسميه ليون خطأ عمر ليوسف ملك مراكش، وجاء في صفحة أخرى ذكر تزويج ابي بكر ابنته من عاهل المندانغ "كانجابا" الذي أسلم على يديه.

ومن العجيب إشارة ليون إلى أن الإمارة المؤسسة لمالي هي من ذرية أمراء المرابطين لكنها ضعفت حتى صارت ذريتها خاضعة لسونغاي وليس لها سلطان ولا مال.

ويقول ابن خلدون[12]: "وبقي من أقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة واختلاف البين وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان يجبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم..".

والظاهر أن من يقصدهم ابن خلدون هم قبائل مسوفة واخوانهم من التوارق الذين دخلوا في ظل مملكة مالي فوريثتها

جزئيا مملكة سنغاي، وصارت تلك القبائل تقوم بدور يشاكل دور قبائل المخزن في المغرب.

والدليل على ذلك أن ابن خلدون كان على اطلاع على أحوال الجانب الشرقي، من بلاد اللثام المصاقب لبلاد السودان وكان بإمكانه الحصول على أخبار تلك الجهة لوجوده في بلاطات الدويلات المرينية والحفصية في المغرب والتي اتصلت بينها السفارت مع ممالك السودان فضلا عن نهضة الطريق الشرقي الرابط بين السوادن، والمغرب الأدنى "إفريقية"، والأوسط عبر اتوات التي تصعد منها فروع الطرق نحو تلمسان، وغيرها من أمصار الشمال.

أما الطريق الغربية المارة من شرقي موريتانيا صاعدة عبر آدرار في اتجاه وادي درعة فقد تدهورت لصالح الطرق الشرقية الأنفة، بعد انهيار دولة المرابطين وظهور عرب المعقل على محور تافيلالت – السوس ولذلك فقد صمتت المصادر عن القطاع الغربي من بلاد صنهاجة الصحراء الذي يشمل ما بين درعة والساقية الحمراء إلى تخوم آدرار.

ويقول محمد امبارك اللمتوني (ت. 1290هـ) أنه بعد موت أبي بكر بويع ابنه محمد ثم عزل فبويع الخظير بن يوسف لمدة أربعين سنة، وبعد موت الخظير بويع ابن ابنه عتبة فحكم الصحراء ستين سنة ثم خلفه ابنه بشار فحكم لمدة ثلاثين سنة ثم خلف هذا

ابنه الملقب أنّه وبعده بويع محمد البنبري اللمتوني فملك عشرين سنة ولكنه تنازل بعد فشله في حروب داخلية، فانقسمت الدولة بين أربعة رجال هم: بيلكه، أحمد بن محمد، أعمر بن بادي البنبري، المرابط أشفغا الهاشمي العلوي الحسني حفيد لمتونة، وهذه الأسماء الأخيرة موجودة في أسماء أسلاف قبيلة لمتونة الحالية".

لكن هذا الانقسام للدولة المرابطية في الصحراء كان في سياق تشكل الإمارات اللمتونية الأربع التي سيعصف بها بنو حسّان في القرن الثامن الهجري، في سياق يأتي ذكره.

ولعل الصلة بين محمد بن يحي بن عمر والمرادي، تفسّر خطاب التعليم للأمراء الوارد في كتاب "الإشارة إلى أدب الإمارة" الذي كان الهدف منه تعليم صغار أمراء المرابطين أصول السياسة وطرق الحكم. وفي الشمال استمرت الدولة في ظل يوسف وأبنائه، لكن الصلة مع الجناح الصحراوي سرعان ما اتصلت بقوة مع وجود ولاة على الصحراء من قبل ملوك مراكش.

ويتأكد ذلك من مراجعة فتوى لابن رشد، تشير إلى أن الأموال المختلطة المشار إليها كانت تقدم منها الهدايا "لأمير المسلمين ناصر الدين"، وهو لقب أمراء المرابطين منذ عهد يوسف ابن تاشفين (480–500هـ/1087–1106م). ناهيك عن أنها تصرح كذلك بوجود أمير مولّى على الصحراء وقبائلها من قبل أمير

المسلمين نفسه، الأمر الذي يؤكد أن الإقليم ظلت على تبعيتها القوية للسلطة المرابطية في مراكش، وجهازها الأيديولوجي المرابطي، على الأقل حتى عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500–537هـ/1102–1142م).

وتدل إشارة محمد امبارك اللمتوني على أن ذرية يوسف بن تاشفين حكمت الصحراء على النحو المشار إليه في الفتوى، أو يكون الأمر متصلا برجوع التاشفينيين، ومن معهم من لمتونة ومسوفة نحو اتوات حسب ما مر بنا في النص الآنف.

أنزل الموحدون ضربات موجعة بالمرابطين في تلمسان ووهران، مما أدى إلى شيوع جو من التشاؤم في صفوف المرابطين، جعل العديد منهم ينحاز إلى الموحدين أو يفر بجلده.

فرّ أولا عبد الله بن ونكي "الذي قصد المغرب الأقصى" وبعده بيوم واحد تبعه الشيخ "أنجمار"(أصل الاسم : أنكمار بالكاف المعقودة: الصيّاد) الذي قصد الصحراء وربما أقام بـ"تن أنجمارة" التي نُسبت إليه. والظاهر أنه هو مؤسس الفرع المعروف بـ أنجامرة" من المجموعة اللمتونية الصحراوية "تندغ" التي تشكلت بعد سقوط دولة المرابطين في الشمال.

بدأ حصار مراكش في فاتح محرم 541هـ/13 يونيو 1146م وحاول المرابطون الصمود بقوات تصل 5500 فارس، إلا أن جيش

الموحدين باغتهم ساعة الفجر وطاردهم إلى أقصى المدينة واستحرّ القتل في صفوفهم، ولم تفلح في مساعدتهم قوات لمطة التي وصلت، وأمرها القائد المرابطي بالدخول مباشرة في المعركة، إذ تكل بها الموحدون وغنموا منها عددا من الجمال[13].

وقد تمكن الجوع من المرابطين المُحاصرين في مراكش مع كل من التجأ إليها فرارا من المطاردة في الجهات الأخرى. ورغم ضحايا المجاعة الذين كانوا بالآلاف فقد استمر الحصار تسعة أشهر ونصف وانتهى بهجوم شامل على الأسوار وفتك مريع بالسكان من خاصة وعامة، أسرا وقتلا ونهبا على مدار ثلاثة أيام وبعد ذلك صدر عفو كامل وأطلق الأسرى بعد تسليمهم أسلحتهم لكن بيعت نساؤهم جَوارٍ[14].

لقد نُفذ حكم القتل في كل شيوخ المرابطين "يسميهم البيذق الموحدي بالسلاطين"، الذين ألقي عليهم القبض في القصر الملكي، بينما نجا البعض من الجهات الأخرى.

لقد أدى انهيار دولة المرابطين في الشمال إلى هجرة من بقي من لمتونة ومسوفة نحو الجنوب هربا من القتل أو لجوءا إلى الأهل.

جاء في بعض تواريخ اتوات: ".. أول من نزل بها وبنى بها القصر الأول، يقال إنهم اللمتون أولاد الملك يوسف بن تجفنت ايعرب:

تاشفين) حين انكسرت دولتهم بالمغرب والأندلس... فجاؤوها هاربين وفارين إلى أن بلغوا أرض اتوات، ووجدوا بها الجدب، فعرفوا أنها أرض أمان، لأن الجند لايطيق المقام بها ولا مطمع له فيها، فبنوا للسماء وحفروا للماء واستوطنوا وكان أول قصر بنوه بها "تيلوت" قصر قديم.."[15].

وبعد انهيار دولة المرابطين خرج تجكانت نحو اتوات وسكنوا في أخصاص(مما يزكي الرواية لأنهم جاؤوا في ظروف حرب وخوف) مدة 70 سنة قبل أن ينزاحوا نحو نواحي آدرار "موريتانيا" ليستقروا في مدينتهم الشهيرة تينيكي[16].

ويذكر الضابط المترجم مارتان في كتابه "الواحات الصحراوية" أن تجكانت كانوا يغيرون على اتوات في القرن السابع.

كان تجكانت ربع جيش المرابطين حسب ابن حامد، واسمهم حرفته المصادر إلى تيلكانت ومنهم القائد المرابطي مدرك التلكاني الذي كان يقود ربع جيش المرابطين من قبيلته![17]. وذكر ابن خلدون النسبة نفسها قائلا: "أغزى يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين "وأربعمائة" قائده مزدلي بن تيلكان بن محمد بن وركوت "تركوت" من عشيرة في عساكر لمتونة"[18]. ولعل الاسمين هما لشخص واحد، فتأمل.

كانت أولى مظاهر الثورة المنظمة ضد الموحدين هي ثورة الصحراوي (سيعرف بابن الصحراوية) الذي حمل لواء المرابطين وقام باسمهم، فلمّ شمل العناصر المعادية للموحدين. وكان هذا المرابطي الشجاع والمزعج حفيدا ليوسف بن تاشفين وابنا لأبي بكر بن يوسف إبن تاشفين من إمرأة صحراوية، وقد حمل لقب أمه وليس أبيه جريا على عادة المرابطين، وبعد مقتل ابراهيم بن تاشفين أثناء حصار مراكش، اعتبر نفسه أحق من غيره بإمارة المسلمين وبتولي العرش، لكونه الوريث الشرعي لبني تاشفين، ومن أجل ذلك ضرب أثناء وجوده في بستة السكة باسمه[19].

كان ابن الصحراوية ممتنعا في دكالة، في موضع يسمى أيصزول، ولما دهمت جيوش الموحدين الإقليم فرّ شيوخ الدكاليين مع الصحراوي في اتجاه السوس كما فر فرسانهم وتمكن الصحراوي من الإفلات والفرار إلى الصحراء. وبعد هزمه لدكالة قام عبد المومن الموحدي بأسر نسائهم وبيعهن[20].

وتوالى خروج الثوار المرابطين على الموحدين حتى بلغوا -حسب البيذق- أزيد من ثلاثين كلهم في الجنوب وتخوم الصحراء[21].

ومن أهم هذه الثورات بالنسبة لنا ثورة جزولة بقيادة ثائر يسمى أبا بكر بن عمر، خرج عام 548هـ لكنه سرعان ما قتل على يدي واليين موحديين هناك.

ثم حدثت ثورة قوية في آسرير من بلاد نول لمطة "من قبائل تكنه" الحالية بقيادة أك أنكي اللمطي، لكنها أُخمدت بسرعة.

واستطاع الموحدون أن يكسروا ثورة محمد أهوكار الذي سماه البيذق: "سلطان لمتونة" والذي كان خرج بلمطة "بلاد تكنة الحالية" لكنه قُتل على يدي قائدين موحديين ورجعا بغنائمه.

ولعل هذه الثورة الأخيرة كانت وثيقة الصلة بصنهاجة الصحراء لأن اسم الثائر يدل على أنه من الهوكار حيث توجد قبائل إيولمدن "إلمتن" التي ظلت وفيّة للتقاليد المرابطية. كما أن هناك فئة من أعيان هؤلاء تسمى "إلمطن" أو "لوميت" وهما نفس اللفظ: اللمطيون، وهو ما ينسجم مع الرواية التي ساقها البيذق. واستمرت المقاومة المرابطية أزيد من نصف قرن على يدي ثوار عديدين أشهرهم ابن غانية وأسرته وأبناؤه.

ثورة بني غانية: 581-619هـ

وعن أوّليّة بني غانية يقول ابن خلدون: "كان يحي المسّوفي من رجالاتهم وشجعانهم وكان مقدما عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه، واتفق أنه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهما فتثاور الحيّان وفرّ هو إلى الصحراء، ففدى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه، واسترجع علياً من مفرّه لسنين من مغيبه وأنكحه امرأة من

أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك فولدت له منه محمدا ويحي تحت ابن تاشفين وحجر كفالته.."[22]. ويمكن تلخيص ثورة بني غانية في الأحداث التالية[23].

– بدأت ثورة بني غانية بانتفاض بني إسحاق بن محمد بن غانية في جزر الباليار التي ظلت مستقلة بعد انهيار المرابطين.

– ثم تطورت الثورة مع علي بن إسحاق بن محمد بن غانية الذي وصلته من بجاية رسالة من أنصاره يدعونه للقدوم إليهم، وقد قصد بجاية على رأس أسطول قوامه 30 سفينة على ظهرها 200 فارس و4000 من المشاة.

– وتم احتلال المدينة في تاريخ تقريبي 581هـ/1185م واحتل أيضا الجزائر ولى عليها ابن أخيه طلحة، كما احتل مليانة وعين عليها يدر بن عائشة، ولقيت قلعة بني حماد نفس المصير.

– كان جيش علي بن غانية مكونا من العرب والمرابطين "لاحظ هذه المودة بين الفريقين" وقارن كلام الغلاوية عن دولة المرابطين من لمتونة وبني حسّان.

– وبعد معارك طاحنة استرجع الموحدون بجاية في 5 رجب 581هـ/ 6 يوليو 1185م.

– وفي ربيع أو صيف 582هـ/1186م قام علي ابن غانية بنهب الواحات الواقعة جنوب الأوراس، كما نجح في استمالة عرب

جشم ورياح وخرب نخل توزر واستسلمت له قفصة ومنها توجه إلى طرابلس حيث وجد في الأرميني قراقش[24] حليفا جديدا ضد سلطة الموحدين.

– كما انضم إليهما عرب تلك البلاد كلهم ومن تخلف هناك من قبيلتي لمتونة ومسوفة المرابطيتين، وهو ما جعل كل بلاد الجريد تخضع لسلطتهما.

– واستطاع ابن غانية السيطرة على كل إفريقية، باستثناء تونس والمهدية، وقام بأعمال السلب والنهب والقتل بالجملة.

– قُتل علي بن غانية سنة 584هـ وبعد ذلك اختار إخوته وشيوخ المرابطين أخاه يحي لخلافته، وقد تمكن هذا الأخير، على امتداد نصف قرن تقريبا، وبشجاعة وفعالية ناذرتين، من مواصلة الكفاح ضد الموحدين الذين ألحق بهم أضرارا بليغة ومتكررة. وحول الاستمرار في محاصرة مدن الشمال، لكنه لم يستطع فآثر الانكفاء نحو الجريد للالتقاء بقراقش وإقامة تحالف معه.

استطاع عامل إفريقية الجديد عبد الواحد الحفصي 24 أكتوبر 1207م/30 ربيع الأول 604هـ أن ينزل هزيمة محكمة بيحي ابن غانية ورجاله الذين تشتتوا قرب شبروا ناحية تبسة وتعقبهم الموحدون لكن يحي رغم إصابته بجروح استطاع النجاة بنفسه والالتجاء إلى الصحراء.

وقد واصل الوالي الداهية تعقب يحي بن غانية الذي يظهر أنه توغل بعيدا في الصحراء خوف المطاردة واقتنع بعدم جدوائية المقاومة لصعوبة التموين وقلة المال للإنفاق على العرب، ولذا اقترح عليهم ترك إفريقية وواليها المخيف وشأنهما.

وفي سنة 605هـ استطاع يحي بن غانية تنظيم قواته والهجوم على تاهرت وتحويلها إلى أطلال بعد الفتك بـ 1600 من طلبة الموحدين على رأسهم والي تلمسان أبو عمران بن يوسف، وأسر أبناؤه وبقية أفراد عائلته.

نجح يحي ابن غانية في جمع قوات جديدة أثناء وجوده بالصحراء، حيث التف حوله بقايا المرابطين، وعرب الدواودة، وعرب رياح، وشريد، وعوف، ودياب، ونفطة واتفق معهم على غزو إفريقية من جديد. لكنه خسر أمام قوات الوالي الجديد الشيخ عبد الواحد معركة مهمة قرب جبل نفوسة التي دارت فيها الدائرة على ابن غانية وانكسرت شوكته وتبخرت آماله في بعث الوجود المرابطي بشمال إفريقية من جديد. وقد لقي حتفه في المعركة عدد من بني غانية ومن قادة العرب المتحالفين معهم.

لقد فضل يحي عدم المصالحة مع الموحدين رغم قيام أخيه سير بن إسحاق بن غانية باللجوء للموحدين الذين استقبلوه بحفاوة

في مراكش. أما يحي بن غانية فقد فضل أن يهيمر على وجهه في الصحراء لمدة ثلاث سنوات وفي 609هـ سنة معركة العقاب، اتجه نحو ودّان، وكانت نقطة صعبة الاختراق، واستطاع بالتواطؤ مع العرب اعتقال قراقش واغتياله فيما بعد، ثم انتظر يحي عشر سنوات حتى وفاة القائد الذي لايقهر عبد الواحد الحفصي، ليستأنف حملاته في المغربين الأوسط والأدنى.

مباشرة بعد وفاة الوالي ظهر ابن غانية من جديد في تخوم افريقية سنة 619هـ وبعد خروج الجيوش ضد توغل ابن غانية بعيدا في الصحراء. والراجح أن بني غانية، لا سيما بعد اتصالهم ببني هلال وقراقش رئيس الغز، جلبوا معهم إلى المجال الصحراوي "الموريتاني" مجموعات بعضها شكل أصول بعض القبائل المحلية، كالتوابير، أولاد مزوك، وغيرهم من المجموعات العربية الهلالية التي ضعفت شوكتها بتقادم الزمن.

وينبع اهتمامنا بثورة بني غانية من قيمتها كعنصر مؤسس لذاكرة عشرات القبائل التي كانت تقطن مدينة "أبَّيْر". ومدينة "أبَّيْر" تقع قرب مدينة شنقيط، وقد تأسست سنة 160هـ، وقطنت بها عشرات القبائل، قبل أن تتفرق بسبب حادثة قتل "نبيلة".

يقول سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي تـ1233هـ/1818م: ".. لم يزل العلويون قبائل كثيرة، بأبَّيْر. بلغنا

أن كل من أول اسمه إدَ (بكسر الهمزة وفتح الدال المهملة) من قبائل الزوايا، خرج من أبَيْر. وكان العلويون فيه أربعين أو اثنتين وأربعين قبيلة، ما بين صميم وحليف، وكانوا يقتلون من قَتلَ، حتى قتل جدنا يحي قتيلا، فقال بعضهم: نقتله، وقال بعضهم نطرده، ثم طردوه ولم يقتلوه لشرفه فيهم وعلو منزلته. فجال في البلاد..."[25].

وبغض النظر عن تاريخية يحي الأبَيْرِي هذا وهي حقيقية، إلا أنها تشبه ما يروى عن يحي بن غانية المسوفي.

يقول إبن خلدون: "كان يحي المسوفي من رجالاتهم وشجعانهم، وكان مُقدّما عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه، واتفق أنه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهما فتثاور الحيّان وفرّ هو إلى الصحراء فندى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه واسترجع عليا من مفره، لسنين من مغيبه وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك فولدت له منه محمدا ويحي تحت ابن تاشفين وحجر كفالته.."[26].

للوهلة الأولى يتضح من النص فرار الرجل إلى الصحراء ومكثه سنين بها!

ثم إن قبائل إدواعلي كانت انتقلت من مقرّها الأصلي وهو مدينة "تبلبالّت" وهي مدينة مرابطية بامتياز، إلى واحات اتوات سنة 518هـ، في ظرفية بداية تصدّع دولة المرابطين في الشمال.

وحتى إذا كان يحي ابن غانية "الجد" ليس هو المقصود، فمن الوارد أن يكون الأمر متعلقا بحفيده علي ابن غانية المقتول 584هـ، أو بأخيه يحي ابن غانية الذي استمرت مقاومته الضارية للموحدين إلى 619هـ، وهو تاريخ قريب من عهد قريب من تأسيس شنجيط، ومنسجم مع فترة انحطاط آبَّيْر.

ومع ذلك ينبغي عدم الخلط بين نواة العلويين (إدواعلي) القادمين من تابلبالت، والجموعات التي تحالفت معهم من مختلف القبائل وتسمّت باسم القبيلة الأصلية.

ويذكر أن إدواعلي أنهم ينحدرون من علي البلبالي، وكان من شرفاء تلمسان من ذرية سليمان بن عبد الله الكامل، وانتقل أولاد علي البلبالي سنة 518هـ إلى اتوات ومنها للبلاد الموريتانية كغيرهم من المجموعات التوانية كالأغلال (البكريون)، إنداغمشة، قبيلة انتقلت إلى الساحل الأطلسي مع تدغة (تندغة) المعروفة.

ومهما يكن من أمر، فمن الجلي أن "أسطورة بني غانية" كانت أساس بناء حاضرة آبَّيْر، أو لبعض أشخاصها حضور تاريخي في حادثة انهيار المدينة.

وتبقى الفائدة التاريخية نابعة من صدى المقاومة المرابطية ضد الموحدين في الصحراء الموريتانية الحالية.

ولم يبق من ذكر بني غانية في الذاكرة الموريتانية، إلا وجود نفس التسمية في أسرة من قبيلة إديشلي: أسرة أهل كانيأهل غانية! وهو تطابق غريب، لا سيما وأن إديشلي يحتفظون بتراكم مهم من تاريخ وأنساب دولة المرابطين والقبائل اللمتونية التي جاءت بعدهم.

ينضاف إلى ذلك دور الهجرات القادمة من الشمال في رفد الذاكرة المحلية بالحدث المرابطي وتفاعلاته المغربية، إذ أدت سياسية التمييز الشهيرة التي قام بها الموحدون تجاه قبائل المغرب إلى فرار الكثير من السكان نحو الصحراء.

وقد اتجه إلى الصحراء أفراد وجماعات من عرب الأمصار كان لها ولاء للمرابطين أو هربت خوف الحروب والفتن.

وتحتفظ الرواية المحلية بتواريخ وصول بعض الأعيان مثل عبد المومن بن صالح مؤسس مدينة تيشيت سنة 536هـ وزميله الحاج عثمان الأنصاري (جدّ فرع من إدو الحاج) مؤسس مدينة وادان سنة 536هـ وكانا درسا على القاضي عياض السبتي تـ 544هـ. كما أسست قبيلة تجكانت حاضرتها الشهيرة تينيكي في حدود النصف الأول من القرن الهجري السادس. والملاحظ أن جلّ المدن الصحراوية "العتيقة"[27] أُسِّست في فترة انهيار الدولة المرابطية وأثناء الهجرة الواسعة من المغرب نحو الصحراء التي صاحبت ذلك الانهيار.

ويرى المؤرخ الثقة محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت1271هـ) أنّ جلّ تلك المدن "إنما أسسها زوايا مسوفة لا غيرهم".

لكن ذلك لايمنع من أن يكون تأسيس تلك الحواضر تم على مراحل، وكانت نواتها من المجموعة المسوفية، وهو أمر تصرح به روايات القبائل التي أسست تلك الحواضر، مثل رواية إدوالحاج التي تميّز بين ذرية الحُجّاج وذراري المجموعات القديمة كـ: تفرل، تامكونة.. وغيرهم.

تدل الروايات المحلية[28] والأجنبية[29] والمقارنات المعاصرة[30] على أن الوضع في الصحراء بعد القرن الخامس الهجري صار غامضا. ولم يبق في ذاكرة أهل الصحراء الموريتانية الحالية من تاريخ المرابطين سوى رجوع أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، سنة 465هـ تاركا المغرب تحت سلطان ابن عمه يوسف بن تاشفين (ت500هـ).

وقد اعتبرت تلك الذاكرة رجوع اللمتوني فتحا للبلاد بجيش سمّته "المحلة"، كانت أصل الكيانات الأميرية الصنهاجية التي قامت قبل دخول القبائل الحسانية، والسبب في انقسام المجتمع إلى فئات.

تدل التواريخ الموثوقة على أن تلك الأهمية المعطاة للرجوع مقبولة من الوجهة التاريخية، لأنها كانت بداية الاستقرار الدائم لأبي بكر بن عمر في الصحراء وقيامه بفتوحات عميقة في بلاد السودان أدت إحدى معاركها إلى استشهاده.

أما "المحلة" فهي تعريب للفظ الصنهاجي "تاكُررَتْ" ومعناه "المعسكر" أو "المحلة" وكلها مترادفات.

وقد تكرر استخدام هذا اللفظ في التاريخ السياسي والحربي المرابطي حيث وجد في تلمسان التي أسسوا فيها مدينة أسموها: تاكُرارَتْ، وفي مواطن متفرقة من بلاد المغرب ذكرها المؤرخون حتى من الموحدين.

ووجد اللفظ نفسه في المجال الصحراوي قرب مدينة ولاتة الحالية، كما تردد في تواريخ حروب بني حسّان إشارة إلى محلة القائد أو مركز قيادته.

وأصل المحلة "تاكُرارَتْ" الصحراوية هو الجزء الذي رجع به إلى الصحراء مع أبي بكر بن عمر من الجيش الذي ظل مع يوسف.

لقد انقسم الجيش المرابطي إلى جيشين: صحراوي ـ سوداني رجع به أبوبكر، ومغربي بقي مع يوسف. وقد رجع أبوبكر بجيش أغلبه من لمتونة وحلفائهم من السودانيين والصنهاجيين وسلك طريق سجلماسة التي بقي فيها مدة يتجهز للرحيل نحو الصحراء. ومنذ وفاة أبي بكر سنة 468هـ لم تشر المصادر العربية إلى أهل الصحراء إلا نادرا وبغموض شديد.

صارت دولة المرابطين في الصحراء كيانا خاصا تحت سلطة أبناء أبي بكر وأبناء أخيه يحيى بن عمر، واستمر ذلك إلى نهاية القرن الخامس.

قام ابراهيم بن أبي بكر بمواصلة فتوحات أبيه ففتح غانة سنة 1076م ودوخ البلاد السودانية وساعده في المشورة والرأي قاضي المرابطين الشهير محمد بن الحسن المرادي الحضرمي (تـ489هـ).

ثم رجعت تبعية الصحراء لسلطة مراكش المباشرة بعد وفاة هذا الأمير حسبما مر بنا من إشارات.

الدولة المرابطية "الثانية" في الصحراء 541-630هـ

لكن سقوط دولة المرابطين في الشمال منذ 541هـ، أدى إلى رجوع السلطة إلى ذرية التاشفينيين من أمراء المرابطين الذي رجعوا إلى الصحراء عبر اتوات وغيرها من المنافذ.

قامت ذرية يوسف بن تاشفين بالانتقال عن المغرب خشية القتل من قبل الموحدين، وكانت نتيجة الهجرة قيام ملك مرابطي لمتوني جديد الهجرة التي نفذها عبد الرحمن الملقب بالداخل من الجزيرة إلى الأندلس حيث شاد ملكا جديدا لبني أمية.

تقول بعض الروايات إن من أمراء التاشفينيين الذين توالوا على الدولة المرابطية في الصحراء، إلى النصف الأول من القرن السابع الهجري13م، أولهم: الخضير بن عمربن يوسف بن تاشفين ومدة حكمه 40 سنة، ثم العتبة بن ابن الخضير بن عمر بن تاشفين، وحكم الصحراء 60 سنة، ثم بشار بن عتبه فحكم لمدة ثلاثين سنة، ثم أنه بن بشار ولا تعرف مدة حكمه، وبعده بويع محمد

البنبري اللمتوني، فملك عشرين سنة ولكنه تنازل بعد فشله في تدبير الحكم بعد توالي الحروب والقلاقل الداخلية. وهذا الأمير مازالت ذريته في بطن "إدَكْ بَمْبَرَهْ" من قبيلة لمتونة التي احتفظت بالاسم الجامع للقبائل اللمتونية، ومن ذريته أو أهل بيته "أهل أَبَمْبَرْ" في قبيلة إدَيْشلّي في آدرار الحالي، ولفظ "أَبَمْبَرْ" له صلة بحياة أهل الواحات، مما يدل على أن اسم "البمبري" لا علاقة له بشعب البمبارة السوداني. وجلّ أسماء أولئك الأمراء عربية بفعل التّعَرُّبْ الذي فشى في نخبة أمراء لمتونة ومسوفة في المغرب، وإن كان بعضها تم تعريبه عن أصله الصنهاجي.

قيام الإمارات اللمتونية 630-840هـ

أدت الحروب والقلاقل داخل دولة "المحلة" إلى استبداد كل "محلة" فرعية بشأنها، وتحولها إلى إمارة مستقلة، وقد استمر هذا الوضع قريبا من 100سنة.

قبل وصول الهجرة الحسانية كانت الصحراء مسرحا لتوازنات بشرية بين كتل صنهاجية مختلفة. ويرى المؤرخ الراحل ابن حامد أن الوضع السياسي في الصحراء لم يكن واضحا منذ أفول نجم المرابطين في القرن الهجري السادس. ولكنه يفترض أنه كان هناك نوع من التنظيم السياسي، ولو في صورة بسيطة. ويمكن القول بأنه كان هنالك

(وخاصة منذ أواخر القرن الهجري السابع) نوع من توزيع السلطات، بين قبائل صنهاجة، في النواحي المختلفة من الصحراء.

ففي إقليم القبلة (جنوب غرب موريتانيا) كانت السيطرة بيد قبيلة إنيَرْزِيكْ (كاف معقودة)، وسيأتي الكلام عنها.

وفي بلاد تكانت وبلاد الرقيبة (شرقي البلاد) كانت السيطرة لقبيلة الأنباط ومعها أسلاف إدوعيش (قبيلة بخواكة) التي سيسطع نجمها مع قيادة أهل امحمد بن خونه (بيت أمراء إدوعيش) لسلطة تلك القبائل منذ القرن 17م.

أما في بلاد آدرار (الشمال الغربي)، فكانت السلطة بيد قبيلة إدَيْشلّي؛ واسمها هو النطق الحسّاني للكلمة "إدَغْشاشيتْجي؛ ذوو نحلة العيش الواحدة، لأن قبائل إدَيْشلّي بعضها من أصول لمتونية؛ ذرية محمر بن تاميت والبعض الآخر من قبائل عربية حسانية؛ كأولاد الناصر والبرابيش، وتبلغ عشائر إدَيْشلّي العشرات، انقرض الكثير منها في الحروب كالزريّفات وغيرهم، وبقي اليوم تسع بطون. وقد أسست إمارة مهمة في آدرار استمرت إلى 1145هـ، تاريخ قيام إمارة آدرار الحسّانية، بعد معارك ضارية استمرت قرنا ضد محاربي إدَيْشلّي.

وتبقى ذاكرة قبيلة إدَيْشلّي من أغنى الذاكرات المحلية بالحقبة المرابطية واللمتونية التي تلتها، حيث توجد إلى اليوم بين إدَيْشلّي

أسر تنحدر من قادة مرابطين شهيرين: أهل يانّوايانّو الحاج بن عمر اللمتوني)، أهل كنتة: أسرة الملك في إمارة ابْدوكل!

بينما كان الحكم عند قبائل "ابْدُوكَل" في بلاد الزمور (الشمال) إلى الساقية الحمراء. وسيتطاول أمد الصراع بين هذه الدويلات والقبائل العربية الزاحفة من الشمال،

ولكن هذا التقسيم جاء بعضة نتاجا لانهيار بعض تلك الإمارات، كما أنه لم يرد فيه ذكر لإمارة بيلكة "بيلكات" اللمتونية في بلاد البراكنة وما حولها من الجنوب الموريتاني.

وابتداء من أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجرى نشأت إمارات صنهاجية أهمها: إمارة ابْدُوكَل في الشمال، وانيرزيك في الغرب، أما المجال الترابي الذي يشمل ما بين محيط ولاتة شرقا إلى ساحل الأطلسي غربا، فكان عمليا تحت رقابة حاميات مملكة مالي القوية.

وكانت هاتان الإمارتان تشتملان على كيانات أخرى كل منها تابع لابْدُوكَل أو لانيرزيك.

إمارة ابدوكل "لمتونة"

(دولة المرابطين الصغرى: 630-840هـ

هذه الإمارة من أهم الكيانات السياسية التي بقيت بعد دولة "المحلة" المرابطية، وقد قامت في تاريخ تقريبي هو أواخر النصف

الأول من القرن السابع الهجري، على يدي أسرة لمتونية لانعرف عنها الكثير، لكن نواة ابْدُوكَلْ كانت لمتونية قطعا بدليل أن بعض فروعهم المتبقية مثل ايدكوجي يوصفون بأنهم من المرابطين[31]، مما يسمح، من مستوى آخر، باعتبار ابْدُوكَلْ هي وريثة مرابطي الصحراء الأكثر كمالا، رغم وجود رئاسات لمتونية مرابطية متفرقة في الأنباط وإدوعيش وإدَيْشلّي...

ونتجاسر على القول إن الدولة المرابطية قد استمرت في الصحراء بعد سقوطها في الشمال إلى حدود أوائل القرن السابع، واستمرت نواتها القيادية، رغم انقسام الدولة، في إمارة ابْدُوكَلْ ولذلك وصفهم مؤلف الغلاوية بدولة المرابطين.

اسم "ابْدُوكَلْ" وينطق أحيانا "ابْدُوكَّلْ" بتشديد الدال: لفظة صنهاجية تعني: التجمع، التداخل، التحالف... أو هذا بأجمعه. وأصل لفظ معروف في لغات البربر: تيدّوكّلا: الصحبة، وابْدُوكَلْ مشتقة من الفعل: د ـ ك ـ ل: جمع، انضم..

ويدل ذلك على أن ابْدُوكَلْ كانت تجمعا لعدة قبائل ليست بالضرورة منحدرة من أرومة واحدة، رغم وجود نواة لمتونية قوية نشأت حولها الإمارة أو التجمع.

كانت قيادة ابْدُوكَلْ في أسرة لانعرف عنها الشيئ الكثير، واسمها أو اسم كبيرها "أشنت لدن" ومنه ينحدر أخوال سيد

محمد الكنتي الكبير، حيث جاء نسب أمه كالآتي: **أهَوَ** (حوّاء؟) بنت محمد ءالمر بن كنت (منه أخذ سيد امحمد لقبه: الكنتي) بن زمر إبن تملك بن تنفئت ان بب بن أشننت لدن (رأس ابْدُوكَلْ).

ولا نعرف الشيء الكثير عن القبائل المحاربة من ابْدُوكَلْ، لكن والد بنخالنا التاكاطي ذكر من القبائل الزاوية في إمارة ابدوكل: تاكاط، إدكجمل، تاشدبيذ، إدكوجي، ونبّه على أن (إجكوجي) هم من إيدنان!

وجاء في الغلاوية أن إدوالحاج واداان كانوا من المرجع الروحي لمحاربي ابْدُوكَلْ ويلجأ إليهم من يريد منهم التوبة والتخلي عن حياة الحرب والغارات.

وكان مجال إمارة ابْدُوكَلْ يشمال ما بين الساقية الحمراء شمالا إلى تخوم آدرار الحالي المتاخم للمجال الخاضع للممالك السودانية، أي مملكة مالي فالسونغاي.

وكانت موارد ابْدُوكَلْ تعتمد على الضرائب على القوافل، وعلى المالح كمملحة الجل، والمغارم المفروضة على سكان المدن.

ظل ابْدُوكَلْ يراقبون الطريق التجاري الرابط بين وادي درعة وبلاد السودان، حتى أواخر القرن الثامن الهجري حين بدأ يتدهور لصالح طريق اتواتْ ـ تنبكتو، بفعل ظهور قبائل المعقل على أطراف

البلاد، وسيطرتهم على طريق تافيلالت ـ سوس مما أدى إلى تحول التجار شيئا فشيئا من طريق سوس ـ ولاتة إلى طريق أتوات ـ تنبكتو.

وكان تحول مسالك التجارة نحو الشرق والضغط الحساني، بداية انهيار إمارة أبْدُوكَلْ بفعل شيوع الصراع فيما بينها، ورجوعها إلى نهب قوافل سكان المدن بعد أن كانت تحميها، وكان ذلك عهد تمرد الشيخ الكنتي على سلطة أخواله الذين قاموا بنهب قوافل تينيكي ثم بنهب شوله هو فرمى رحله وطرده.

في نهاية القرن الثامن الهجري /14م بدأت الحركة التجارية تنتقل عن طريق الغرب نحو طرق الشرق. ينضاف إلى ذلك عامل أشد حسما، هو تزايد "فُرص الإخلال بأمن القوافل" بفعل سيطرة طلائع الهلاليين على تخوم البلاد حيث "أن تقدم البدو البطيء نحو الغرب كان بلغ منتهاه مع بداية القرن الثالث عشر، والحزام الصحراوي أصبح كله عمليا في قبضة القبائل العربية المتنافسة في منتصف القرن"[32].

1– دخول بني حسان: بنو حسان بطن من عرب المَعْقِل المنحدرين من كعب بن الحارث من قبائل مذحج اليمانية، وليسو إطلاقا من المحتد القرشي، لأنه لا وجود لمعقل في أنساب قريش عموما والطالبيين خصوصا. وكان وصولهم مع الهجرة الهلالية إلى

شمال إفريقية في القرن الخامس الهجري، ثم عمروا صحاري المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه.

وخضعوا لسلطان الدولتين الموحدية فالمرينية، ثم دخل المرينيون في صراع مع علي بن يدر الزكندري الجزولي وغيره من ولاة الأطراف، فخضد المرينيون شوكتهم مرارا، لكن المعقل ظلوا متماسكين، إلى أيام ابن خلدون.

كان المعقل في عهد ابن خلدون (ت.808 هـ) في أواخر المائة الثامنة من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، (...) بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب...

واستفحل شأن المعقل في تلك القصور* (السوس، اتوات، وركلان،) وفرضوا المغارم على سكانها من زناتة، كما صار المعاقل أنفسهم يقدمون ضريبة إجبارية تسمى: "جمل الرحيل" (المغرم ؟) إلى الدولة المرينية، وذلك قبل أن يصبحوا شيئا فشيئا قيّمين للمرينيّين على جباية الضرائب، من سكان وقبائل تلك النواحي.

وطوال العهد الموحدي المريني، جزئيا، أكتفى المعاقلة بالإقطاعات الواسعة التي نالوها، عن التعرض لقوافل التجارة بين

* القصور وتكتب بالكاف المعقودة"كصور"، تسمى بالبربرية " تغرمت" واحدها "أغرم" وأصلها البناء المحصن تنشأ حوله أحياء فتنسب له. وأغلبها مدن وقرى حسب الحجم والنشاط.

سجلماسة والسودان، وكانت مواطنهم، في أيام ابن خلدون، من درعة إلى المحيط، وينتجعون من السوس إلى الرمال المتاخمة لمجالات الملثمين، لكن يبدو أن هذا التغلغل جنوبا، حتى الساقية الحمراء، كان قبل عهد ابن خلدون بكثير، فقد ذكر ابن عذاري المراكشي أنه "في سنة اثنين وخمسين وستمائة تفاقم أمر علي بن يَدَرْ (صاحب إمارة في الجنوب) بالخلاف في بلاد السوس وانقادت له بعض عرب الشبانات وبني حسان وذلك قبل أن يتصارع حلفاء الأمس سنة خمس وسبعمائة".

وفي عهد المرينيين أثخن فيهم يعقوب بن عبد الحق(656-685هـ/1258- 1286م) وحاصرهم يوسف بن يعقوب (685-701هـ/1286-1306م) وأثخن فيهم ثانية سنة 786هـ، مما اضطرهم للتقدم جنوبا. وقد كانت فروع المعقل الكبرى: ذوي منصور، ذوي عبيد الله، ذوي حسّان، وهؤلاء هم الذين توغلوا في البلاد الموريتانية، مع تسرب مجموعات من بني عمومتهم كبعض بطون ذوي عبيد الله بن معقل ومنهم قبيلة إديقب وأهل بارك الله فيه "اليعقوبيون"، وهم من ذرية عبيد الله بن معقل لا عبيد الله ابن حسان، فتأمل!

ويذكر ابن حامد أن أولى الحروب التي خاضها الحسانيون ضد صنهاجة كانت من جهة إقليم "إكيدي" الواقعة شمال آدرار وليست "إيكيدي" الواقعة في الجنوب الغربي حاليا.

وكانت تلك الحروب جزءا من الصراع الطويل والحاسم ضد قبائل ابْدُوكَلْ اللمتونية الصنهاجية التي مرّبنا تاريخ سيطرتها على تلك النواحي.

واشتداد هذه الظاهرة في أواخر القرن الثامن الهجري اقرن 14م) هو ما لفت انتباه ابن خلدون حيث لاحظ، في أُخْرِيَات أيامه، أنّ الطريق الغربي المارّ "من ناحية السوس الى ولاتن (ولاتة) قد أُهمل لما صارت الأعْراب من البادية السوسية يُغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت (إقليم اتوات)..".

هذا العامل الاقتصادي أدى، فيما يبدو، إلى تراجع مداخيل السلط الحاكمة في ابْدُوكَلْ، وفاقم من ظاهرة بدأت تتسع، وهي الإغارة على قوافل المدن التي كانت تحميها نفس الإمارة، فضلا عن الإفراط في المغارم المفروضة على الممالح سيما أن أغلبها صار تابعا للممالك السودانية الصاعدة من الجنوب والشرق. وتكررت ظاهرة نهب الأنعام حتى لمن لهم صلات وشيجة بالكيان البدوكلي. وتلك الظواهر عادية في تاريخ الكيانات السياسية في هذه البلاد إلى مجيء الاستعمار.

بدأت الصراعات تشتد بين القوى البدوكلية، وكان ذلك بداية التدخل الخارجي من قبل قبائل بني حسّان وفي طليعتها

عشائر أولاد الناصر القوية وقتها، في بداية مسلسل انهيار إمارة ابْدُوكَلْ التراجيدي.

وتعتبر رواية الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي (ت. 1242هـ/1826م) في كاتبه الشهير "الرسالة الغَلاّوِيَة" أهم رواية تاريخية وأقدمها حول حرب أولاد الناصر ضد ابْدُوكَلْ وسبب انحياز جدّه سيد امْحمد الكنتي ت.830-840هـ ضد أخواله اللمتونيين.

تتحدث الرسالة الغلاوية عن تواريخ أجداد كنته في اتْوات تلمسان وغيرها ثم تصل إلى الجد الذي انتقل نحو الصحراء وهو ".. سيد اعلي وكان قطبا علامة مربيا قدوة، يُهْتدى بهديه ويُرجع إلى إشارته ورأيه وكان يخرج إلى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجيلُ حَسَّان يأخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد. وذلك في دولة السلطان أبي فارس، وكان مقلّدا له لايعمل إلا على وفق إشارته، فخرج إلى الصحراء، فتزوج بنت محمد ابن آلمر بن كنت بن زمر رئيس ابْدُوكَلْ، واسمها أهو، فأولدها ابنه خاتمة السلف وعين أعيان الخلف، سيد امْحَمد الكنتي فنشأ في أخواله ابْدُوكَلْ من صنهاجه، وقفل سيد اعلي إلى اتْوات. وبها توفي - رحمه الله - فدفن إلى جنب أبويه، بعزي وتخرج على يده أزيد من ألف واصل.

ثم لم يزل سيد محمد الكنتي بأخواله حتى تدرب وحفظ القرآن ومهر في سائر الفنون، وكان مجاب الدعوة، لايجاريه في مجاريه خلف، وهو أغلى وزنا وأغلى محلاً، دام يُحيي ما قد أُميت من الفضل، وينفي فقرا ويطرد محلا. ثم رجع إلى الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء.

واستوطنها بمن معه من تلامذته وجيرانه، محترما مكرما معظما عند سائر دولة المرابطين من لمتونة وبني حسان مقدما عليهم محكما فيهم. إلى أن جرى القضاء بأمر غاظه على أخواله ابْدُوكَلْ. وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء ومن فيها إلى أطراف السودان. فارتحل عنهم، مغاضبا لهم، فورد عليه غزو من أولاد الناصر وقد بلغهم مغاضبته لأخواله، فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونه فحرام عليكم الظفر بهم بعدها. فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه. وما يزيل قلنسوة الغوث عن رأسه، يزيل ملك السلطان من أسه، فاستضافوه ليلتهم وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونه، فقال: أعطيتكموها على شرط: أنكم متى بلغتم منهم الحد الذي تأمنون شوكتهم، رفعتم عنهم السيف وأبقيتم عليهم عيشة لبنيّ وبينكم، فأعطوه عهدهم وميثاقهم على ذلك وقالوا: كيف لنا بجموعهم المتكاثرة ومحالهم المتظاهرة. فقال: إنما عليكم شن الغارات والإجهاز عليهم فإني قد دعوت الله

عليهم بإذهاب الدولة وإيهان الصولة، فأجابني فيهم. فانقلبوا إلى أهاليهم، وتألب أفناء أبناء حسان بمن انضاف إليهم فصبحوا لمتونه وهم غارون، فانتدب لقتالهم من يليهم من الأحياء واشتغل من عداه بأشغالهم استهانة بشأنهم واستخفافا بصولتهم. فهزموا من يليهم لأول حملة، وركبوا ظهورهم مع من وراءهم ممن لم يستعد لحربهم فهزموهم هزمة لم تبق منهم على مجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن: باللحمة، التي ضرب بنو حسّان على رقابها المغارم، ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه.

واجتمعت الجموع على سيد امحمد الكنتي بالصحراء، وتحكانت زمننذ بتنيك، قصرهم المشيد قبل حربهم فيه وفرقتهم منه كما هو مشهور مذكور..".

هذا النص يعرض بلغة سيد محمد الخليفة الكنتي الجزلة القوية، بداية الصلة بين الأجداد الكنتيين المغاربيين والسلسلة التي ستبدأ بالإبن "نصف الصنهاجي" سيد امحمد الكنتي وحياة الإبن بين أخواله وسبب موجدته عليهم وتعبئته للقبائل الحسانية حديثة الوصول ضدا على القبائل اللمتونية في إمارة أبْدُوكَل ومسار الصراع ونهايته.

التواريخ الواردة في النص منسجمة من الوجهة التاريخية، تزامن فترة أبي فارس (796-837هـ/1393-1434م) وفترة وجود بني

حسّان في الساقية الحمراء امنذ 602هـ وأعوام 685 و652 و705هـ التي صاروا ينتجعون إلى تخومها، إلى أيام ابن خلدون (ت.808هـ)، ووجود إمارة ابْدُوكَلْ قائمة في تلك الفترة وهي التي أسماها دولة المرابطين وهي إشارة بالغة الأهمية لاستمرار التقليد المرابطي في تلك الإمارة ولكونها وريثة المرابطين.

كما تعني العبارة المذكورة أن بني حسّان قبل القرن الثامن كانوا على وفاق مع اللمتونيين أو خاضعين لهم، أو يكون المعنى في الحديث عن الدولة متصلا بلمتونة وحدهم.

الإشارة إلى ظاهرة أخذ بني حسان الأوراد عن الكنتي، جزء من ظاهرة قديمة في أوساط عرب الهجرة الهلالية، وهي نوع مبكر من التدين والتخلي عن حياة الغزو والحرب، وقد سمى ابن خلدون أصحابها بالمرابطين!

ومن المهم الاعتقاد أن التديّن والزهد، والتعلم حديثان في الأوساط الحسّانية، لأن الظاهرة أقدم من ذلك بكثير، وقبل دخولهم في المجال الموريتاني التقليدي.

والظاهر أن سيد امحمد الكنتي عاش في النص الأخير من القرن الثامن والثلث الأول من القرن التاسع الهجري، أي أنه ولد أواخر (770هـ أو 780هـ)، وتاريخ وفاته قريب من 830–840هـ،

لأنه توفي وابنه سيد احمد البكّاي في ريعان الشباب وتاريخ وفاته سنة 920هـ معمرا عن مائة سنة، فتأمل!

وبذلك تكون تواريخ الحرب بين ابْدُوكَلْ وبني حسّان في حدود 820–840هـ لأنها دامت أزيد من عشرين سنة بين كر وفر.

حسب رواية الغلاوية فإن السبب الرئيس للحرب كان "أمْرًا غاض "الكنتيَّ" من أخواله... لا تصرح الغلاوية بسبب الموجدة، ولا نعرف الأسباب التي منعت مؤلفها من ذلك الاستحضار.

تقول الروايات المنقولة شفاهيا[33] إن سبب موْجدة الكنتي على أخواله هو رفضهم شفاعته في ردّ المنهوبات التي يحصلون عليها من إغاراتهم على قوافل تلامذته أو أصهاره من تجكانت، بل بلغ الأمر ببعض البدوكليين أنهم أساؤوا معاملة الشيخ سيد امحمد الكنتي شخصيا ورموا رحله وكان من نوع "تاغشميت".

والرحْل المذكور هو الذي كان مستعملا لدى صنهاجة لأنه رحل تارقي، مما يؤكد تاريخية الرواية، فضلا عن الطابع المنطقي لسبب الخلاف بين الرجل وأخواله. تنضاف إلى ذلك درجة القوة والصولة التي بلغها محاربوا ابْدُوكَلْ حتى ضربت بهم الذاكرة المحلية المثل في التيه والشراسة والصلف فقيل: فلان امْدَوكَلْ!

وإشارة الغلاوية إلى "محَالّهم المتظاهرة" هي معطاة بالغة الدلالة لكونها تفصح عن كون ابْدُوكَلْ ظواعن محاربين في

شكل "محال" "تيكرارين" جمع "تاكرارت" المعروضة في حياة المرابطين السياسية.

والمهم أن اتساع الهوة بين الكنتي وابدوكل صادف تربص القبائل الحسانية بتلك الإمارة التي كانت سداً أمام انسياحهم جنوبا.

كانت عشائر أولاد الناصر قوية وكثيرة العدد، وكانت في طليعة الزحف الحسّاني المندفع من الشمال. وقد بقيت بعد الحرب بطون قليلة من أولاد الناصر، أما القسم الأكبر منهم فقد رجع شمالا، ومنه عدة بطون ماتزال قائمة في وادي نون مثل: أولاد أعمر، وأولاد أعلي، ولكرارمه، وأولاد مسعود، وأولاد أمحمد وهذه البطون لاتزال فروعها موجودة في شرقي موريتانيا الحالية، ثم: أولاد الشيخ، أولاد العباس، أولاد الصغير، أولاد الطالب، أولاد امرين، أولاد انوال. والغريب بقاء ترتيبهم الحالي على نحو الترتيب الذي جاء في الحسوة البيسانية لصالح بن عبد الوهاب الناصري. كما جاء في وقت تجذّر فيه الخلاف والصراع بين قبائل ابدوكل نفسها، مما جعلها فريسة سهلة للمجموعات الصنهاجية الأخرى مثل تجمع انيرزيك.

وكانت انيرزيك إمارة كبرى في غرب البلاد وجنوبها الغربي، وتذكر بعض المصادر البرتغالية قبيلة "إزارزيكي" في أحواز وادان، فلعلها كانت هناك أو أن فرعا منها وجد في نفس المكان[34]. وقد تكونت من عدة تجمعات محاربة كبرى:

انكادس: كانوا تسع قبائل محاربة لكل قبيلة رئيس وطبل: إدويدر، أهل أحمد إد انان، إدو زغار"أولاد اسحاق"، إدغ شاتجه وهم: "إدويشلي"، إديندك، إدويدّر وهم "إدوعيش"، إيديندكان، ديكرتان، ديلان، وغيرهم. وكان في انكادس زوايا مثل: أهل يوسف، أهل يفرج الله، أهل بتار، أهل المختار غالي..

تغرجنت: إيدبياي، الخبابشة، إيدغمحر، أولاد باي..

إدكباجه: أهل أكد أحمد، أيتال، إيدوبجه، إيدانبيك، إيفلان..

إدغبانو: كانوا أهل قوة وبأس، وكان من أتباعه: قبائل الغيوات، باران، جاران..

كانت إمارة انيرزيك تحوي عدة كيانات محاربة استقلت بنفسها بعد تفكك الكيان الجامع، تحت ضربات عشائر أولاد رزك الحسّانية في القرن التاسع الهجري. وكان الخلاف بين الكنتي وابْدُوكَلْ السبب المباشر، بعبارة المؤرخين، في نشوب الحرب الصنهاجية – الحسّانية. لكن هناك أسبابا أخرى تضافرت في بناء ذاك الحدث الذي غير تاريخ الصحراء الحديث. فكان هناك عامل الانحطاط التجاري للمسالك التي يراقبها ابْدُوكَلْ، ثم عامل الخلافات الداخلية بين أطراف الإمارة نفسها، وجاء التوافق الحسّاني – الرزكاني ليجعل من الحرب خلاصا للجميع من قوة مهيمنة طال أمدها.

كان رافع راية الحرب هو سيد امحمد الكنتي وثائر ضائع الأخبار اسمه "أدد" أو "أداد"[35]. لقد حزب هذا الأخير الجموع والأحلاف من القبائل الصنهاجية: انيرزيك وغيرها التي كانت تعاني من هيمنة ابْدُوكَلْ وبطشهم، وعبأ الكنتي عشائر أولاد الناصر ومن معها من بني عمومتها من بني حسّان. وشكلت فتوى يعقوب الجكني قاضي تينيكي بشرعية قتال ابْدُوكَلْ الفتيل الذي أشعل الحرب، وقد دعم هذه الفتوى الشيخ الكنتي بوثيقة ضمنها نص الفتوى وتسليمه لها. وقد حمل الوثيقة "الصك" المتضمن لفتوى المحارب الثائر ضد لمتونة "ابْدُوكَلْ".

بدأت الحرب في تاريخ قريب من نهاية القرن الثامن وبداية تاليه أو في العقود الأولى من التاسع، واستمرت أزيد من عشرين سنة بين كر وفر دون تغلب طرف على آخر، لكنها انتهت بهزيمة ابْدُوكَلْ بعد استنجاد خصومهم بجيش من بلاد السودان غير معروف تحديدا.

وقد تم ابرام صلح مؤداه تفكيك إمارة ابْدُوكَلْ وإخضاع محاربيها للمغارم التي فرضتها القبائل المنتصرة من أولاد الناصر وانيزيك، أما المجموعات والقبائل المختصة بالشأن الديني والعلمي فقد تُركت وشأنها.

وهو ما لخصه مؤلف الغلاوية قائلا: "فهزموهم هزمة لم تُبق منهم على مُجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن: **باللحمة (الأتباع)، التي ضرب بنو حسّان على رقابها المغارم ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه..".**

وإشارة المؤلف أن ذلك نتاج شروط فرضها سيد امحمد الكنتي على محاربي أولاد الناصر، منطقي بحكم سعي الكنتي إلى إنقاذ المجموعات التي تربطه بها مصاهرات وصلات علمية، لأنه درس في عشائر من زوايا ابدوكَلْ.

تشتتت القبائل البدوكلية المحاربة ولم يبق منها من يحمل الاسم إلا: ابدُوكَلْ في مدينة ولاتة ومنها خرجوا في 1222هـ إلى النعمة ومازالت بقيتهم هناك،وايدكوجي وبطونهم: أهل اتفاغ موسى وأهل محنض وأهل ابن يدوك وفيهم أهل بوفلان من كنته. ومن ابدُوكَلْ عشائر وأسر لم تعد تحمل الاسم: أهل تيكي "جيكي: بجيم فارسية" وهم في عداد أولاد محمد في الحوض، وأهل كنته في إيديشلي وغيرهم.

لقد كانت الحرب بين ابدُوكَلْ وأولاد الناصر، أهم صدام تاريخي بين عرب المعقل وصنهاجة الصحراء، وغيّرت نتائجه تاريخ الصحراء إلى الأبد.

وكان من نتائج هزيمة ابْدُوكَل:

1. فرض المغارم على المهزومين وحظر حمل السلاح عليهم، مع ترك الوظائف الدينية للزوايا.

2. من نتائج الحرب سيطرة بني حسان على أتباع القبائل اللمتونية أي على الفئات المُنتجة منها، وفرض التخصص الفئوي على جماعات المتعلمين من الزوايا.

3. ومن نتائج الحرب كذلك التّعَرُّب اللغوي والنسبي، والظاهر أن سيد امحمد الكنتي كان يتحدث العربية مع عشائر أولاد الناصرومع غيرهم من الحسانيين رغم حذقه لغة أخواله. وبعد هزيمة ابْدُوكَل صار الطريق سالكا أمام القبائل الحسّانية نحو الشمال الشرقي والجنوب الغربي، في المسار المعروف.

ونرجح أن قبائل بني حسّان مكثت قرنين أو أكثر في النطاق الواقع شمال البلاد ولاسيما بين مثلث: الحمادة والزمور والساقية الحمراء، وبعد انتصارها على التشكيلات الصنهاجية تقدمت القبائل الحسّانية مشكلة أربع فصائل:

- قبائل الأوداية في الغرب
- البرابيش في الشمال الشرقي
- الرحامنة جنوب البرابيش
- أولاد أعْمُر (إجمّان وأولاد اشبل..) في الشرق.

وهذا التوزيع القبلي والمجالي، هو الذي وصفه الرحالون البرتغاليون بناء على أوصاف البحارة والتجار الذين جاؤوا قبلهم. وفي هذه الفترة استقر الأوروبيون على السواحل، وأسسوا عدة مراسي للتجارة مع سكان الدواخل: مرسى "آركين"، مرسى "آكادير دوم"، مرسى "بور – تانديك، ميناء تندغا، أي المنسوب لقبيلة تندغة المشهورة المنتشرة على طول الساحل منذ قرون.

وقد كان ذلك في عهد الكشوف الجغرافية التي أفضت إلى تمركز البرتغاليين على السواحل الموريتانية لاسيما في موقع "آركين" – دوم، المنسوب للملك دوم ملك قبائل انيارزيك المذكورة آنفا.

كان آركين محل صراع بين القوى الأوروبية على التوالي[36]: البرتغال 1445–1633، هولندا إلى 1678م، فرنسا 1678م حيث تم تحطيمه وتركه، الألمان والهولنديون 1095–1711م، فرنسا للمرة الثانية 1720–1728م، بعد صراع مَه الهولنديين وكالة عن الإنكليز. ثم اندلع الحرب بين فرنسا والإنكليز 1728–1740م وبعدها تم الأمر لفرنسا فنقلت التجارة إلى مراسي النهر سنة 1763 لتشجيع مبادلة العلك مع السكان المحليين.

لقد كان الحضور الأوروبي على السواحل بهدف جذب تجارة القوافل إلى المحيط، في ظل تحولات سياسية وبشرية، أهمها تقدم

البدو الحسّانيين الآنف، وتصدع دولة سنغاي، بالتساوق مع الصراع مع السعدي في المغرب.

التحولات السياسية والبشرية الإقليمية

وخلال هذه الفترة منذ القرن السابع وحتى التاسع (13–15م)، كانت البلاد متأثرة بجوارها السياسي السوداني: مملكة مالي، ثم دولة سنغاي، وكانت قبائل مسوفة أهم القبائل الصنهاجية التي اهتمت بالتجارة واتصلت بتلك الكيانات السودانية.

وقد أدّى الانحسار المبكر للحركة المرابطية في نهاية القرن الخامس الهجري (11 م)، إلى أن أصبحت البلاد ضاحية من ظل السلطان الجامع الذي كان يحكمها، ولكن التقليد الديني والثقافي المرابطي الموروث قد أبقى على عناصر مختلفة ساهمت في نشأة المجتمع الأهلي (المؤسسات الدينية والنظم الاجتماعية – الاقتصادية القائمة على العرف) بين صنهاجة الصحراء، بالتفاعل مع مجموعة من العوامل الاقتصادية والدينية والثقافية. ويمكن التأكيد على ثلاثة عوامل أساسية في هذا الشأن:

1- انتشار فقه المعاملات وازدياد دور الفقهاء في الحركة التجارية في المحطات القافلية والمدن العتيقة منذ القرن الثامن الهجري على الأقل. وقد أدى ذلك إلى "الطفرة التي نشأت عن

الانتقال من مستوى الاقتصاد الشفاهي إلى طور الاقتصاد الكتابي". فعن طريق انتشار الثقافة الكتابية أصبح بالإمكان التوسع في الصفقات التجارية، ولم تعد هذه الصفقات رهينة في استمرارها، بقوة ذاكرة الشهود، ودرجة نزاهتهم، وطول أعمارهم إلى غير ذلك من العوامل الذاتية، بل أصبحت هناك شروط موضوعية للتعامل، إطارها الوثيقة المكتوبة طبقا للشروط المأمور بها شرعا. ونظرا لأن "التعويل كان على الفقهاء في السهر على سلامة كل هذه العمليات وحل كل الإشكالات"، فقد رسخ ذلك من دور هذه الفئة وعزز من مركزها في المدن الكبرى.

2- تنامي الدور النشط لقبائل مسوفة على طرق المحور الأوسط الرابط بين النطاق السوداني - الصحراوي جنوبا، وواحات اتوات فالمتوسط شمالا، لاسيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (13-15م). فقد نشط دور هذه القبيلة في دلالة القوافل وحمايتها، كما شكل بعض تجارها بطانة أمراء مملكة مالي لا سيما في المدن الساحلية (تنبكتو، ولاتة) بل ويُعتقد أيضا أنهم مؤسسو معظم الحواضر الصحراوية، حسب ما يذكر الشيخ موسى كمرا نقلا عن المؤرخ الشهير محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي (ت-1271هـ).

وقد كان من نتائج التحولات السياسية التي أعقبت أفول نجم الدول المرابطية في صحراء صنهاجة إلى جانب التغيرات الهيكلية التي عرفتها المسالك التجارية (الشرقية، والوسطى، والغربية) لصالح الشرقية فالوسطى منها، كان لكل ذلك أثر في انتقال مراكز الثقل الاقتصادي والفكري نحو شرق البلاد الشنقيطية وتخوم منحنى النيجر. فتزحزحت قبيلة مسوفة وعناصر لمتونية في اتجاه تلك المناطق ضمن عملية بطيئة ولكنها حاسمة واشتركت في المجال الترابي مع بعض قبائل التوارق ذات الأصول الصنهاجية المختلفة. ومع أن بعض المدن مثل: تنبكتو، ولاتة، كانت تعرف سيطرة توارق "مغشرن" ذوي الأصول الصنهاجية، إلا أنه مع سيطرة مملكة مالي على هذه المدن تراجع نفوذ التوارق إلى حدود "تادمكة" شرقا وشمالا وسعت مملكة مالي لبسط نفوذها إلى تلك المدن الصنهاجية بتولية أمراء ماليين عليها يسمون (بالفوبا أو الفومانا... معناها نائب الملك) لكن الملاحظ أن ملوك مالي قد أصبحوا منذ آخر عهدهم على الأقل يولّون على السكان حكاما من بني جلدتهم مثل محمد -ن- الله الشنقيطي الذي كان حاكم تنبكتو من قبل سلطان مالي، من قبل أن يستعيد توارق مغشرن سيطرتهم عليها[37](م). وقد توافدت في هذه الفترة إلى مدينة تنبكتو مجموعات من الفقهاء الكبار ممن سيكون لهم دور حاسم في تكوين الأسر العالمة التي ستقوم بالنصيب الأوفر في ازدهار الثقافة الشنقيطية في

القرنين التاليين والتمكين للروافد الثقافية المشرقية في هذه الثقافة. ولعل أول من قدم إلى تنبكتو من الفقهاء هو عبد الرحمن التميمي وقد اصطحبه السلطان المالي منسى موسى حين رجع من الحج[38] (مر2)، ثم قدم سيدي يحي التادلسي على تنبكتو بدعوة من صديقه محمد نض الذي بنى مسجدها الكبير فتولى أمامته التادلسي إلى أن مات[39](مر3). وقدم من "ولاته" الأخوان الحاج وابراهيم فتولى الأول خطة القضاء في آخر دولة مالي[40] وفي عهد سيطرة توارق "مغشرن" على مدينة تنبكتو (في آخر عهد الماليين)، وفي أواسط القرن التاسع الهجري تولى القضاء الفقيه أبو عبد الله أندغ امحمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح وهو مؤسس أسرة العلم التي تنتمي إليه حيث كان، حسب قول أحمد بابا: "أول من خدم العلم في أجداده"[41].

وكان العنصر المسوفي الذي تنتمي إليه تلك الأسر قد انتشر في المنطقة منذ فترة. ويبدو أن المسوفيين قد انشغلوا بهموم التجارة على المحورين الأوسط والشرقي، فصاروا أدلاء للقوافل والمسيطرين على ممالح الصحراء، ضمن نقاط انتشارهم المعتاد[42]، كما شكلوا أغلبية سكان مدن الساحلين السوداني والشنقيطي، إن لم يكونوا مؤسسيها الفعليين[43]. ومع تنامي دورهم في ظل امبراطورية مالي صاروا بطانة لعمالها على بعض المدن الصحراوية[44].

بينما كان التوارق خصوما ألدّاء للإمبراطورية المالية وقد استطاعوا السيطرة على تنبكتو مرات عديدة بين القرنين 14 و16م. ومن أقدم عمليات الجيش المالي في بلاد التوارق، وبنى عمومتهم من صنهاجة "اللثام" حملات القائد المالي "ساكورة" الذي أخضع التوارق، ودعم سلطة المملكة على مجالاتها الصحراوية، لكنه أغتيل من قبل مجموعات تارقية، وهو عائد من الحج[45].

وفي عهد المانسى موسى (1307م–1322م) قام قائده "ساران ماندیان" بحملات مهدت لسفر مولاه للحج حيث أخضع خلالها "البدو الصحراويين" من التوارق وصنهاجة الذين كانوا ينزعون كثيرا إلى التمرد[46].

ولما توفي المانسى، آل العرش[47]، بعد برهة قصيرة، إلى الوريث الشرعي وهو المانسى سليمان (1336–1358) وفي عهده كانت بعض المجالات تعرف انتشارا لعناصر تارقية ومسوفية. وخلال هذه المرحلة كان سلاطين مالي يولّون على المدن الصحراوية نوابا من أصل غير صنهاجي[48]. وقال ابن بطوطة، لما وصل إلى ولاته، إنه شاهد نائب ملك مالي على ولاته يخاطب التجار "ووراءه كبراء مسوفة"[49]، ولم يذكر أنهم كانوا يتولون أية وظيفة سياسية باستثناء خطة القضاء المهمة. لكنه ذكر أن الماليين كانوا يعاملون

صنهاجة والسكان البيض عموما معاملة حسنة. ولعل ذلك هو ما شجع أرباب الأموال من أهل المغرب على مدّ نشاطهم التجاري نحو الصحراء.

وعندما أنشأ الإخوة "آل المقري" شركة للتجارة وامتد نشاطها التجاري إلى ولاته، تعرضت في ما تعرض من أملاك سكان المدينة، لنتائج زحف الجيش المالي، لكن الملك المالي أرجع للمَقَّرِيِّين أموالهم، بل وفتح لهم أبواب بلادهم للمتاجرة فيها[50]. لكن نخب العلم والتجارة الصنهاجية وتلك العربية ستضطر للهجرة عن مدن الساحل السوداني نحو النطاقات التاريخية والمسوفية بحثا عن الأمان خلال فترة استثنائية من تاريخ دولة صانغاي[51].

2- في عهد الصانغاي:

أصبحت تنبكتو، مع نهاية السيطرة المالية عليها، تعرف حضورا هاما للفقهاء الشناقطة من ذوي الأصول الصنهاجية. وقد احتكرت هذه الأسر خطط التدريس والإفتاء والقضاء والإمامة، وبرزت ثلاث أسر في هذا المضمار وهي: أسرة آل أقيت، وآل أندغ محمد، وآل الحاج. ومع صعود دولة الصانغاي، تحت حكم "سنى على"، سدّد من الملك ضربة حاسمة للتوارق، الحلفاء التقليديين لفقهاء تنبكتو، ولعل ذلك كان أحد أسباب الخلاف بينه والأرستوقراطية

التنبكتية المشكّلة من العلماء والفقهاء القادمين من معظمهم من مدينة ولاته[52].

ففي عهد سنى علي (1464م–1492م) بدأت مرحلة الصراع بين فقهاء تنبكتو وبلاط السونغاي في تلك الفترة.

لقد بدأ سنّى علي سياسة بطش وتنكيل بالفقهاء الصنهاجيين خصوصا من أسرتي آل أقيت وآل امحمد، وقد ترددت أصداء هذه السياسة في المشرق وفي مصر بالذات، حيث جاء في شرع الجامع الصغير قول مؤلفه الحافظ العلقمي (؟) عند ذكره حوادث القرن التاسع الهجري "سمعنا أن رجلا ظهر بالتكرور يقال له سُنِّى عَلِي، أهلكَ العباد والبلاد، ودخل في السلطنة سنة تسع وستين وثمانمائة..."[53].

ولم يتأثر فقهاء صنهاجة أول الأمر بسياسة الفتك التي أتبعها "سنى علي" ضد خصومه التوارق وذلك لأن "محمد نض" (تحريف اسم عربي : محمدنا لله) حاكم تنبكتو، أعلن ولاءه للسلطان الجديد، ولكن عندما جاهر ابنه وخليفته عمر بن محمد نض بعكس ذلك، اتجه سنى علي إلى تنبكتو فهاجمها (873هـ/1468م) مقتحما "فدخلها وحرق دورها وقتل فيها خلقا كثيرا"[54]، على حد تعبير مؤرخ المدينة عبد الرحمن السعدي.

ثم ذكر هذا المؤرخ أن "سنّى علي" اتجه نحو أرض صنهاجة(؟!) فهاجمها، وسرح السرايا في وجه من هرب من الفقهاء الصنهاجيين إلى أكل سلطان "التوارق" في مدينة تكدة، ظنا من سنى على أنهم ما توجهوا تلك الوجهة إلا ليستغيثوا بالتوارق عليه، فأعمل لذلك السيف فيمن بقي من الفقهاء في حواضر المملكة[55].

وتظهر العلاقة وثيقة بين التوارق وفقهاء تنبكتو في انه عندما سمع "أكل" سلطان التوارق بمهاجمة السنى للمدينة "أحضر ألف جمل ورحّل فقهاء سنكرى (المسجد الأعظم) ومشى بهم إلى بِيرُ (ولاته) فقال إن شأنهم هو الأهم عليه...[56]. وعلى هذا يرى بعض الباحثين أن دوافع سنى على كانت سياسية بالأساس. فقد أحسن إلى الفقهاء من غير الصنهاجيين، مثل أحفاد عبد الرحمن التميمي، أما علماء آل أند –غ– امحمد فقد اعتبرهم حلفاء خصمه أكل سلطان الملثمين من التوارق المغشرن[57]. بينما يرى الأستاذ محمد بن مولود بن داداه الشنافي أن الأمر يتعلق بسياسة منظمة ضد الرحل[58].

ولعل في مجمل هذين الرأيين نصيب من الصحة، لكن السبب الأقوى، في نظرنا، يظل هو العامل الاقتصادي. فقد استشعر "**سنى على**" خطر التجار "البيض" من المسوفيين والعرب على تجارة

المملكة خصوصا وأن تحالف التجار مع فقهاء تنبكتو كان قويا واضحا، مما زاد من حدة المواجهة. والنتيجة التي يستخلصها المتمعن في مجمل هذه آراء وغيرها من مثيلاتها، هي التي تعرض أعمال السنى وشخصيته لتشويه متعمد من قبل تواريخ رسمية تلتزم آراء الفقهاء إزاء ملوك السونغاي جميعا، وبهذا فهي تتحامل على "سنى على" بينما تكيل المديح لخلفائه من ملوك السلطنة الذين أكرموا الفقهاء المنكل بهم أمس.

وقد صحح المؤرخون المعاصرون ما افتري على سنى علي وشرحوا أعماله في ضوء الظروف التاريخية التي وجد فيها[59].

ويلخص تلك التصحيحات الباحث الأفريقي المتخصص في تاريخ تنبكتو، سينيكى مودى.سيسيكو، حيث يؤكد[60] على أن أسباب صراع سُنّى علي مع فقهاء تنبكتو كانت أسبابا سياسية وإيديولوجية، وبيان ذلك أن السنى علي بحكم تربيته في بلده الأم الفارو (سوكوتو) كان مسلما لم يحسن إسلامه حيث لم يهجُر يوما العبادات التقليدية للصنغى، وهو ما يضع علامة استفهام كبيرة أمام حقيقة إسلامه، وبالتالي كان سنى علي رمزا للثقافة الصنغية التقليدية أمام القوى الجديدة المتمثلة في إسلام المدن.

ولذلك فإنه، عندما توفى سنى علي (سنة 898هـ/1492م)، عاد الفقهاء من ولاتة إلى تنبكتو من جديد.

وقد تم ذلك مع وصول الاسكيا محمد إلى السلطنة (899–935هـ/1493–1530م) مدشنا عهد الأساكي (899–999هـ/1493–1591م) الذي تألقت فيه الثقافة العربية الإسلامية في المدن "الساحلية" مثل: **ولاته، نازخت، وتنبكتو**، ولاسيما الأخيرة. فنمت المدارس والمؤسسات العلمية، وشهدت هذه المرحلة تحالفا واضحا بين الفقهاء والحكام لصالح الأطراف جميعا، وهو ما أثر على مسار الثقافة وإطارها المؤسسي إيجابيا. لكن التحولات السياسية التي جاءت مع القبائل الحسّانيّة أثرت على المجتمع والثقافة معا.

ب- الغزو السعدي لدولة سنغاي (1000هـ/1591م):

اهتم ملوك المغرب من السعديين، من محمد الشيخ إلى المنصور، مبكرا، بالممالح الصحراوية، وحاولوا مرارا الحصول على جزء من موارد الضرائب المتأتية منها، ودخلوا، في سبيل ذلك، عدة مناورات سياسية وحربية مع ملوك دولة سنغاي بين سنوات (1544–1581م) دون جدوى[61].

ثم وجه المنصور السعدي (ت.1603م) وجهه نحو البلاد المحيطة بسنغاي، فجهز حملة عسكرية سنة 1584م اخترقت المجال الموريتاني الغربي الحالي، سيرا مع الساحل الأطلسي، إلى

أن وصلت ضفة نهر السنغال، ولم تواجه معارك أو تمردا، بل لقيت قبولا حسنا من أعيان الناحية، كالشريف إبراهيم بن رضوان - جدّ فالات كنّار الحاليين، ورجالات من الولوف وغيرهم[62].

وبعد أن اقتنع لمنصور السعدي بصعوبة انتزاع موارد السُّنْغَايْ بالديبلوماسية، جهز جيشا زاد تعداده على بضع وعشرين ألف مقاتل، منهم 6000 رام مسلحين بالبنادق الطويلة، ولذلك عُرفوا باسم: "الرُّمَاة" ثم أُطلقت التسمية على جيش الحملة السّعْدية بكامله، ودرج على ذلك كتاب السودان والأقاليم الصحراوية المتخمة لها[63].

كان قائد الجيش هو الباشا جودر وهو الذي قاد أهم المعارك ضد جيش السُّنْغَايْ وهي معركة "تونديبي" أبريل 999هـ/1591م ودرات فيها الدائرة على جيش السُّنْغَايْ الذي فقد آلاف القتلى بينهم ادة معروفون وفرّ الأسكيا من الميدان ناجيا بنفسه[64]. وفي 20 رجب 999هـ/ 13 مايو 1591م دخل الباشا جودر وجيشه "غاوة" عاصمة السُّنْغَايْ.ثم دخل الجيش تنبكتو في30 مايو 1591م واتفق جودر مع قاضي المدينة على رتيب مقام القادة وتأمين المؤونة والعمال لبناء مقر الحاكم الجديد[65].

وبعد مناوشات مع التوارق وبقايا الجيش السنغاوي، عاد جيش الرماة بقيادة الباشا محمود إلى تنبكتو، ونكّل بعائلة الشريف

الصقلي، ونكب العلماء قتلا وتهجيرا، ورحل أغلبهم في قوافل إلى مراكش، وكانت آخر قافلة تحمل من بقي منهم في 27 أبريل 1594م[66]. واشتهر من بين العلماء النكوبين العالم الشهير أحمد باب التنبكتي. والظاهر أن الحملة السعدية التي اخترقت غرب البلاد الموريتانية لم تؤد إلى نتائج ملموسة، بدليل أنها لم تبق في ذاكرة السكان المحليين إطلاقا.

أما الحملة الكبرى على مملكة السُّنْغَايْ فقد أدت إلى انهيار المجتمع الأهلي الذي كان قائما في المدن السودانية مثل: تنبكتو، جني،... وأنهت النهضة الفكرية في تلك الأصقاع وحملت إلى البلاد الموريتانية المتاخمة لها المزيد من الهجرات والإضطرابات البشرية والسياسية. وقد رافق الحملة السعدية نهب واسع، وتزامن معها مسلسل من الطواعن والمجاعات والوهن الاجتماعي.

وشهد المغرب السعدي بعد وفاة أحمد المنصور 1012هـ/1603م فصولا من الإضطراب السياسي والأمني ودورات من المجاعات والأوبئة وغيرها من الأدواء.

وأدى فراغ السلطة والإحساس بنقص الشرعية، إلى انثيال الناس إلى المتنبئين والمهدويين وقادة الزوايا من الصلحاء والصوفية. بدءا بحركة ابن أبي محلي 1019–1022هـ/1610–1613م،

وحركة الزاوية السملالية بقيادة أبي حسّونة علي بن محمد بن أحمد بن موسى السملالي (ت.1070هـ/1660م).

وقد اهتم السملاليون بالصحراء وربطوا صلات تجارية وسياسية وثيقة بأهلها، ولعل ذلك كان من أسباب حركة ناصر الدين التي كانت ذات نزعة مهدوية[67] باطنية. كما اتصلت بين أجداد بطون من قبيلة كنتة علاقات وطيدة مع الملوك السعديين، وكان ذلك بفعل شبكة العلاقات التجارية والبشرية بين المغرب وبلاد "الساحل" الصحراوي التي كانت خاصة للدول السودانية كالسنغاي.

أما العصر العلوي في المغرب فقد أنتج مؤثرات سياسية وفكرية ومجتمعية بالغة الأثر على تقاليد البيضان السياسية (الصلة بين الإمارات الحسّانية : أولاد امبارك، البراكنة.. مع المولى اسماعيل وخلفائه)، وهويتهم الثقافية (انتشار النزعة الشريفية في الأنساب)، وحياتهم الاقتصادية (نشاط التجارة القافلية مع الشمال).

نشأة مجتمع البيضان: 10-11هـ/16-17م

يمكن القول، بكثير من الإطمئنان، إن اللهجة الحسّانيّة أضحت مهيمنة منذ القرن الثامن الهجري (14م)، لكنها لم تقض على الازدواجية اللغوية في المدن والبوادي، والمراكز "الشرقية والشمالية" إلا في بين القرنين 10–11هـ (16–17م). لكن الغريب

حقا هو أن الحسّانيّة هي اللهجة العربية الوحيدة المنسوبة لمجموعة بعينها، بينما تُنسبُ اللهجات الأخرى إلى العربي، فيُقال: عربي للدارج!

لقد تشكل مجتمع "البيضان" من اندماج مجموعتين كبيرتين: قديمة من شعب صنهاجة الملثمين وجديدة من قبائل بني حسّان العربية "الهلالية"، مع نسب قليلة متفاوتة التأثير، بعضها من أسلاف البربر الأولين كالجرمنت "أغرمان"، وبعضها الآخر من الوندال، والبربر المتهوّدين وأيضا من الأحباش "الكوشيين" أسلاف "الحراطين"؛ وأصل تسميتهم بربري: إخراضن: الخلاسي: الهجين من أب بربري وأم حبشيّة أو العكس، وكذا من بربر الجرمنت "أغرُمان" والكثير من أسر الحراطين من أصول أغرمانية ـ لوبية امتزجت مع الأحباش في الحضارة الكوشية.

كانت اللهجة الحسّانيّة مزيجا من الفصحى واللهجة العربية المضرية المتأخرة ومن لسان البربر الصحراويين "آزناكة"، والكثير من مصطلحات الحسانية في أبواب الدين والتدريس والنبات والحيوان صنهاجي "بربري".

انحسر اللثام عن وجه الرجل الصحراوي بعد السيطرة الحسانية، واقتصر التلثم الكلي على حالات خاصة: الغبار الشديد، الخوف..

وصارت للبيضان عاداتهم وتقاليدهم الموحدة: الزي، الخيمة، الضيافة، الزواج، المأتم، التحالف، المواثيق، مع تأثير واضح للعرف الصحراوي المتكيف مع مشهور المذهب المالكي.

كان مصطلح البيضان شائعا في كتب الجغرافيين العرب منذ ق 4هـ لوصف صنهاجة الصحراء في مقابل شعب السودان الواقع جنوبا، ثم أصبح يطلق على الناطقين بالحسانية منذ القرن الحادي عشر (17م)، لكنه كان مقصورا على النبلاء: من العرب "المحاربون" والزوايا "أهل الخط الدينية"، وكان اسم "الكحلان" يطلق على الفئات الأخرى" الحدّادون" و"الزفّانون" (أرباب الموسيقى)، ثم تطور لفظ البيضان ليطلق على كل متحدث للحسانية بغض النظر عن لونه ومهنته، مع بقاء الإستخدام الأصلي في الإستعمالات الخاصة داخل نخبة المجتمع.

وكان من نتائج الصراع بين صنهاجة وبني حسان، أن عمّق بنو حَسَّان التراتبية الاجتماعية من خلال بنائهم لهرم اجتماعي، كانوا هم أنفسهم في قمته، واحتكروا اسم "العرب"، ويأتي في وسطه فئة الزوايا القيِّمة على الخطط الدينية والتجارية، ثم تأتي في أسفل السلم، القبائل التي تدفع المغارم (حق الخاوة في اصطلاح أهل الجزيرة)، أي الضرائب الإجبارية للحماية، وسَمُّوا هذه القبائل التابعة باسم آزناكة، أو "اللحمة"، هذا على الرغم من أن ضرب المغارم

قد يشمل أي حسّاني أو زاوي أنهكته الحروب أو اضطر لطلب الحماية، أو كان بصدد الانتجاع في مجال محتكر. ثم تأتي الفئات الأخرى: حدّادون، موسيقيون، حراطين "موالي"، عبيد.

واستطاع بنو حسان، بعد مسار تاريخي معقد، أن ينشروا لهجتهم العربية الملحونة الحسانية على كافة البوادي والمدن، حيث اختفت، تقريبا، اللهجات البربرية الخالصة مثل الصنهاجية، وانقرضت اللهجات البربرية السودانية المشتركة مثل اللهجة المسماة كلام أزير (الآزيرية) وهي مزيج من اللهجة الصنهاجية واللهجة السوننكية (السودانية)، ازدهر في مدن ترنّي ـ ولاتة ـ تيشيت ـ وادان ـ شنقيط على طريق الملح إبان ازدهار التجارة بين تجار الذهب السوننكيين والجمّالين المسوفيين. وقد كان هذا اللسان رائجا في مدن القوافل: ولاتة، تيشيت، وادان، شنجيط. وتراجعت كذلك لغة السونغاي التي كانت رائجة في ولاتة مع عهد الرحالة الحسن الوزان (ق 16م).

ونشر بنوا حسّان أيضا عادات تناقض موروث البربر الصحراويين: مثل إطالة شعر الرأس بدل حلقه، وحسر اللثام بدل التزامه، وكان ذلك مما ساعد على تميُّز الركاب الحجية التي بدأت تنطلق دورياً من المدن الصحراوية على نحو مستقل، بعد أن كانت تندمج في ركاب حاج بلاد السودان المسماة الركاب التكرورية.

وكانت أهم نتائج العهد الحسّاني هي العاقلة الهلالية وهي الديّة المغلظة بدل القصاص. وقد أدى انتشارها إلى تخلي صنهاجة عن عادة الثأر من القاتل ورفض الدية، الأمر الذي مايزال سائدا بين بني عمومتهم من التوارق.

واحتكر بنو حسان حمل السلاح، واقتصر استعمال الزوايا له على أوقات الحروب، على أن بعض قبائل صنهاجة مثل قبائل إيدوعيش وقبائل مشظوف ظلت تحمل السلاح، وانخرطت في التقاليد الحسّانية فصارت من فئة حسان، وكما اختار بعض صنهاجة حمل السلاح، وهو شعار بني حسان، اختار كثير من بني حسان أن يدخلوا في الزوايا ويشاركوهم في وظائفهم الدينية والثقافية، ويسمّون حينئذ التيّاب (أي التائبون) أو المهاجرون، أما الفئات التي كانت تقليديا تزاول مهنة التعليم فتسمى الطلبة، أو الزوايا، وكلها مترادفات، لكن اللفظتين الاخيرتين أكثر استعمالا.

وتدلّ أوصاف الرحالين الأجانب، والمسلمين، على أن بني حسان كانوا، قريبا من نهاية القرن 9 هـ/15م)، قد أحكموا قبضتهم على المجال الموريتاني، وصاروا يراقبون تجارة المدن ويفرضون الإتاوات على قبائل صنهاجة.

وقد عرفت الإقليم، خلال هذه الفترة، هجرات بشرية واسعة من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربي، تحت ضغط الحروب

الأهلية وتوالي القحوط والأوبئة، إلى جانب العوامل البنيوية المتمثلة في تحول المسالك التجارية من الغرب نحو الشرق، قبل أن تتراجع نحو الغرب، على مستوى الساحل الصحراوي، ثم تتحرك ببطء نحو الأطلسي.

وهكذا فقد عرفت نهاية القرن العاشر الهجري (ق16)، وبداية تاليه حروبا طاحنة داخل المدن وأحوازها، أدت إلى تَبَرْمَات بشرية من الشمال إلى جنوب مما كان له أثره البعيد المدى على الخارطة البشرية والسياسية للإقليم، وانعكس مباشرة على المجتمع الصحراوي ابتداء من ق11هـ/17م. لكن السؤال المحوري في العصر الحسّاني هو: لماذا تخلّت قبائل صنهاجة عن أنسابها وتاريخها وتنكرت لهما كلياً؟

لا نعرف بالضبط التاريخ الذي أصبحت فيه اللغة العربية الدارجة المسمّاة الحسّانية تُتَحَدَّثُ في البلاد الموريتانية، لكن الراجح أن ذلك تم بشكل تقريبي مع القرن 8هـ/14م، لكنه لم يصبح واضحا جليا إلا مع القرن 11هـ/17م، بعد أن أكملت القبائل الحسّانية سيطرتها على الإقليم وأخمدت مقاومة السكان الأصليين كلها.

وهكذا تخلى السكان القدماء عن لهجاتهم البربرية لصالح لهجة عربية مضريّة متأخرة هي "الحَسَّانِيَّة" المنسوبة إلى قبائل

بني حسّان المذكورة، من الباحثين من يرى أنها كانت حركة تَعَرُّب سريع وعميق. لكن بعضهم ارتأى أن يستعمل كلمة تَعَرُّب، لا التّعريب إشارة إلى ما تتسم به هذه الحركة من عودة الفعل على فاعله كما يقول الصرفيون، أي أن القبائل العربية المسيطرة لم تبذل جهدا منظما لتعريب سائر مواطنيها، ولم تحمل معها معارف ولا دعوة، لأنها قبائل بدوية محاربة شأنها الحرب والغزو. فقبائل الزوايا قد تعرّبت: أي عَرَّبَتْ أنفسها، متأثرة في ذلك -ولاشك- بالوضع الاجتماعي والسياسي الناجم عن سيطرة بني حسان، لكن الجانب العقائدي واللغوي من هذا التّعَرُّب لم يكن فيه أي دخل للإرادة السياسية الحاكمة. بينما يرى آخرون أن هذ التّعَرُّب كان نتيجة عاملين متداخلين، أحدهما سياسي راجع إلى أن التدين الممتاز والانتماء العربي قد أصبحا ضرورة من ضرورات الانعتاق الاجتماعي بعد السيطرة الحسّانية، فبالأول تكتسب الهيبة في قلوب الحاكمين، وبالثاني تحصل التطبيعة الكاملة مع الماضي البربري المهزوم. وثاني أسباب التّعَرُّب عند هؤلاء هو السبب الديني المتمثل في دور المعارف الاسلامية في خلق نزوع إلى تمجيد العرب، وإبراز الإنتماء إليهم وكأنه فضيلة كبرى. ثم إن هناك أسبابا هيكلية تتعلق بعلاقات القوة في حقل اللغة عموما، حيث أن "اللغة" البربرية لم تكن قادرة على الوقوف

أمام لغة الفاتحين، فقد كانت لغة شفوية أكثر منها كتابية ولم تتخط في مستوى الكتابة المراحل الأولية من نشأتها، مما يفسر قلة النصوص التي وصلت إلينا بالبربرية وانحصارها في بعض النقوش المكتوبة التي وردت أحيانا بلغتين، سواء البربرية والفينيقية أو البربرية اللاتينية. وقد عجز العلماء عن حل رموز هذه اللغة. وطبيعي أن لايحصل تكافؤ بين هذه اللغة المقسمة إلى عدة لهجات وبين اللغة العربية وهي في أوج فتوتها.

وهكذا فقد أصبحت اللغة العربية، في كثير من المناطق المغربية، مثلا لغة الثقافة والتعامل الخارجي خاصة مع غير البربر، بينما بقيت البربرية مستعملة داخل مجموعات الأمازيغن وخاصة داخل المنازل، حيث حافظت المرأة أكثر من الرجل على هذه اللغة بحكم قلة اتصالها بالعلم الخارجي، لكن هذه الحالة لم تحصل في موريتانيا بل حدث العكس تماما حيث حذق البربر رجالا ونساء العربية الدارجة الوافدة.

ويبقى السبب السياسي ممثلا في الدور الذي لعبه السلطان العربي ـ الحسّاني في فرض العربية على البربر! والسؤال الحاضر هو كيف تمت الغلبة رغم قلة العرب وكثرة البربر، فهل هو ضعف العصبية البربرية مقابل العصبية الحسانية الغازية بالتعبير الخلدوني؟ وهل ضعف العصبية البربرية دليل دخول تلك القبائل

في مرحلة أرقى من الحياة الاجتماعية والسياسية أجهضها الزحف العربي الحساني وردها نحو البداوة والعصبية البدوية فكان الأمر ارتكاسة وانتكاسا على رأي ابن خلدون أيضا: إذا عربت خربت؟

مهما يكن فللعامل السياسي مسوغاته، وله أنصاره الذين يؤكدون على أن اللغة العربية الدارجة "الحسّانية" صارت رمزا للقوة والنفوذ، فكان ذلك هو البريق الذي جذب نحوها الفئات المهزومة وفقا لمقولة ابن خلدون "المغلوب مولع بتقليد الغالب". ويدللون على ذلك بتخلي صنهاجة الصحراء عن لغتهم، وحذقهم السريع للحسانية كما تخلوا عن ظاهرة التلثم التي كانت مقدسة عندهم بينما بقيت لدى إخوانهم من التوارق "الطوارق"، لأن الهجرة العربية الحسانية لم تشمل بلادهم، وتركوا عادة حلاقة الرأس، والتزموا بدلا منها توفير شعر الرأس "اللمة" وجمعها "لمم" وهي عادة عربية بدوية.

ويرى أصحاب هذا الطرح أن شدة وطأة العرب الحسّانيين، وبطشهم بالسكان المحليين، وتنكيلهم بالمهزومين رغم المقاومة التي أبدوها مدة قرون، بث الرعب من العرب في النفسية الصنهاجية، ورسخ حالة من "التُّقيَة"، في نفس الوقت، لضرورة التعامل مع السادة الجدد.

والظاهر أن اللغة العربية "الحسَّانية" وجدت دورا توحيديا في مجتمع كان يعاني تعددية لهجية عميقة، بعضها لهجات أمازيغية قريبة من التارقية، وبعضها الآخر مختلط باللهجات الأفريقية كلهجة السوننكي، والبعض الآخر صنهاجي "خالص". ولذلك فالسلطان السياسي لا يكفي، في نظر البعض، لتفسير سرعة انتشار الحسانية وتخلي البربر عن لغاتهم، بل لابد من عامل خاص باللغة الوافدة نفسها وهو الفاعلية.

ولعل ذلك راجع إلى أن اللهجات البربرية لم تكن لغة جهاز إداري قائم، كما لم تكن قادرة على حل مشاكل الصفقات التجارية والتبادل بين طرفي الصحراء. ويبدو أن اللغة العربية قد قامت بذلك الدور منذ القديم "صفقات التجار في أوداغست" التي يذكرها ابن حوقل، لكن انتشار الحسانية ودوره في تطوير العربية أدى إلى "الانتقال من الاقتصاد الشفاهي إلى الاقتصاد الكتابي، فعن طريق انتشار الثقافة الكتابية أصبح بالإمكان التوسع في الصفقات التجارية. ولم تعد هذه الصفقات رهينة في استمرارها بقوة ذاكرة الشهود ودرجة نزاهته وطول عمره وغير ذلك من العوامل الذاتية. بل أصبحت هناك شروط موضوعية للتعامل إطارها الوثيقة المكتوبة طبقا للشروط المأمور بها شرعا. ولذلك صارت العربية لغة التجارة ولغة الفقه أي المعاملات والعبادات، ثم لم تلبث أن صارت لغة

الشارع كذلك. فانقرضت اللهجات التي كانت تسهل التبادل التجاري كلهجة "آزير" وتعربت المدن وأحوازها بالكامل ثم قلّ استعمال اللهجات الصنهاجية في البوادي حتى أضحى ضئيلا لا وزن له. وساهم في ذلك قلة المرتفعات في البلاد الموريتانية مما سهل السيطرة العربية بسرعة ربما لأن القبائل الهلالية كانت تستولي على البسائط والسهول وقلما حاولت السيطرة على الجبال والهضاب.

والحق أن هناك عوامل مختلفة متساوقة ساهمت في صياغة المجال اللغوي والحضاري للمجموعة الموريتانية القديمة صياغة جديدة أحدثت قطيعة صارمة مع العصر الصنهاجي "البربري"، ووفرت عناصر إدماج قوية ذاتية وخارجية، في العهد العربي إلى غير رجعة.

ولذلك فقد أصبحت هناك، وبشكل قوي، مظاهر تبنّي التراث العربي الذي قامت عليه الحياة الثقافية في موريتانيا، وأصبحت أنساب العرب وأيامهم وعلوم لغتهم ودواوين شعرائهم دعائم لثقافة هؤلاء البدو، تصاحب القرآن والحديث والفقه على الدوام، وذلك رغم غلبة النزعة التدوينية، بدل التجديد، على علماء البلاد، مع أن عنايتهم بالموسوعات كانت شبه منعدمة، باستثناء مدارس شرقي البلاد، كما حال علماء مدينة ولاتة (ولاتا) الذين عرفوا الظاهرة الموسوعية في قرنين اثنين (18م و19م) طبعهما التأزم السياسي بين الإمارات البيضانية وتلك القائمة في الجوار السوداني.

ونعتقد أن إحساس علماء ولاتة (ولاتا) بتلك الأزمات هو الذي دفعهم إلى تأليف مصنفات كبرى تجمع تاريخ المدينة، وتراجم علمائها، ونوازلهم وفهارس كتبهم.. ولذلك **كانت الموسوعات الولاتية دليلا على بلوغ النهضة الفكرية أوجها وتعبيرا كذلك عن التوجس من المستقبل**. وهو أمر منطقي لأن الأعمال الموسوعية تأتي في تاريخ الثقافة رصدا لحصيلة ضخمة من المعارف، وكذلك تعبيرا عن إحساس بخطر اندثار التراث الفكري والحضاري كما هو شأن موسوعة لسان العرب لابن منظور الذي خشي انقراض اللغة العربية في عهده، والموسوعة الفرنسية في عهد ديدرو التي كانت من أركان النهضة.

ومايزال اختصاص علماء مدينة ولاتا، في شرقي البلاد، بالموسوعات، ظاهرة حرية بأكثر من دراسة.

وكان وقع تلك المثاقفة قويا على شجرات الأنساب الصنهاجية التي تعرّبت بسرعة، بانتقال الصنهاجيين من تقليد النسب الأموسي "الانتساب للأم" إلى تقليد النسب الأبيسي "الانتساب للأب"!

لكن تدوين الأنساب لم يتم إلا على نحو متأخر، مع تطور النخبة المثقفة في أوساط الزوايا، إبان تطور العلاقة مع الأمصار العربية، من خلال قوافل الحج والرحلات العلمية، ولاسيما بعد أن

حرِم حجاج بلاد شنقيط من حصتهم أوقاف الحرمين، فدفعهم ذلك إلى الدفاع عن هويتهم وأنسابهم.

ومن هنا أصبحت أنساب أغلب القبائل الصنهاجية أنسابا عربية ترتفع إلى اليمانيين أو إلى المضريين وأعادت المجموعات العربية من بني حسّان والزوايا تدوين أنسابها في هذه المرحلة.. وهو ما جعل مسألة الأوقاف تلك مكْمن الصياغة الفكرية للهوية الشنقيطية. ولا أدل على ذلك من أنّ مُشكل الأوقاف الشنقيطية الذي كان البوتقةَ التي صهرت هموم القوم الثقافية والاجتماعية، والحافزَ الأول الذي دفعهم إلى تدبيج كتب الأنساب سعْيًا إلى الإندماج في نفس الأسرة الثقافية العربية، وتأكيدا لحقوقهم في أوقاف الحرمين.

وكُنّا أول من نبّهَ على تلك الحقيقة، وجزَم بأنّ الأنساب الشنقيطية أُلّفتْ ورُتّبتْ في تلك المرحلة، وبسبب منها، وليس نتيجة أوضاع اقتصادية واجتماعية كما يحلو للبعض من تلاميذ المدرسة الاستعمارية المُصابين بالحساسية أزاء العروبة والجهلة بخصائص الاجتماع في بلاد الإسلام. وذلك لأنّ الشواهد التاريخية والاستدلالات المنطقية تدحض تلك الطروحات بل تنسفها من أساسها.

فقد اتصل الشناقطة بمرتضى الزبيدي نهاية القرن الثاني عشر الهجري/ (18م)، وطلبوا تركيته لأنسابهم، في سيّاقٍ متّصلٍ

بمشكل الأوقاف ومتعلقاته. وقريبا من هذا التاريخ أُلِّفت جُلُّ المُصنَّفات، والنُّبذ، والتقاييد من قِبل الشناقطة وفي ربوعهم.

فالشيخ سيد المختار الكنتي (ت 1226هـ)، ألَّف كتابه المشهور "لبُّ الألباب في حقائق الأنساب". ومعظم مؤلفاته صنفها في اثني وعشرين سنة الأخيرة من عمره. ومرَّ بنا ذِكْرُ صلته بالزبيدي وما بينهما من مهاداة ومراسلات.

وسيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (ت. 1233هـ) كتب نبذته المعروفة صحيحة النقل في سنة 1205هـ أو 1208هـ، تعريفا بنسب أهم قبيلتين عمّرتا مدينة شنقيط، وكان استدل فيها بما سبق أن ذكره الزبيديُّ لبعض أهل مدينة شنقيط من أن أهلها بين بكري وحسني وكان استقى نفس الأخبار من حُجّاجٍ من نفس المدينة مرُّوا به سابقا.

وصنّف المؤرخ الشهير محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت. 1271هـ) معلمته الجامعة: "**الحَسْوَةُ البَيْسَانِيَّةُ في علم الأنساب الحسَّانِيَّة** مُعرِّفًا" بتواريخ، وأيام، وشجرات قبائل بني حسان العربية، لاسيما تلك المتوطنة في بلاد الحوض، وغيرها من بني عمومتها في أدرار، والساقية الحمراء، والقبلة وغيرها، بطلبٍ من محمد محمود بن عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي. ولعل محمد صالح دَفعتْه نفس

الظرفية إلى تذبيج مصنفه القيم الضائع **أنساب صنهاجة**، والذي كان بطلب من صديقه الطالب جدّو رئيس قبيلة الأقلال في بلاد الحوض. وفي نفس العهد صنّف المؤرخون البارزون في مدينة تيشيت من المَسْلَمِيِّينَ والشرفاء جُلَّ كتبهم الشهيرة في التواريخ والأنساب مثل: "إنارة المُبْهَمِ في أنساب شرفاء تيشيت وطلبتها بني محمد مسلم"، و"ساطع الإنارة في أنساب شرفاء تيشيت وطلبتها بأوضح عبارة". وغيرهما من المصنفات.

وقريبا من ذلك صنّف عالم ولاته محمد بن أبي بكر الصديق البُرُتُلِي الولاتي تـ.1219هـ موسوعة التراجم الشنقيطية البديعة: "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور".

ويمكن أن نُدْرِج في نفس السياق حُمَّى التصنيف في أيام العرب والسيرة النبوية الشريفة، حيث عرف التأليف في تلك الأغراض طفرة عجيبة فبرز مُصَنِّفون متمكّنون من أمثال: غالي ابن المختار فال البُصَادِي (تـ.1241هـ) وحمّاد المجْلسي وغيرهما.

ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ التدرج الأنسابي من الأنصارية إلى القرشية العامة إلى الشريفية في تقاليد البيضان المروية والمكتوبة، كان بالتساوق مع تطور العصبيات السياسية في المغرب الإسلامي، وتردد أصداء ذلك الصراع في الصحراء. إذ هناك قبائل

تصرح بأصلها المرابطي "اللمتوني"، لكنها تأنف بل ترفض نسبتها للبربر، ربما لاعتقادها الأصل اللمتوني مُحيلا على الأصل الحميري، حيث كان قادة الدولة المرابطية من لمتونة يفتخرون بأصلهم اللمتوني الحميري!

ظلت القبائل الصنهاجية تتشبث بالنسب الحميري وتفتخر به في عهد الدولة المرابطيةعلى النحو المشهور في أيام يوسف بن تاشفين. وقد مُدحوا بذلك مثل ما أنشده أبو محمد بن حامد الكاتب:

قومٌ لهمْ شرَفُ العُلَى من حِميَرٍ ... وإذا انتَمَوْا لَمتُونَةً فَهُمُو هُمُو

لمَّا حَوَوْا عَلْيَاءَ كُلِّ فَضِيلَةٍ ... غلَب الحياءُ عَلَيْهُمُوا فَتَلَثَّمُوا

ويقول ابن الخطيب:

وَطَلَعتْ بِمغربٍ لمتُونَهْ ... دولتُهمْ ميمونة مصونةْ

تضُمُّ ديناً لعفَافٍ لِكَرَمْ ... لمْ يُدْرَ قَدْرُ فَضلِهَا حَتَّى انصَرَمْ

منها، أبو بكرٍ حليفُ الدينِ ... ويوسُفُ، وهوَ ابن تاشفِّينِي

ويؤكد النسابة عروبة صنهاجة وكتامة وأنهما دخلتا بلاد المغرب قبل الإسلام في عهود قديمة بعد انفجار سد مأرب، ويلحّون على حميرية القبيلتين.

ومن النسابة الذين قالوا بذلك : ابن الكلبي (تـ147هـ/763م)، محمد بن سلام الجمحي (تـ232هـ/846م)، الزبير بن بكار

(ت.256هـ/869م)، اليعقوبي (ت.897/285م)، الطبري (ت.310هـ/923م)، الهمداني (ت.334هـ/945م)، الجرجاني (ت.523هـ/1128م)، ابن الأثير (ت.648هـ/1249م)، وغيرهم كثير زاد على العشرين. ولعل ذلك هو ماقصده المؤرخ الموريتاني الراحل إبن حامد بقوله:

وَالحِمْيَرِيَّةُ فِي لمتُونَ حرّرَهَا عشرونَ عدلًا آمَا تكْفِيكَ عشْرُونَهْ

أما القبائل الموريتانية "الزاوية" الكثيرة فترغب عن النسب اللمتوني ذاته وتربط أجدادها برجال من العرب الخلّص: قرشيون أو يمانيون.. ويمكن، بشيء من الاختصار المخل، حوصلة الأنساب الصحراوية في الطبقات التالية:

- **الأنساب المرابطية**: وتشمل الشجرات التي ترتفع إلى الأصل اللمتوني أو غيره من شجرة قبائل صنهاجة.

- **الأنساب المعقلية**: وتشمل الشجرات الحسّانية.

- **الأنساب الشريفية**: وهي المنحدرة من النسب الحسني في الأغلب والحسيني في الأقل.

- **عرب الأمصار**: وهي المجموعات ذات الأصل العربي التي جاءت في شكل أسر أو أفراد من اتوات أو جنوب المغرب منذ القرن السادس على الأقل.

وقد كانت واحات "انْوات" منبع الكثير من الهجرات البشرية إلى المجال الموريتاني، حتى أن الكثير من القبائل الموريتانية مازالت فروعه منتشرة هناك أو لا زال لها ذكر في تلك الربوع، ويبقى "النموذج التواتي" أعظم أثرا من كل ذلك في حياة أهل هذه البلاد.

فقد عرفت البنية القبلية التواتية انتشار العناصر الزناتية واليهودية منذ القديم، وأدى تشابه نمط العيش إلى ذوبان الفوارق بين مكونات المجموعتين، إلى درجة أنه جاء الوقت الذي لم يعد فيه التمييز بديهيا بين الفريقين!

ثم قدمت مجموعات عربية و"بربرية" مختلفة المشارب والميول، وأعادت ترتيب نمط العيش والتحالفات القبلية، بحيث انقسم المجتمع التواتي إلى: ملّول ومحبوب، أي إلى فريقين يمتاز كل منهما بنمط عيشه الخاص، بغض النظر عن أصله "العرقي"، ثم انقسموا إلى: إيحامد وسفيان، أي إلى تحالفين سياسيين. وهي ديناميكية اقتصادية وسياسية طبعت تكوين الكثير من قبائل مجتمع البيضان: بيض/كحل، أهل بقر/أهل إبل...

ويمكن القول بكثير من الاطمئنان، أن الحضور العربي في المجتمع الموريتاني مقصور على المنحدرين من عرب بني حسّان، ومجموعات أسرية قليلة تشكلت منها قبائل بالنسب، والعصبية

والولاء، وتبقّى الأغلبية من السكان الأقدمين صنهاجية صرف كحال بني عمومتها من التوارق.

وقد كانت ظاهرة الأنساب وثيقة بتطور الحياة الثقافية والاتصال بالبلاد العربية عبر الحج، وحركة الهجرات البشرية المتصلة بحركة القوافل التجارية المترددة بين السودان والمغرب عبر مسالك تجارية معقدة تشكلت، عبر القرون، بالتساوق مع تطور المبادلات الدولية، والتحولات السياسية والبشرية في الإقليم.

أولا: المسالك القافلية وتطور المدن

تعود تجارة الصحراء إلى عهود موغلة في القدم منذ ما قبل الميلاد، وعرفت قفزة مهمة منذ القرن الثاني الهجري (8م)، بفعل انتشار الإسلام وازدياد التلاحم بين ضفتي الصحراء، بين شمال أفريقيا وبلاد السودان[68].

وأهم المحاور التجارية (كل محور يمثل اتجاها عاما لمجموعة من الطرق):

1. المحور الغربي: ويربط بين وادي درعة شمالا وغانة جنوبا. ويُسمّى "طريق اللمتوني" نسبة للحملة العسكرية الجهادية التي قادها جنوبا "بوبكر بن عامر" أمير المرابطين. وطريق اللمتوني حاليا هو الطريق الذي ظل يربط بين جنوب شرقي موريتانيا وشمالها، ويسمى "طريق الملح".

2. **المحور الأوسط**: الرابط ما بين أتوات شمالا وعقفة نهر النيجر جنوبا.

3. **المحور الشرقي**: وهو الطرق التي تتجه من غرب الصحراء والسودان نحو السودان الشرقي عبر السافانا الإفريقية.

أما القافلة فكانت تتكون من مجموعة من الجمال –حسب أهمية التجارة– يستأجرها مجموعة من التجار من قبل مجموعة ملاّكها، وهم في العادة شيوخ البدو الذين يمتهنون تهيئة الإبل للكراء والقوامة عليها، ثم يصحبونها حتى تصل نهاية المطاف. واعتاد مُلاّك جمال القافلة أن يأخذو مبالغ معلومة من كراء الجمال، وضرائب المرور من بلاد القبائل حماية للطرق، وتقدم في شكل "عوائد" لشيوخ تلك القبائل، أجرة رفقاء القافلة الذين يحرسون القافلة أو يعتنون بالإعاشة والخدمة. أما رئيس القافلة واسمه "إقديّمر" (المقدّم) فكان بمثابة القائد للجميع وكانت سلطته مطلقة، وهو الذي يكتري أدلاء القافلة، ويسمى الواحد منهم "التاكشيف" أي الذي يستكشف الطريق وتعرف مهنة الدلالة بـ" التاكشيفت" أي الدلالة وهي لفظة بربرية أصلها عربي.

لم يكن تطور المسالك التجارية، فجائيا ولا ارتجاليا، بل كان على العكس من ذلك حركة بنيوية، بطئية، ولكنها حاسمة، شأنها شأن كل تحول يتم على صعيد البنى الاقتصادية – الاجتماعية

حيث يتم في مدة زمنية طويلة longue durée بتعبير مدرسة "حوليات" الفرنسية Ecole des Annales [69].

ويعود تطور المدن التجارية في الصحراء، خلال العهد الوسيط "والمرابطي"[70] إلى الازدهار الذي عرفته مسالك المحور الغربي خلال النهضة المرابطية. حيث أخذت القوافل تبتعد عن الإقليمين الشرقي والأوسط، في الغرب الإسلامي، وتتجه نحو الغرب". وصادفت هذه العملية ظهور حركة قوية ومتوثبة بأقصى الجنوب الغربي للإقليم، فاستفادت القوافل، واستفادت الحركة المرابطية على السواء"، على حد تعبير المؤرخ محمد القبلي[71]. في ظاهرة استمرت إلى ق 13م.

كما يرجع ذلك إلى حاجة الأوروبيين الماسة للذهب في هذه الفترة، مما مكن الإقليم من أن تحقق أرباحا هامة بتسويق هذه المادة من الجنوب إلى الشمال في العصر المرابطي، لدرجة أن الأرباح تجاوزت نسبة ألف بالمائة[72]. وقد أدّت هذه التطورات إلى ازدهار المحور الغربي، ولاسيما جزءه المسمى "طريق اللمتونى"، الرابط بين محور وادي درعة – سجلماسة شمالا، والسودان الغربي جنوبا، ويخترق في جزئه "الموريتاني" المجابات الكبرى إلى أحواز تيشّيت الحالية، أو يمر بكدية أجل (أيزل في المصادر القديمة)

ليصل أحواز ولاتة (ولاتا) فالسودان[73]. ثم لم يلبث المحور الغربي أن اتجه نحو الإنحطاط مع سقوط المرابطين واحتلال الموحدين للمحطات الشمالية لتجارة الصحراء.

وينضاف، إلى ذلك، عامل أشد حسماً، هو تزايد "فُرص الإخلال بأمن القوافل" بفعل سيطرة طلائع الهلاليين على تخوم البلاد حيث "أن تقدم البدو البطيء نحو الغرب كان بلغ منتهاه مع بداية القرن الثالث عشر، والحزام الصحراوي أصبح كله عمليا في قبضة القبائل العربية المتنافسة في منتصف القرن"[74].

واشتداد هذه الظاهرة في أواخر القرن الثامن الهجري (قرن 14 م)، هو ما ألفت انتباه ابن خلدون حيث لاحظ، في أُخريَات أيامه، أن الطريق الغربي المار "من ناحية السوس إلى ولاتن (ولاتة (ولاتا)) قد أُهمل لمّا صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلياء تمنطيت (إقليم توات).."[75].

وقد أدت هذه الوضعية بأرباب التجارة إلى العدول عن المسالك الغربية، والاتجاه شرقا نحو طرق المحور الشرقي الرابط بين عقفة النيجر جنوبا والمتوسط عبر واحات توات التي كانت تقوم "بدور محوري في مركز البضائع خلال هذا العهد (14–15م) بين

الشمال والجنوب". ويرى محمد الشنافي أن النهضة الحفصية في تونس، واهتمامها بالسودان قد زادا من حظوة هذا المحور[76].

وستظل كفة هذا المحور راجحة حتى القرن العاشر (ق16 م). وهو ما تؤكده شهادات ابن بطوطة (ق 14 م)، وشهادات السعدي (ق 16–17م)، والحسن الوزان (ليون الإفريقي)، وغيرهم، وقد أدّت هذه التطورات إلى انهيار المدن التجارية التي ازدهرت في عهد المرابطين، ونهضة المدن الواقعة على حواف هذا المحور، وذلك قبل أن يبدأ البرتغاليون في تركيز أقدامهم على الشواطئ الإفريقية في بداية تحول المسالك التجارية الدولية.

وأدى خروج أوروبا من مشكل الذهب الشهير[77] وسيطرتها على تقنيات الملاحة في أعالي البحار بعد عدة إخفاقات، إلى حدوث طفرة في الكشوف الجغرافية، مما كان له أثره على المسالك التجارية التي بدأت تخرج نهائيا من المتوسط الذي كاد يستحيل، في يوم من الأيام، "بحيرة عربية"، إلى المحيط الأطلسي. وقد أسس البرتغاليون – امتدادا لتلك الكشوفات، مركز آركين على الشواطئ الموريتانية، وفق سياسة لتأسيس محطات سفن الكارافيلا ووكالات تجار لشبونة على طول السواحل الإفريقية[78].

وعلى الرغم من أن القوافل قد بدأت تتخذ تلك الوجهة، إلا أن الحضور البرتغالي لم يستطع أن يؤثر بشكل هيكلي على جغرافية الذهب "في الساحل"، كما لم تستطع القوى الأوروبية التي ستأتي بعده أن تقضي على تجارة الصحراء. غير أن هذا الحضور الأوروبي وتوابعه، بدأ يساهم، إلى جانب التطورات التي حدثت في الساحل مثل سقوط تُنْبُكْتُو على يد جيش الرماة الذي وجهته السلطة السعدية سنة 1000هـ/1591م إلى مملكة السُّنْغَاي، ثم وفاة المنصور السعدي سنة 1012هـ/1603م واندلاع الفوضى في المغرب، ثم الصراع السياسي بين قوى حوض النيجر، كل ذلك ساهم في ازدياد حصة البوادي القريبة من الأطلسي وكذلك في تعمير المدن الواقعة في شرق البلاد وشمالها.

لكن تلك التحولات بما فيها المجاعات والأوبئة، والصراعات والحروب الأهلية في المدن وأحوازها، ستؤدي -لا سيما في آشمال موريتانيا في أواخر القرن العاشر الهجري (ق 16م) ومطلع تاليه (ق 17)- إلى حدوث تبرمات وهجرات بشرية واسعة النطاق نحو الجنوب الشرقي والجنوب الغربي في تحولات حاسمة، أدّت إلى انحطاط المجتمع الأهلي القديم، لا سيما في المدن القديمة، **تِينيكي**[79]، بعد خراب **آبَيْر**[80]، وغيرها.

وتشهد الأدبيات القبلية الغزيرة، على حركة هجران واسعة لجبل آدرَارْ وأحوازه، فراراَ من الحروب والصراعات، أو من المجاعات والأوبئة والجفاف الماحق، أو من هذا بأجْمعه.

وتصر معظم القبائل الزاوية على أنها قدمت من الشمال (من تواتْ، أو السوس) مباشرة أو عبر آدْرَارْ، في سياق تذكره تفصيلا.

انهيار المجتمع الأهلي القديم

وفي هذه الفترة أو قريب منها اندلعت الحرب داخل حاضرة تينيكيِ مخلفة دمارا واسعا أنهى حلقة أساسية من تاريخ المجتمع الأهلي بالصحراء.

ثانيا: انهيار المدن العتيقة في القرن 11هـ/17م:

- **خراب آبَيْر**: تقع قرب شنقيط، وقد تأسست سنة 160هـ ولذلك قيل إن اسم آبّيْر تصغير اسم البئر وأنها من "الأنباط التي حفرها" عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع وسهل بها حركة القوافل وسير الجيوش. لكننا لم نجد سندا لهذا الزعم.

والمهم أن مدينة آبّيْر أفضى تدهورها إلى انحطاط كلي في حدود 640هـ وسبب الأزمة المباشر هو تفكك "جماعة الحل والعقد" والتي

كانت تسمى "جماعة الأربعين" (أربعين قبيلة؟) بسبب رفض بعض أعضائها إيقاع الحكم على يحي العلوي "جد قبيلة إداوعلي" والذي كان من أعيان المدينة وأشرافها، واتفقت الجماعة على تغريب يحي عدة سنين، ثم لم يلبث الحال بجماعة الأربعين أن تفرقت وضعف دورها، فخرجت القبائل تباعا بعد تلك الحادثة.

ويذهب ابن حبت الغلاوي الشنجيطي في نُقلته "نيل المقاصد" إلى أن الذي تزعم فكرة تطبيق حد القصاص كان أحمد أبُوصادْ الجد الجامع لقبيلة البُصَاديين (إدَوْبُسَاتْ) وخرج عن آبّيرْ واعتزل جماعته. ولا نعرف مصادر الغلاوي في هذه الحادثة! وإذا تركنا جانبا موضوع آبّيرْ، فإن الصراعات والتبرمات البشرية في المدن نهاية القرن العاشر الهجري ومعظم تاليه (16-17م)، كانت الظاهرة المميزة لتلك الفترة القلقة. وهكذا فقد عرفت نهاية القرن العاشر الهجري (ق16م) وبداية تاليه حروبا طاحنة داخل المدن وأحوازها، أدت إلى تبرمات بشرية من الشمال إلى الجنوب، مما كان له أثر بعيد المدى على الخارطة البشرية والسياسية للإقليم، مما انعكس مباشرة على المجتمع الأهلي الصحراوي ابتداء من ق11هـ/17م.

- **انهيار "تينيكي" وتوابعه**: تقع تينيكي بين "وادان" و"شنجيط" وتُعرف أطلالها بـ"اركَيْويه"[81]. وقد أسستها قبيلة

تجكانت بعد سقوط دولة المرابطين في الشمال، في القرن السادس الهجري. تعود أقدم إشارة لهذه المدينة إلى المستكشفين البرتغاليين في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو العهد الذى شهد بداية الأزمة التي أفضت إلى الحرب في المدينة.

تصف هذه الكتابات تينيكي بأنها قرية صنهاجية، تقع ضمن جبل بافور (آدرار موريتانيا)، لكنها لا تذكر قبيلة تجكانت بالاسم[82]. وذلك على الرغم من ذكر الروايات المحلية "أن أكثر بقاع الدنيا علما آنذاك مصر وتنيق (تينيكي)"، وأن سبعين من عذارى المدينة كن يحفظن المدونة، كما تغني عبيدها بمقامات الحريري، وهي أسطورة ولاشك، ولكنها على أية حال قابلة للتأويل.

وتذكر الرواية أن المهزومين قد رحلوا نحو قرية "تكبَة" في إقليم أفله من بلاد الحوض. وفيها أقاموا في ظل سيطرة العروسيين[83] القادمين، فيما يبدو، من جنوب غرب البلاد، في حركة واسعة فيما يشبه محال (جمع محلّة) الرماة في تمبكتو التابعة للسعديين.

وعلى أثر معاناتهم من جباية العروسيين المُدَاراة منهم، وكانت على ما يبدو شديدة الوطأة، استنجدوا باعداء الأمس من بني عمومتهم، فانجدوهم حسب ما تقول الرواية حتى أجلوا العروسيين عن تكبَة[84].

وتقول رواية أخرى ".. إنه بعد الحرب في تينيكي بخمسة عشرة سنة، يبست آبار تينيكي فهاجر الكواليل جنوبا؟ وتقول الرواية

الشائعة إن كل جكَنِيٍّ في "الدنيا" فأصْله من تينيكي، مثل: تجكانت القاطنين في تندوف (في جنوب غرب الجزائر حاليا)، وتجكانت في بلاد القبلة (جنوب غرب موريتانيا) ومجموعة جكنية في ولوف السينغال، وقبيلة إديلبه تمركزوا حول مدينة ولاتة (وَلاتا) في شرقي موريتانيا، وقبيلة الوسرة توطّنوا بين ولاتة (وَلاتا) وتمبكتو[85].

ويرى "وايت كنب" Withcomb أن هجرة تجكانت عن تينيكي قبل الحرب وبعدها، لم تتم بشكل مباشر بل لعلها تمت بشكل تدريجي منذ وقت طويل بفعل مصاعب كبرى كانت تعرفها إقليم آدرار، نتيجة الانحطاط الاقتصادي الناتج عن تغير مسالك التجارة، وكثرة السكان بفعل ازدياد النزوح نحو الإقليم، والجفاف[86].

ويرى **وايتكنب** wihitcomb أيضا، أن الحرب بين كنتة في هذه الفترة كانت بالتساوق مع الصراع الجكني، والمفهوم أن ذلك كان في حدود نهاية ق 10هـ/16م وبداية ق 11هـ/17م. وعلى الرغم من أن تواريخ الحروب بين تجكانت، وهجرة تينيكي، وانقسام كنتة إلى فرعين، غير معروفة إلا أنه تبعا لتقاليد روايات تجكانت أن والد جد سيد المحجوب القائد الجكني المعروف، وهجر تينيكى، تمّا في بداية النزاع بين تجكانت، ويقال أن سيد المحجوب وُلِد بعد هجرانها، أي في سنة 1106م/1694م، معمّراً.

وعلى هذا الأساس، يذهب **وايتكنب** wihitcomb إلى أن الحرب بين تجكانت، وهجر تينيكي، ربما كانا بين 957هـ/1550م، و1034هـ/6-1625)[87].

ومهما يكن فإننا نميل إلى أن هذا العهد شهد هجرة الحواضر الشمالية التي عرفت الحروب آنذاك، وتسجل الرويات المحلية نماذج لانتقال بعض الشخصيات المشهورة عن الشمال للجنوب، مثل سيد أحمد البكّاي الكنتي (ت920هـ/1515م) والذي وصل إلى "ولاتة (ولاتا)" في تاريخ لاتعرف بداياته ضبطا، ولكنه، بلا شك، كان قبل سنة 911 هـ، حيث يذكر ابن الحاج عبدالله الركادي[88] انه شاهد وثيقة بخط البكّاي في نخل اشتراه بشنجيط في ذلك التاريخ[89].

إن هذه العوامل المُفَكِّكة، ستختفي كليا، أوجزئيا، في المدن الأخرى حيث سيتطور "الإجْمَاعْ" وتجلياته المؤسسية بقيادة أعيان العلماء والرؤساء والقضاة، مما سيحفظ للاجتماع الأهلي لحمته الجامعة خلال القرون الموالية على الرغم من الصراعات المتأججة داخل المدن، والحروب القبلية الدامية في الأحواز وفي البوادي البعيدة.

الحرب بين سكان وادان: اندلعت بين سكان المدينة القدماء؛ تفرلة وتامكّونة، المسوفيتين، وأفضت إلى هزيمة قبيلة تفرلة وهجرتها إلى جنوب غرب البلاد.

الحرب بين سكان تيشيت: بين ماسنة ضد مجموعات الشرفاء وادوالحاج وغيرهم، وتدخل فيها إدواعلي وتجكانت إلى جانب الشرفاء. ولعل الحرب بين ماسنة وإدوالحاج التي يذكرها سيد محمد الكنتي في الرسالة الغلاوية جزء من تلك الحرب الأولى.

الحرب بين أهل شنقيط: وبدأت بالصراع بين إدواعلي والسماسيد وبعض الأقلال، ثم انحصرت بين إدواعلي أنفسهم وانتهت بخروج بعضهم إلى الجنوب الشرقي والوسط ليؤسسوا مدينة تجكجة.

لقد وصف بعض الكُتّاب، هذه الحروب، بالقول "كان فيها إثم كبير ومنافع للناس"[90]. وهو وصف صائب، حيث ساهمت بعض هذه الصراعات في تجديد عناصر السكان في مدن أخرى، وإعادة إعمار نطاقات جديدة.

ولم ينل تاريخ المجتمع الأهلي في موريتانيا عناية تذكر، لا من الأجانب ولا من المواطنين، بل تم إهماله على الرغم من مساهمته المحورية في البنية الحضارية والثقافية التي نشأت في ظل فراغ السلطة.

ويمكن القول إجمالا إن **المجتمع الأهلي الموريتاني كان متمركزا في موريتانيا الشرقية "بالمفهوم الثقافي لبلاد البيضان"، لا سيما في مثلث: تنبكتو ـ ولاتة (ولاتا) ـ تيشيت وهي المدن**

الكبرى التي كان معقل الثقافة العربية الإسلامية في البلاد، إلى جانب مدينتي شنقيط، ووَادانْ الشهيرتين، فضلا عن البوادي المرتبطة بذلك المثلث: بوادي الحوض، وبوادي الرقيبة، وبوادي تكانت، وبوادي أزواد.

أما المناطق الغربية كبلاد القِبْلة "بلاد الترارزة"، وبلاد تيرس، والساقية وما والاها، فلم تعرف مؤسسات المجتمع الأهلي ونظمها الحضارية، لكون مناطق هامشية باقية في تجارة القوافل الصحراوية، ولم ينتظم منها إطلاقا ركب حاج لاقديما ولا حديثا، كما أنها لم تعرف ظاهرة المدن والحواضر الثقافية والتجارية مطلقا. ولا يعني ذلك قصورا معرفيا ولا حضاريا، بل هو نتيجة لأسباب تاريخية أكثر من عادية، أدّت مع انتصاف القرن 19م إلى تحول مركز النشاط البشري والاقتصادي إلى منطقة القبلة وأحوازها، وازدهار الحركة الفكرية في بلاد القبلة وتيرس وأحوازهما. وتحول المناطق الشرقية إلى هامشية. كما يعود ذلك إلى أسباب تاريخية جوهرية جعلت البلاد تنقسم، وبشكل مبكر، إلى منطقتين متمايزتين:

1- أقاليم المركز: وتشمل **أقاليم الشرق الموريتاني** وأحوازه، وبعض جهات "آدْرار"، وقد عرفت ظاهرة المدن العالمة والتجارية، وتنظيم ركب الحاجّ سنويا، وكذا تجارة القوافل الكبرى المرتبطة بالمسالك القافلية الدولية. كما تطور فيها، وبسرعة، التوازن الأهلي

بين المحاربين والزوايا، وترسخ "الإجماع" متمثلا في ثوابت شرعية وعرفية قبلها أهل الشوكة ونظمها الزوايا، ولذلك لم تعرف موريتانيا الشرقية ظاهرة الصدام الموجه بين الزوايا وأهل الشوكة.

2- أقاليم الأطراف: وأشهرها **بلاد القبلة (بلاد الترارزة)** الواقعة جنوب غرب البلاد، وكذا المناطق المتاخمة لها شمالا على طول الساحل الأطلسي. ولم تعرف التجارة القافلية والتمدن وركب الحج، وكذا خطاب "الإجماع" المجتمعي الذي كان سائدا بين قبائل الشرق الكبير. ولا يعني قصور الاجتماع الإسلامي بها، بل إن مظاهر الحيوية الفكرية والسياسية للأمراء الحسّانيين والأعيان من الزوايا في القبلة، كان قويا ومهما، وساهم في ترميم العلاقة بين أهل الشوكة وقبائل الزوايا، بعد الحرب الأهلية المحلية، المعروفة باسم "شرّببّا" التي قادها الثائر اللمتوني الأصل أوبك بن أبهم الملقب ناصر الدين.

II- بنية المجتمع الأهلي

يقوم المجتمع الأهلي التقليدي على ثلاثة أركان رئيسة هي: المدن، وقبائل الزوايا (أو الزوايا، حصرا)، الطرق الصوفية (الزوايا الصوفية). وسنعرف بكل ركن من هذه الأركان على حدة، بادئين بدلالته الفيلولوجية والاصطلاحية، ثم باستبيان أصوله وروافده.

1- الزوايا:

عَلَمٌ على القبائل المختصة بالشؤون الدينية (الإمامة، والقضاء، والفتيا) والوظائف التعليمية من تعليم وتدريس، إضافة إلى الشؤون الاقتصادية من حفر الآبار، وتنمية المواشي، وتسيير القوافل التجارية مع ملكية الجميع. وقد تسمى أيضا قبائل **الطلبة** اختصارا في أغلب الأحيان. وهي لا تحمل السلاح، من حيث المبدإ، لكن بعض قبائل الزوايا في الشرق الموريتاني تحمل السلاح، لكنها لا تتخلص من وظيفتها الدينية والعلمية.

ونعتقد إن اصطلاح الطلبة تحديد لوظيفتها العلمية والزوايا وصف لمنزلتها السياسية، قياسا على أن طبقة أهل الشوّكَة تسمى "العرب" للدلالة على المكانة الاجتماعية، لأن أغلب أهل الشوّكَة هم من قبائل بني حسان العربية، وتسمى أيضا "حسان" لوصف وظيفتها القتالية.

وتشكل قبائل الزوايا فئة متميزة تأتي في المرتبة الثانية من السلم الاجتماعي الموريتاني بعد الفئة الأولى قبائل حَسّانْ (العرب) (حملة السلاح المنحدرون من بني حسّان وصنهاجة)، على الرغم من أن هذه التراتبية ليست مطلقة حيث تكاد فئتا الزوايا وحسان أمر تكونا متساويتين في المرتبة الاجتماعية، لاسيما في

مناطق الشرق الموريتاني، حيث تتميز قبائل الزوايا، في شرق البلاد، بالتداخل السيسيولوجي والتاريخي مع القبائل الحسّانية.

وينبغي التنبيه للوهلة الأولى، إلى أن هذه التراتبية الاجتماعية والتخصص الفنوي، ليس المجتمع الموريتاني فيها بدعا من مجموعات الرحل والظواعن في الصحراوات الكبرى (الجزيرة العربية، الصحراء الكبرى بإفريقيا)، ومن أكثر المجتمعات شبها في هذا التخصص بالمثال الموريتاني هذا، مجتمع اليمن حيث توجد في جهات بلاد اليمن في أقاليم "تعز" و"حضرموت" فئات وقبائل تختص بالشؤون الدينية والتعليمية، والأمر ينسحب على الجيران الأقربين للمجتمع الموريتاني البيضاني، مثل "التوارق" حيث توجد قبائل "عزْلاء" مختصة بالشؤون الدينية والثقافية تسمى إنَسْلَمِين، والحال نفسه ينسحب على القبائل السودانية من الهالوبلار والسوننكي.

وكيفما كان الأمر، فإن التساؤل وارد عن أصول هذه الفئة وأوّليَّة تشكلها، هل هو راجع إلى عهد المرابطين، حسبما جاء في الرواية الواردة سابقا في تاريخ الحركة؟ أو أنه يعود إلى الحضور الحساني وما نشره من تقاليد ثقافية وحضارية وممارسة سياسية هلالية، تقوم على العنف والعادة، وما يؤسسانه من شرعية اجتماعية وسياسية؟

يرى ابن حامد أن هذا التقسيم الاجتماعي لم يكن موجودا قبل ذلك، فقد كانت كافة قبائل صنهاجة، طبقة واحدة تُسَمَّى "أهل الزاوية" نسبة إلى رباط عبد الله بن ياسين وزاويته[91].

وهذا الرأي تعضده الاستفتاءات التي كانت ترد على فقهاء الأندلس من الصحراء خلال العهد المرابطي، لا سيّما في أواخره، حيث جاءت في هذه الاستفتاءات وأجوبتها الإشارة إلى أن أصحابها هم من "مرابطي الصحراء" في إشارة –على ما يبدو– إلى صنهاجة[92].

ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك لأن صنهاجة الصحراء هم عامود قبائل الدعوة المرابطية، ولاتذكر المصادر أن المرابطين كانوا يقومون بطريقة تشاكل سياسة "التمييز" الشهيرة التي كان الموحدون يقومون بها أول عهدهم. على الرغم من أنهم كانوا يشددون في شروط توبة المنتمي إلى رباطهم بعد التغلب عليه، حسبما يفهم من كلام البكرى عن أوّليّة دعوة ابن ياسين.

ثم إن الرأي كاد يستقر على أن فكرة الرباط والمُرابطة واسم المرابطين كان وثيق الارتباط بالمعنى القرآني القائم على الجهاد، والتعبئة له وليست له أية علاقة بالرباط –الثكنة أو الرباط– المدرسة، كما لم يثبت أن هناك صلة بين مفهوم الطلبة لدى الموحدين[93] ومقابله في موريتانيا حيث يطابق هنا اسم الزاويا في دلالاته ومعانيه.

ويحلو للباحثين المعارضين لهذه الرؤية، الإحالة على رسائل اللمتوني وما تذكره من تخصص نسبي في الوظائف بين مجموعات مجتمع "الساحل"، لكنا بتنا نعرف اليوم أن الرجل كتب رسائله خارج المجال الموريتاني التقليدي (أتراب البيضان) في إقليم "أكدز"أغاديس" البعيدة[94]. ينضاف إلى ذلك أن مختلف الشهادات المحلية تصب لصالح رأي ابن حامد الذي قدمناه، على الرغم من تأخره زمنيا، لوضوحه وبساطته.

فالشيخ سيد محمد الخليفة الكُنتي (ت 1242هـ/1826م) يرى أن أصل الزوايا هي المجموعات التي أقرها بنو حسّان على عملها الديني، بينما ضربوا المغارم على الفئات الأخرى من سكان إمارة ابْدُوكَلْ اللمتونية التي خضدو شوكتها ملتقى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (ق14–15م على الأقل)[95].

أما الشيخ محمد المامي (ت 1292هـ) فيقول عن أصل هذه الفئة ودلالة اسمها مانصه: "وأما اشتقاق التزاويت، فالزاوية لغة البيت أو المسجد أو الدار وشبه ذلك، وقد غلبت عند أهل المدن على زوايا المدارس المبنية للدراسة خاصة،لاما جمعت الدراسة والصلاة، فأنهم يغلبون اسم المسجد على الدراسة كما في الجامع الأزهر بالقاهرة، ويقولون في المدارس زاوية فلان المدرّس، وزاوية العالم

فلان (...) ثم إن المدارس في الإسلام قائم أهلها بحمل فريضة العلم لا يأخذون السلاح وفريضة الجهاد يقوم بها الجيشان المعهودان لها (...) فلما كان أهل هذا القطر ثلاث فرق: حسان واللحم والزاويا، كانت هذه الفرقة من أشبههم بأهل المدارس المسماة بالزوايا في لغة أهل المدن عرفا، وهو حقيقة عرفية ومجاز لغوي نقلي..."[96].

أما الشيخ سيديه بابا، (ت 1342هـ/1923م) فيرجّح أن: "أصل الزوايا من صنهاجة لأنهم يُسمّون بالمرابطين، سمّي بها سيدهم عبد الله بن ياسين أصحابه الأولين للزومهم رابطته ثم صارت اسما لعامة صنهاجة..."[97]. ثم قال: "كما سُمُّوا بالزوايا لملازمتهم للزوايا جمع زواية، وهي أيضا موضع العبادة، وكما سُمُّوا (طلبة) لطلبهم العلم واشتغالهم به[98]. ثم استطرد الرأي القائل أن إبراهيم الأموي، جد المدلش، كان قاضي جيش أبي بكر بن عمر اللمتوني، وكان مجلسه يسمى مجلس القضاء وبه سُميت القبيلة (المجلس) ثم كانت له زاوية يأوي إليها التائبون الذين يريدون الانقطاع للعلم والعبادة وترك أمر الحرب وحمل السلاح. وأنه كان منهم أجداد قبائل من الزوايا، فصار يقال لهم الزواية أي أهل الزاوية، أو نحو هذا، وإن هذا هو معنى ما أشتهر أن المجلس أصل الزوايا...)[99].

أما عبد الودود بن أحمد مولود بن أنتهاه الشمسدي (1920م) فقد ذهب إلى أن "الذين هم أهل العلم لم يسعهم حمل السلاح لكونهم لم يجدوا جهادا مباحا، ولم يصلحوا للحرابة التي هي الغالب من حمل أهل السلاح. وضعوا السلاح لذلك الموجب (...) ولم يزالوا مشتغلين بدينهم ومن لم يتمكن منهم من إقامة دينه من أجل ظلم العرب له أختار المدارات (المدارة)، وحمل الوظائف عن القتال مع العرب (حسان)..."[100].

والظاهر أن كل هذه النقول تصب في مجمع رأى ابن حامد الآنف. غير أننا نود أن ننظر إلى المسألة من وجهة أخرى، بغية التساؤل عن أوّليّة التفرغ للتعلم والاعتكاف للعبادة بين القبائل الحسّانيّة نفسها.

يبدو أن ظاهرة التوبة من حمل السلاح وحياة (الحرابة)، كانت متأصلة في عرب الهجرة السكانية كلها، وفي عهد مبكر من إنسياح هذه القبائل العربية إلى المغرب وأحوازه. لكن أقدم استخدام لمصطلح "الزوايا" محليا، حسب ما نعلم، هو ما جاء في حديث عبد الرحمن السعدي[101]، والبرتلي[102] عن الفقيه إند–غ– محمد بن ملوك بن أحمد بن الحاج الدليمي المتوفى سنة 995هـ/1587م، تُنبُكتو. وقال السعدي إنه "من أهل الزاوية في المغرب ايقصد غرب

تنبكتو: بلاد الحوض)... (وأنه) لقب بالمصلي لكثرة صلاته في المسجد...". كما يذكر صاحب "فتح الشكور"، عالما بارزا من أصل حسّاني دليمي هو سيد محمد بن أحمد بن يحى بن إبراهيم الدليمي (كان حيا سنة 1048هـ/1638م)، وفي فتاوى حمى الله التيشيّتي عزو لنقوله[103].

ونحن نميل إلى أن أولاد ادليمر، كانوا من أول من عرف من الحسانيين ظاهرة التوبة الطوعية، والتخلي عن حمل السلاح وحياة الكر والفر، والصرعات الدامية في الصحراء، بل ولعلهم من أسبق تلك المجموعات اهتماما بالحج وتقاليده.

وقريبا من هذا التاريخ يذكر المؤرخ الشهير، والعالم النوازلي محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت1271هـ/1854م)، أنّ جدّه الحاج عبد الوهاب الناصري المغافري كان أوائل القرن العاشر الهجري (16م) يقوم بخفَارة الحاج بين الصحراء وتافيلالت، حيث تتركز قبائل المعقل، ويعترض بعضها الحاج والسابلة والقوافل.

وكان الحاج عبد الوهاب الناصري قام بخفارة ركب الحاج الذي ضم مسكة بن بارك الله فيه اليعقوبي في تلك العهودة، كما كان عبد الوهاب أول من وطد لقومه تقاليد التوبة الطوعية والتخلي عن المثل المحاربية[104].

واعتقادنا أن أولاد الناصر وأولاد ادليمر كانوا أول من أسس بين بني حسان، تقاليد التوبة الطوعية والتخلي عن السلاح، لا عن غلبة، ولذلك فإن وجود (الزوايا) بين قبائل المغافرة وبعض بني عمومتهم من بني حسان لا يعود إلى عهود متأخرة كالتي تتحدث عنها الروايات، بل هو أقدم من ذلك بكثير بدليل هذه الشهادات الواضحة والدالة.

وعلى الرغم من أن مصطلحي التوبة والهجرة متطابقان تقريبا، إلا أن استخدامهما في الاتجاه نفسه ليس متماثلا، لا سيما في جهات مختلفة من البلاد، فمصطلح الهجرة (ومنه المُهاجريّة) يدل في البلاد الشرقية من موريتانيا الحالية، على الفئة التي تخلت عن التقاليد الحسّانيّة الحربية، من حمل السلاح والغزو، وانخرطت في سلوك القبائل الزاوية من تعلّم وتجارة ومسالَمة، في ظروف أغلبها عاد طوعي، كما تؤدي الهجرة، إلى جعل المُهاجرين (أو الفئة المهاجرية) فئة تابعة أو متدنية في السلم الاجتماعي، إن تمت في ظروف الإكراه أو الالتحاق بقبائل زاوية على سبيل التبعية.

ويعرّف كبير مؤرخي موريتانيا محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الحوضي (ت.1271هـ)، بحسّه التاريخي المرهف، مصطلح الهجرة والمحاربيّة بقوله[105]: "المُهاجر من هجر حزب الشيطان

ورجع إلى الله مُنيبا، والمحارب من يُريد أن يُنشئ مجدا بشجاعته وإقدامه...".

ينضاف إلى ذلك أن مصطلح الهجرة والمهاجرية في شرق البلاد أصيل في اللغة العربية وفي الاستخدام المطرد له بين عرب الهجرة الهلالية، يتضح ذلك من كلام ابن خلدون (ت. 808 هـ/1453م) عن مهاجرة اليهود، ومهاجرة هلال...

أما التوبة فاستخدام شائع في مناطق الأطراف في المجتمع الأهلي، أي في بوادي الأطلسي (منطقتا: تيرس والقبلة)، **حيث أدّت "حرب شُرُبَّة"[106] إلى تجذير التعارض بين الزوايا وأهل الشوّكة**، وبذلك صارت "التوبة" في صفوف أهل الشوّكة في إقليم القبلة، حالة "مؤسفة" لدى أهل الشوّكة ولدى الزوايا أنفسهم. ولذلك فإن التائب دون مرتبة الزاوي الأصلي، وفئة "التيّاب" يقعون في مرتبة دون الزوايا والطلبة، لكنهم ليسوا أتباعا ولا غارمين.

واجتهادنا أن ظاهرة نشأة التقاليد "الزاوية" في المجتمع الموريتاني ترجع إلى المجموعتين الحسّانيّة والصنهاجية معا، حيث جاءت قبائل بني حسان تحمل نموذجها المحاربي القائم على العنف والعادة فهو نموذج "هلالي"، كما جاءت بتقاليدها الزاوية ممثلة في بطونها "الزاوية" أو "التائبة".

أما صنهاجة فعلى الرغم من أنهم كانوا طبقة واحدة، تسمى المرابطين، كما ذهب ابن حامد، ودلت عليه الشواهد الآنفة، فإن التخصص بين قبائلها كان أقدم من الحضور الحساني بدليل وجود فئة زاوية تتعاطى العلم، وتشتغل بالدين في ظل إمارة أبْدُوكَلْ اللمتونية، وفيها تتم توبة من يريد التخلي عن السلاح من اللمتونيين من أهل الشوكة، كما تقدم لتلك المجموعة الزاوية الزكاة والهدايا دوريا. والأمر نفسه ينسحب على التمييز بين أهل الشوكة من صنهاجة قبل المرابطين مثل الأنباط وغيرهم من الفقهاء.

لكن طبقة الزوايا لم تكن بالقدر الواضح آنذاك، ومع مجيء بني حسّان وما تلاه من أحداث، وبالتزامن مع تحولات المجتمع الأهلي في المدن بفعل اضطراب عوائد تجارة القوافل نتيجة الحضور الأوروبي على السواحل، كل ذلك أدى إلى تطور قبائل صنهاجية، على النمط القبلي الهلالي (الحساني)، بوجود فارق واحد هو اهتمام هذه بالعلم، وخطط الدين والتجارة، لأنها تشكلت حول ما بقي من "المركزية الأهلية" التي صارت شعاعا، بينما ظلت القبائل الحسّانيّة وفيّة لمُثُلها الحربية، تدعم أزرها عصبية قوية، وحركية واسعة، تقوم على الظعن بعيد المدى وعمليات الغزو الدورية، ولذلك كانت قبائل الزوايا في الشرق والشمال وريثة مباشرة للمجتمع "المدني" في إقليم الساحل الصحراوي.

وحول تشكل الفئة " الزاوية" يقدم الباحث ددود بن عبد الله ابن الهاشم [107] نموذجا افتراضيا مُؤدّاه "أنها وريثة المجتمع المدني" الذي كان يتمتع بنفوذ واسع في المدن التجارية، ويتكون هذا المجتمع من ثلاث شرائح أساسية، تعتبر هيئة "العلماء" في القمة منها، وعلى رأس هذه الهيئة يوجد القاضي الذي كان صاحب السلطة الحقيقية في المدينة. أما الشريحة الثانية فعمادها التجار الذين كانوا يمولون القوافل، وكثير منهم كانوا مقيمين بالمدينة. وتتكون الشريحة الثالثة من مسيري القوافل، وهم –في الغالب– مالكو جمال القافلة، وينتمون إلى قبائل صحراوية، وليست لدينا معلومات مفصلة عن طريق انتظام هذه القبائل الصحراوية المندمجة في هياكل التجارة القافلية(...) الكن يفهم من بعض الإشارات المختلفة) أنّ القبيلةَ من هذه القبائل كانت تنتشر في مجال واسع، فبعض بطونها يستقر في الأطراف الشمالية للصحراء، في حين تستقر بطون أخرى في الأطراف الجنوبية، أو حول المراكز الحساسة مثل المسالح الصحراوية، وكانت هذه القبائل مسالمة لا تحمل السلاح، مما يجعل الاعتداء على أفرادها ظلما صريحا يعرض مرتكبه للانتقام الإلهي المباشر (التازبة) خصوصا وأن هذه القبائل المسالمة كانت ترتبط بزوايا صوفية معروفة ومحترمة، فكانت عبارة "نحن أهل الزاوية" بمثابة جواز سفر للقافلة. وفي مقابل هذا "المجتمع المدني"،

كان هناك "المجتمع السياسي – العسكري" ونعني به السلطة الحاكمة في المدن، والقبائل المُحارِبَة في الصحراء.

أما نشأة فئة "الزوايا" بالصيغة التي استقرت عليها، فنفترض أنها تعود إلى التقلبات السياسية والاقتصادية التي أدت في النهاية إلى ذوبان الفوارق بين شرائح "المجتمع المدني"، فعندما فقد الفقهاء مكانتهم السياسية تحولوا شيئا فشيئا إلى تجار متعلمين، ومع تحول المسالك التجارية وتراجع مكانة المدن التجارية، تحول "التجار المتعلمون" تدريجيا إلى مسيري قوافل متعلمين، أي أنهم أصبحوا من "أهل الزاوية".

ويُرجع الأستاذ ولد عبد الله[108] الربط بين صنهاجة والزوايا إلى الروايات المحلية الواقعة –تحت وهم الاستمرارية التاريخية– معتبرة الزوايا هيئة اجتماعية دينية نشأت في أواخر عهد المرابطين، بأمر من أبي بكر بن عمر في السياق الآنف الذكر، ثم يقول إن الأوروبيين ذهبوا تحت تأثير وهم آخر هو مبدأ الصراع الأزلي بين "العرب" و"البربر" إلى فكرة الربط بين الزوايا وصنهاجة، وأضافوا إليها روايات حول " شَرَّبَبَّة " ليخلصوا إلى نتيجة مؤداها أن "الزوايا" هم البربر المسالمون المنتجون في مواجهة العرب الكسالى المخربين....

وبغض النظر عن هذا الرأي وعن غيره من طروحات السوسيولوجيا الاستعمارية، فقد خلص بعض الباحثين إلى أن

تقسيم المجتمع عموما إلى فئة مسالمة (الزوايا) وفئة محاربة (حسان) وتليها فئات (الأتباع: اللحمة – أزناكه، الموالي، ثم العبيد) إلى جانب فئات الحرفيين التي تعيش مع هامش الزوايا وفئة الموسيقيين، في مضارب حسان، خلصوا إلى أن هذا التقسيم لا يعبر عن واقع عيني بقدر ما يعبر عن تصور معين له وظيفة إيديولوجية، ويقوم هذا الرأي على على اعتبار "الزوايا" و"حسان" جناحين لفئة واحدة هي مجموعة السادة، أرباب السيف والقلم، ولذلك فالملاحظ لهذا الواقع يجد نفسه أمام تقسيم ثنائي، لا ثلاثي، إذ تصبح هناك –في الحقيقة– فئتان فقط: فئة السادة وجناحاها الزوايا – حسان، وفئة الأتباع وتضم: آزناكه والموالي والعبيد، أما الصناع الحرفيون والموسيقيون، فتعيش أولا هما على هامش الزوايا والأخرى على هامش حسّان[109].

وبغض النظر عن هذا النقاش المثير للجدل، فإن المهم هنا هو التوكيد على أن فئة قبائل الزوايا كانت هي التي تحتضن الخطط الدينية وتشكل جماعة الحل والعقد، أما القبائل المُحارِبَة فكانت ذات نموذج عسكري – سياسي ذي قيادة فردية في الغالب، وقد كانت كل قبيلة زاوية تحوي جماعة حل وعقد، لأن ذلك هو شأن المجتمع الديني– الثقافي. وكانت التشكيلات الصوفية من معاقله الحصينة.

3- الطرق الصوفية: هي الزوايا الصوفية بالمدلول السائد في بلاد الاسلام، لكنها في الصحراء، تكون أحيانا، متنقلة، مع أنها من الناحية المبدئية، ذات مقر معلوم. وقد عرفت البلاد ثلاثة أنماط من الروافد الصوفية هي، حسب تاريخ ورودها على الإقليم[110]:

1-3 الشاذلية: نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (ت.939هـ/ 1532م) وكان ظهر في مصر، وبرز من مريديه في المغرب" شيخ المحققين" أحمد زروق (963هـ/1493م) ثم محمد بن ناصر الدرعي (1036هـ/1626م)، وبهذين الشيخين تمر السلسلة الصوفية في موريتانيا.

2-3 القادرية: تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد (ت561 هـ/1167م). وقد انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي، وتفرعت منها فروع كثيرة استقلت بأسمائها. وقد انتقلت القادرية إلى الصحراء حسب الرواية المحلية، عبر سند محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي (940هـ/1533م) وعنه أخذ، كما تقول الرواية، سيد اعْمَرْ الشيخ سيد أحمد البَكَّايْ بن محمد الكُنْتي (ت 959هـ/1552م)، وتعرف القادرية الكُنْتية بالمختارية نسبة للشيخ المختار الكُنْتي الكبير (ت 1226م) كما تعرف بالبكائية نسبة إلى حفيده سيد أحمد البَكَّايْ الكُنْتي

(ت.920هـ) كما توجد أيضا القادرية الفاضلية نسبة إلى الشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين القلقمي (ت.1281هـ/1879م)، وانتشرت على نحو غير مسبوق عبر أبنائه وأحفاده، الشيخ ماء العينين، الشيخ سعد أبيه، الشيخ التراد... وتلاميذهم من مختلف القبائل.

3-3 **التيجانية**: أحدث الطرق السائدة في المجال الموريتاني نشأة وأوسعها انتشارا في بلاد السودان الغربي، وهي تنتسب إلى سيد أحمد بن محمد سالم التيجاني نزيل فاس (1150هـ/1230م)، وقد تلقاها عنه عدد من مشائخ البلاد من أشهرهم الشيخ محمد الحافظ بن الحبيب العلوي[111] وآخرين من أهل وادان وأهل شنقيط، وتيشيت وغيرهم.

3-4 **الغظفية**: وهي طريقة صوفية شاذلية، أول مشائخها الشيخ محمد الأغظف ابن حمى الله بن سالم الداودي الجعفري (ت.1218هـ)، وعنه أخذها الشيخ المختار بن الطالب أعمر البُصَادي (ت. ق13هـ)، وعنه تلقاها ابن عمه الشيخ سيد أحمد بن عُمار البُصادي (ت.1297هـ/1880م)، ولقبه الشيخ الغُظْف ونُسبت له الطريقة فعُرِفت بـ الغُظْفيَّة، وتسلسلت قيادتها في بنيه وأَحفاده: الشيخ محمد محمود الملقب الخلف (ت.1323هـ)، الشيخ الغزواني بن الشيخ محمد محمود. وكلهم من بطن أولاد أبي ياحم من قبيلة البُصاديين، ويُعرفون في النطق الدارج "إدوِبُسَات".

والحق أن الطريقة الغظفية كانت مؤسسة أهلية محكمة التنظيم، جمعت بين التربية الزهدية الشعبية، والنظام الإنتاجي والتجاري المحكم، إلى جانب الدور السياسي والاجتماعي الهادي الرصين. وهي طريقة محكمة التنظيم موريتانية المنشأ، وكان لها دور في القرن العشرين الميلادي، في مقاومة الاستعمار الفرنسي.

وقد حاولت السوسيولوجيا الاستعمارية الفرنسية تشويه الطريقة الغظفيّة، لدورها الفعال في تنظيم عملية مقتل الاستعماري كوبولاني Copolani(x) سنة 1905م، حيث وجّه الشيخ الغزواني البُصَادي جماعة المجاهدين من قبيلة إدَيشلّي، بقيادة الشريف سيد بن مولاي الزين إلى تنفيذ العملية[112].

وقد كان قادة الطريقة الغظفية هم أول من قاد الهجرة عن دار الحرب، رفضا للبقاء في ظل المستعمر. وقد مثّل خروج ركب الطريقة الغُظفيّة أعظم تحدٍّ للسلطة الاستعمارية وأكبر باعث على الهجرة والجهاد. فقد خرج ركب يضم 600 رجل ترافقهم عائلاتهم، من قبائل زاوية معروفة مثل: قبيلة البُصَاديِّين التي ينتمي إليها قادة الطريقة والركب، وقبيلة القلاقمة، وقبيلة تاكّاط، تجكانت.... وكان الركب بقيادة الشيخ محمد الأمين بن زيني القلقمي وكان تلميذا للشيخ البُصَادي[113]. وقد انطلق الركب من

بلاد الحوض، في شرقي البلاد سنة 1908م ماراً عبر الصحراء صوب ليبيا ثم الأردن وتركيا[114].

وتذكُر المصادر الليبية[115] أن: "الشيخ الشريف محمد الأمين الشنقيطي قدم إلى سبْها من موريتانيا سنة 1911. بصحبة عدد كبير من الأتباع أي التلاميذ، وعند مقدمه إلى سبْها استقبله سكان بلدة الجديد بالابتهاج والترحاب، فآووه وبجّلوه وأكرموه وأقام في ضيافتهم مدة من الزمن.

... كان رحمه الله شيخا وقورا وعالما جليلا، مربيا صوفيا روحيا، صاحب أوراد وتسابيح، ومن طريقته أنه كان ينفّر الناس من شرب الدخان، وينصحهم بعدم الأكل مع من يتناولها، له مؤلفات أغلبها في التصوف والوعظ والإرشاد على شكل نظم... وفي السنة التالية من مقدمه أي سنة 1912م التحق بالجهاد مع الليبيين وشارك معهم في معارك سواني بن يادم، وقد اشترك برأيه في خطة حركة تسيير الجهاد، وكان يرى أن لابد من تأسيس بيت مال لصالح الجهاد، إذا ما أريد الصمود والاستمرار ضد العدو، ولما لم يعمل برأيه سافر إلى تركيا وبعض أتباعه.. واستقروا بها بمنطقة (أوضنة قوزان).. توفي رحمه الله سنة 1949م بتركيا ودفن بنفس المنطقة..".

وقد بقي أبناء الطريقة الغظفية في تركيا، واشتهرت عائلاتهم، واشتهرت بين الأتراك باسم "محلة قزف"، وهو اسم تركي يعني "محلّة

القظف"، وصارت لهم مزارع واسعة ومشاركة في الوظائف العامة، واشتهر من بينهم عضو البرلمان التركي عن ولاية أضنة محمد بن محمد الأمين البُصَادِي المعروف في تركيا باسم "محمد كيمك"[116].

وبغض النظر عن تلك المؤسسات الطرقيّة، التي كانت جزءا مهما من المجتمع الأهلي، إلا أن البلاد لم تعرف هذه الزوايا الصوفية على نحو مبكر، بل إن التصوف الطرقي لم يظهر فعليا إلا في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي مع الشيخ المختار الكُنتي الكبير في "أزواد"، وكانت الحياة الروحية قبله قائمة على نوع من التصوف النظري "التأملي" أو ما يقوم مقامه من مختصرات "الرقائق" والمديح النبوي[117]. ويرجع ذلك إلى أنّ الخطاب الفقهي كان مسيطرا في الحياة الفكرية والدينية في حواضر الساحل، خلال عهد مملكة السُّنْغَايِ الاسلامية، بفعل تعاظم نفوذ الفقهاء، ووقوفهم بصرامة أمام كل النزعات الفكرية التي تخرج على خطاب المالكي النصاني ومتمّماته[118] وكان مدار الصلة بين أهالي الإقليم ورموز المشايخ في المشرق قائما على "التبرك"[119]، لذلك لم يؤثر عن أولئك الذين اتصلوا بأبي المكارم البكري (ق16م) أنهم تلقوا عنه أورادا أو وظائف صوفية محددة. واستمر هذا الحال إلى أوخر القرن العاشر الهجري/ (ق16)، لكن انهيار مملكة صونغاي وتفكّك عرى مؤسسة الفقهاء، وحاجة السادة الجدد من الرماة إلى مصدر لتشريع سلطتهم، عجل في تنامي النزعات الصوفية الطرقية

الأوليّة، ولاسيما بعد أن بدأ بعض الأعيان والمعلمين في الخروج على السنن الفقهي القديم وبرز من قادة هذا الاتجاه الجديد المسمى أبا عبدالله محمد بن محمد علي بن موسى الذي نزع العمامة، وهي شعار الفقهاء، فلقب بعد ذلك "عريان الرأس" كما أعلن نفسه وليا مكاشفا"، فخرج على التقليد القديم نهائيا(120). ووصل التميز ذروته عندما خرق عريان الرأس قاعدة "الحجاب" التى كان يقننون بها علاقاتهم مع الناس، واتصل بالعامة، وفتح بابه لأهل المخزن من الباشوات وغيرهم من العربان المسافرين (121). ولم يأت القرن الثاني عشر الهجري/ (18م) إلا وقد تبلورت نواة الزاوية الكُنتية المُختاريّة في أزوَاد (أقصى المجال الشرقي لبلاد البيضان)، وهي الزاوية التي سنركز عليها أكثر من غيرها، في القسم الموالي من هذا العمل، نظرا لدورها المركزي، في بناء سلطة أهلية خارج المدن، وفي مواجهة المجموعات الحسّانيّة، ودورها كذلك في خلق توازن أهلي بين القوى المُحارِبَة والزاويّة، وبين هذه معا والكيانات الدولوية الإقليمية، مثل سلطة الرماة في تُنبكتُو وأحوازها. وسنكتفي هنا بالتركيز على أصولها الصوفية ثم على الإطار العام لتكوينها في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني عشر.

تقُص الرواية الكُنْتية -الشائعة- أنّ سيد اعْمَرْ الشيخ (ولد حوالي 1460م وتوفي 958هـ أو 960هـ/52-1553م)، كان أول من جاء بالورد القادري إلى كُنتَة. وأوفى ترجمة له هي تلك التي عقدها الشيخ سيد المختار الكُنتي (ت.1226هـ) في مصنّفه المشهور

"المنّة في اعتقاد أهل السنة" ويسمّى أيضا "الإرشاد". وفيه جاء ما نصه [122]: "من أولياء الله تعالى المشهورين بالعلم والولاية... جدّنا سيد اعْمَرْ الملقب بالشيخ، تواتر عنه أنه حفظ، قبل الكهولة، ألف مجلد في جميع الفنون (ألف ورقة في الاصطلاح القديم)، وأنه ذهب إلى المغرب الجواني من المغرب الأقصى لطلب الإفادة، فطاف جميع بلاد المغرب، فلم يجد من يفيده في مسألة من جميع فنون العلم، ثم عمل الرحلة إلى بلاد الشام.. ثم حج ورجع إلى المغرب، ثم جال في بلاد التكرور حتى لقي الشيخ الجليل، القطب الكامل سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي.. فلازمه ثلاثين سنة ثم توجها إلى المشرق...". واستطرد الشيخ المختار الكُنْتي أخبار رحلة المغيلي واعْمَرْ الشيخ، ومرورهما ببرقة وصراعهما مع أعرابها، ثم ما كان من صلتهما بالسيوطي في حديث مسهب.

إنّ هذه الرواية الواردة في الإرشاد، والتي نقلها أيضا الشيخ سيد محمد الخليفة الكُنْتي في الطرائف، تقدم المغيلي كما لو كان أول شيخ للقادرية في البلاد الموريتانية، فهل كان المغيلي قادريا بالفعل؟!

عند الرجوع إلى فهرس شيوخ المغيلي، ضمن كناش يحوي أحزابه وأوراده، يتضح بجلاء أنه لم يكن منتميا إلى القادرية، بل كان شاذلي الطريقة بشكل لا مراء فيه. نبهنا إلى ذلك الأستاذ محمد بن مولود بن داداه (الشنافي)، إذ أكد أنه عندما طالع كناش

المغيلي المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس، لم يجد لغير الأحزاب والأوراد الشاذلية ذكرا. وتوجد نسخة فريدة -حسب علمنا- من كنـاش المغيلي هذا ضمن محفوظات مكتبة آل الشيخ سيـديا (في أبوتلميت-موريتانيا)، نبـه إلى ذلك **لـماسينيون**، وأورده استطرادا "لريش"[123]. إلا أن الرحلة المذكورة وسياقها العام مقبول بالمقارنة مع الإشارات التي تقدمها مصادر تلك الفترة حول انقطاع سبيل الحاج، ولاسيما عبر صحراء برقة التي ذكر مؤلفا الإرشاد والطرائف أن المغيلي وسيد اعْمَرْ الشيخ مرا بها حاجّين وبها داهمهما خطر الأعراب.

ذلك أن إقليم برقة (بليبيا حاليا)، عرفت منذ نهاية القرن التاسع الهجري، وبداية تاليه الموافقين للقرنين الميلاديين 15و16 نشاطا متزايدا لبعض القبائل الهلالية التي أصبحت تعرض للقوافل السابلة، بما فيها ركاب الحاج -تؤكد ذلك شهادة حسن الوزان اليو الإفريقي) في حديثه عن الأعراب الذين يسكنون الصحاري الواقعة بين بلاد البربر ومصر[124].

أما الصلة الطرقية والفكرية عموما، بين المغيلي والسيوطي، فممكنة بحكم المنزع الصوفي الواحد، وهو الطريقة الشاذلية، ثم بحكم المعاصرة والتي أفضت إلى مراسلات ومشاعرات بين الرجلين، لاسيما بعد أن صنف السيوطي في تحريم المنطق، ورد

عليه المغيلي بأبيات شعرية يتبع فيها -مع السيوطي- تحريمه للمنطق، بعد ان ألف فيه المغيلي رجزه المشهور والذي كان رائجا في المدارس الصحراوية السودانية[125].

ومن وجه آخر لايمكن التعويل على إشارة الطرائف إلى مدينة مصراتة (على الساحل الليبي حاليا) بوصفها المصر الذي كان يقطنه السيوطي حسب الرواية، وانتقل إليه للقاء المعنيين حسب الرواية أيضا. وذلك لأن أسفار الرجل معروفة دونها هو نفسه. وقد ظن بعض الباحثين أن للسيوطي رحلة إلى بلاد التكرور (غرب الصحراء وبلاد السودان)، ومرد ذلك إلى خطإ وقع فيه محققو بعض كتب السيوطي، عندما صحفوا جملة وردت في معرض إشارة الرجل بانتشار مؤلفاته، وهو قوله: "وشرعتُ في التصنيف سنة ست وستين، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب (...) **وسافَرَتْ** بحمد الله إلى بلاد الشام (...) **والتكرور**...". وقد قرأ محقق "**حسن المحاضرة**" كلمة سافرت بضم بضم التاء وصواب قرائتها (وسافرت) وفأعلى السفير ضمير مستتر عائد على مؤلفات السيوطي لا إليه هو نفسه[126].

والمهم في الأمر أن سند سيد اعْمَرْ الشيخ كان شاذليا فقط، أو أن سند حفيده الشيخ المختار الكبير، وهو السند القادري، قد اختلط، لدى الناسخين، بالأسانيد الشاذلية، لسيد اعْمَرْ الشيخ ثم لمشايخ كنتيين آخرين، سنتحدث عنهم [127]. لكن الزوية

الكُنتية بأزواد ظلت تنشر الورد القادري فقط، مع التوجهات وللأحزاب القادرية الأصلية أو تلك التي ألفها الشيخ سيد المختار وابنه وخليفته الشيخ سيد محمد الخليفة، وانتقلت عنهما إلى تلاميذهما في الإقليم، تعود إلى عهود تكامل كُنتَة في "أزواد" قادمين من الشمال، إلى فترات الجدب والقحوط في النطاق الشمالي للصحراء، أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ (18م). وتقول الرواية الواردة في **الغلاوية** عن ذلك كان أعوام مجاعة تسمى كُنكَافَة أي سنة 1130هـ.

مع أننا نرجّح أن الوجود الكُنتي في الإقليم (أزواد) أسبق من ذلك بكثير. حيث تشير "تذكرة النسيان" إلى جد للشيخ سيد المختار، هو أبو بكر الملقب الصديق، فيما نصه: "فعلى إثر معركة نشبت في19 مارس 1720م، بين كابارا وتُنبُكتُو– بين قوات الباشا باحدو، من تُنبُكتُو وبين قوات الرماة والطوارق التابعة للقائد منصور، فقد تعرضت جماعة باحدو لخسائر عديدة في الأرواح. وبما أن العدو لايزال يحتل الموقع، فلم يكن لدى السكان القدرة على المخاطرة بأنفسهم للذهاب إلى المعركة دون التعرض لأخطار جسيمة. لذا قصد الناس سيد (أبوبكر)الصديق الكُنتي، وسألوه أن ينقل إلى تُنبُكتُو الجثث المتناثرة على الطريق..."(128).

ومنذ هذه الفترة سيبدأ الدور السياسي الخطير، والمتصاعد واللامع للراوية الكُنتية بأزواد، وللشيخ سيد المختار الكُنتي الكبير وعائلته.

يفهم من كتاب "الطرائف والتلائد" الحياة العامة للزاوية ونظامها الأساسي. كانت الزاوية المختارية في أزواد، مستقرة في بئر "**أبو المرخان**"، سيُسمى "**أبا الأنوار**"، بعد دفن الشيخ سيد المختار بالقرب منه، وقد تنتقل للبحث عن موارد رعوية لبهائم الزاوية أو بفعل ظروف خاصة، كالحروب والصراعات القبلية والتي قد تطال الأنعام، ولا سيما الإبل، في مسارحها البعيدة.

تعتمد الزاوية على مصادر اقتصادية شبه ثابتة: المواشي، حيث كان الشيخ سيد المختار يمتلك أعدادا كبيرة من الإبل، لها رعاة محددون يرأسهم قيم بمثابة الوكيل. وكذلك التجارة نحو السودان وبها يتم تموين الزاوية بما تحتاجه من الحبوب، ثم إن قبيلة كنتة، التي ينتمي إليها شيوخ الزاوية، كانت تحتكر منذ القديم بعض أصناف التجارة، وتسيطر على الممالح الكبرى مثل تغازة، ومملحة أجل... ينضاف إلى هذه المصادر مورد العطايا، والهبات الدورية غير المحددة في الزمان والمكان أو في الكم والكيف. وعلى الرغم من ذلك كان تلاميذ الزاوية يعانون، أحيانا، من شظف العيش بفعل الجوائح، أو لأسباب إستثنائية متعلقة بالتموين. تؤدى الشعائر الدينية في احترام ووقار من خلال الشيخ أو من ينوبه، وإن كان الشيخ سيد المختار ظل حتى أيامه الأخيرة -حسب رواية الشيخ سيديا الكبير التي نقلها هارون، ينتقل رغم تقدم سنه، إلى المُصَلّى ليؤم الناس[129].

وكانت الحياة الثقافية متألقة، لاسيما في عهد الشيخ الكبير وابنه، خليفته سيد محمد[130]. وتحوز الزاوية مكتبة ضخمة تتجدد رفوفها بالإهداءات ونساخة الكتب من قبل التلاميذ، فضلا عن الشراء والعطايا الواردة حتى من خارج البلاد مثل مصر والمغرب[131]. أما الحياة الاجتماعية فقد كانت تعبر عن تطور للزاوية، على صعيد العناصر البشرية ونظام الحياة اليومية، حيث وجدت مجموعات كثيرة من تلاميذ الغربة (أو المؤبدين) القادمين من بعيد، وكانت نفقتهم تقع على الشيخ وأسرته. كما توجد عائلات وأفراد من قبائل شتى، أغلبها من الطلبة أو المساكين أو الأتباع أو من هذا جميعه[132]. وكانت الحياة العامة في الزاوية مطبوعة بالسلوك الديني والأخلاقي الصارم، كما هو الشأن في كبريات المدن الصحراوية، وبين الأحياء القبلية الزاوية الملتزمة. وقد مكن المركز الممتاز للزاوية شيخها، سيد المختار الكبير من مباشرة التوسط في النزاعات القبلية الكبرى، في إقليم شمالي ضفة نهر النيجر، بين التوارق وغرب البرابيش، وبين التوارق وسلطنة الرماة، وبين الرماة أنفسهم، وبين التوارق والقبائل العربية في المجال المصاقب لأزواد مثل أولاد داوود، وغيرهم.

كما تدخلت الزاوية في الصراعات القبلية الدامية بين أولاد الناصر وأولاد بل، ثم بين أولاد امبارك وادوعيش، وبين هؤلاء وتلك القبائل بأجمعها، وكذلك بين قبائل الحوض وقبائل "الساحل"

الشمالية: أولاد ادليم وغيرهم. وقد استمر هذا النهج على يد الشيخ سيد محمد الخليفة (ت 1242) وخلفائه قبل أن ينهي حفيده سيد أحمد البكّاي طابع الحياد عن الزاوية الكُنتية بإعلانه الحرب على التيجانية العمرية، مفتتحا بذلك فصلا جديدا من تاريخ النظم الأهلية في إقليم "الساحل".

1– المدن: يطرح مفهوم المدينة في الصحراء عدة إشكالات، بعضها جزء من النقاش حول المدينة الإسلامية عموما[131]، وبعضها الآخر وثيق الصلة بحقيقة "الحاضرة الصحراوية"، وكونها مدينة بالمعنى التاريخي والحضري، أو هي مجرد تجمع بشري يحمل خصائص الاجتماع البدوي رغم استقراره.

ومهما يكن، فإن الحواضر الصحراوية نشأت بفعل العوامل التجارية والثقافية والدينية، ولذلك كان تأسيسها وثيق الارتباط بالمجموعات الدينية وفي مقدمتها الزوايا، لأنهم هم المجموعة القبلية المختصة في الخطط الدينية والثقافية في المجتمع الصحرواي والناشطة في حقل التجارة.

سنركز هنا على نشأة المدن وتطورها العام، وروافدها الثقافية والحضارية، مع التزام الترتيب حسب أقدمية المدينة.

1–1 ولاتة (وَلاتا): الحاضرة العتيقة الواقعة في أقصى "**جنوب الشرق الموريتاني الحالي**" (ضمن ولاية الحوض الشرقي). وقد

تأسست في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وهي من كبريات حواضر الإسلام والثقافة العربية، في غرب الصحراء والسودان، ثم صارت منذ القرن التاسع الهجري، **دار علم لا مثيل لها في البلاد**، وهي كذلك مركز تجارة قديم، ظل مزدهرا قرونا، واسمها الأول بير، وقد أطلقه عليها السوننكه (أو: البامبرا)، وهو في لغتهم السودانية: المدخل، حيث كانوا يقولون: بير بافه، أي مدخل المدينة. وإذا أضافوا المصر إلى سكّانه، قالوا "بير كُو" أي سكان ولاتة (وَلاتَا)[134]. وأقدم إشارة إلى هذه التسمية ذكر السعدي، في سياق حديثه عن ازدهار تنبكتو على حساب بير (ولاتة (وَلاتَا))، بعد أن كانت هذه هي المزدهرة تجاريا وعمرانيا، فقال: "فكانت عمارة تنبكتو خراب بير".

أما الاسم الحالي: **ولاتة (وَلاتَا)**، فهو في نظرنا النطق "العربي الحسّاني"، للاسم الصنهاجي: إيولاتن. وكان أطلقه على المدينة بطن من مسوفة لعله أول من قطنها من البيض"[135]. ومعناه "سفح الجبل" في لغة التوارق وهي فرع من الصنهاجية.

التاريخ القديم لولاتة (وَلاتَا)، موغل في القدم، ولذلك فإن الحقائق بشأنه قليلة. فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى بني إسرائيل[136]. قبل الإسلام، أي خلال القرنين 6 و7 للميلاد[137]. وخلال القرن الخامس الهجري/ (ق 11م)، سيطر المرابطون على غانة، وأضحت مدينة ولاتة (وَلاتَا) القرية الصغرى أنذاك خاضعة لنفوذهم.

وفي القرن السادس الهجري/ (ق 12م) سقطت مملكة غانا في أيدي الصوصو 1203م، مما اضطر المسلمين، بقيادة الشيخ اسماعيل، إلى اللجوء إلى المدينة ليعيدوا تأسيسها على نحو فعلي حدود 1224م، بوصفها حاضرة إسلامية كبرى ومحطة متقدمة على طريق التجارة بين المغرب والسودان. وبذلك ورثت ولاتة (وَلاتا) الدور التاريخي لمدينة كومب الصالح عاصمة مملكة غانة حسبما تذكر الروايات الشائعة[138]. وعلى الرغم من أن تأسيس تُنبكتُو خلال هذا العهد قد جذب القوافل والمواد التجارية، إلا ان ذلك كان متدرجا ولم يكتمل إلا في قرون. وخلال هذه الفترة، ظل الدور التجاري الولاتي في تصاعد، مما جذب إليها التجار من كل حدب وصوب، كما هو شأن شركة "الإخوة المقري"، في القرن الرابع عشر الميلادي. والتي أسسها خمسة رجال من عائلة المقري الشهيرة، وهذا في المدن الرئيسية، ولاتة (وَلاتا)، وسجلماسة، وتلمسان، عدة وكالات تجارية يرأس كل منهم إحداها مع مراقبة دقيقة للاسعار وتنسيق محكم لسير القوافل من خلال تأمينها وحفر الآبار في طريقها في مشاركة سياسية مع ملوك مالي في هذه الفترة[139].

وقد كانت هذه الشركة المتطورة، بمقاييس ذلك العصر، محل حديث مسهب من ابن الخطيب والمقري، ويُعتبر حديثهما عن هذه الشركة وعلاقتها بولاتة (وَلاتا) من أهم ما وصلنا عن هذه الحاضرة،

في ذلك العهد، وأكثره دقة ووضوحا. وخلال هذا العهد طغى العنصران المسوفي والتوارقي على المدينة، مما جعلها تسمى "إيولاتن" (سفح الجبل) باللسان الصنهاجي مدة طويلة نسبيا.

وفي نفس الفترة خلال سنة753هـ/ 1352م، مر بها ابن بطوطة في قافلة مغربية تقصد تُنْبُكْتُو، ويؤكد وصفه للمدينة على تبعتها السياسية لمملكة مالي، وأهميتها التجارية بالنسبة لمحور تُنْبُكْتُو – النيجر[140]. وفي القرن الخامس عشر الميلادي، أي سنة 847هـ/ 1443م، كان التوارق بقيادة رئيسهم "أكَلْ"[141]، يستولون على ولاتة (وَلاتَا) بعد سيطرتهم على تُنبُكْتُو و"ودان"[142]. وفي سنة 1468م، كانت بئر "ولاتَة (وَلاتَا)" ملجأ لعلماء صنهاجة الذين طاردهم "سنى علي" ملك السُنْغَايْ القاسي[143]. و كانت ولاتَة (وَلاتَا) سنة 885هـ/1480م ضحية لهجوم آخر أشد قسوة من قبل ملك الموسّي وجيوشه القادمة من حوض النيجر، وقد نهبو المدينة وأسروا كل الذراري وقفلوا راجعين، قبل أن يستبسل سكان ولاتَة (وَلاتَا) في الدفاع عن حريمهم حتى استخلصوهن من يد المغيرين الذين ارتدوا خائبين[144]. مع مطلع القرن العاشر الهجري (ق 16م)، كانت ولاتَة (وَلاتَا) مدينة غنية تصدّر إلى تُنْبُكْتُو ملح جبل الجِل الآتي عبر طريق تيشّيتْ. وتذكر المصادر البرتغالية خلال هذه الفترة، أن كل سكان المدينة مسلمون، ويخضعون لملكيْن أحدهما أبيض والآخر أسود، مع بقاء

المدينة في النطاق السياسي "السوداني"[145]. والأرجح أن ذلك يعود إلى استقلال كل عنصر من السكان بقائده والقيم على شؤونه.

أما في مطلع القرن العاشر الهجري (16م)، فإن شهادة الحسن الوزان (1506–1507) تؤكد على تدهور المدينة الاقتصادي، وتراجع أهميتها التجارية لصالح تُنبُكتُو، وكذا تعايش جماعات مختلفة فيها، بعضها ذات أصول سودانية تتحدث لغة السُّنْغَاي، والبعض الآخر من أصول العنصر المسوفي "التوارقي"، ويبدو ان الوضعية الثقافية والدينية قد تراجعت عما كانت عليه في عهد ابن بطوطة. ولذلك وصفها الحسن الوزان، قريبا من 1505-1506 بقوله: "لا يوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلا حاشية ولا قضاة، ويعيش القوم في بؤس شديد..."[146].

ويبدو أن هذا العهد من التاريخ ولاتَة (وَلاتَا)، هو الذي شهد قدوم سيد أحمد البكَّاي الكنتي (ت.920هـ/1514م)، صحبة جمع من تلاميذه. ورد ذلك في سياق مَنَاقِبِي[147] عريض ذكرته المصادر الكنتية المختلفة. استقر بعده البكَّاي في ولاتَة (وَلاتَا)، معلما ومربيا، ولكنه لم يلبث إلا سنوات قليلة حيث توفي سنة 920هـ/ 1514م. بعد أن أرسى، كما تقول الرواية، أول تقليد علمي عرفته المدينة، كما فرض الحجاب على نسائها، في إشارة، ربما كانت تعني مسُوفة وعناصر الملثمين عموما[148].

ولكن رواية قبيلة المَحاجيب تقول إن تأسيس المدينة يرجع إلى القرن الخامس الهجري بعد وفاة أبي بكر بن عمر الذي لم يبن بعده مسجد ولا مدينة "ثم قدم رجل يقال له يحي، وهو جد المحاجيب، أرض ولاتة وبها يهود ففتحها بالحكمة الإلهية فأسلم أهلها"[149]. والنص لا يجعل من قدوم يحي لحظة تأسيسة للمدينة فقط، بل بداية إسلامها أيضا[150]. ولذلك فعنصر الشرعية التاريخية حاضر وبقوة في النص. وهو مجرد جزء من أدبيات وتواريخ قبيلة المحاجيب التي تؤكد أقدمية المدينة وتأسيسها لها بعد سكانها الأولين الباندين.

يسرد الطالب أبوبكر المحجوبي أحد أعيان ولاتة، وهو من قبيلة المحاجيب، رواية مشابهة، عن جده يحي ويسميه هنا يحي الكامل: "قدم أرض ولاتة ومعه ابنه محمد وأخرجا منها أهلها بالقهر الرباني والفتح الصمداني، فكانت أرضا لهما وبنيهما بعدهما". ويقول أيضا إن جده جاء في القرن الثاني الهجري، وأن المدينة تأسست قبل الإسلام. مما يدل على أن ولاتة كانت سابقة على قدوم المحاجيب وأنها تأسست قبل ذلك، وبذلك فإن توطن مجموعات أخرى في المدينة لاحقا، قد دفعها إلى إنتاج خطاب آخر لشرعنة مكانتها وسلطتها داخل ولاتة، وأن جد المحاجيب إنما قام بفتح رمزي للمدينة حسب عبارة رحال بوبريك[151].

ويمدنا نص مقتطف من كتاب "مطرب العباد" المفقود، بمعلومات تاريخية، أي واقعية قابلة للقياس والمقارنة، عن تأسيس ولاتة، بوصفه

جزءا من الحياة العادية للظواعن والرحل الصحراويين في تلك المجالات: "أول من سكن مدينة ولاتة هم بني القاضي، اثم ادَيَلْبَ وهم في الأصل بدو يعيشون في المجال الذي بنيت فيه ولاتة لاحقا. لقد احتلوا مخزنا يجمعون فيه بضائعهم وخيامهم وأدواتهم وحاجيات متنوعة ومواد أخرى. والذين بنوا المخزن هم أبناء القاضي أي المحاجيب وهذا ما يفسر أنهم أسياد المدينة"(152). وبعد هذا التقري التحقت بهم قبائل أخرى وساهمت في تطور المدينة: إيديلب، الأغلال، بارتيل، الشرفاء، وكل قبيلة سكنت حيا استقلت به وسمي بها.

ومجموعة بني القاضي "أولاد القاضي" كانوا هم أول من قطن المدينة بدليل رواية العالم الثقة **أبّ بن أنا الولاتي** عن أنه أدرك نخلات تسمى نخلات أبناء القاضي ولعلها هي ذكرها ابن بطوطة بقوله "وبها يسير نُخيلات".

ومهما يكن، فنسبة المحاجيب إلى بني القاضي الذين هم من ذرية القاضي عثمان المسوفي الذي لقيه ابن بطوطة في ولاتة، لا يعني أن كل القبيلة تنحدر من نفس الجد، بدليل وجود مجموعات أخرى دخلت في عدادهم : الإمامات، آل أند أعلي، وكان ذكرها الشاعر الولاتي محمد بن مسلم الديشفي الجكني في قصيدته الآتية في مدح المحاجيب، حيث فصّل في شجراتهم وتاريخ اجتماعهم

وصفاتهم.. وهو ما اعتمده ابن حامد عن تاريخ المحاجيب. كما يفسر ذلك التشابك في الأصول تاريخ المحاجيب الغامض، ويدل على أن المحاجيب هم تركيبة توافدت على المدينة في تواريخ مختلفة، أولها مجموعة مسوفية من ذرية القاضي عثمان، وتلتها مجموعة الإمامات من ذرية سعيد بن العاص، ثم مجموعة آل اند اعلي من ذرية محمد بن الحنفية. ولكل مجموعة نسبها ومهجرها.

يقول الشاعر:

وهم قد تكنوا بالمحاجيب جُمْلة من   العالم المحجوب والعالم الصدر

ولاتة (ولاتا) في ظل القبائل الحسانية

عرفت بلاد الحوض، بما فيها مدينة ولاتة (ولاتا)، حضور بني حسان على نحو متدرج، في موجات متوالية. ولذلك كان الصراع على أشده بين القوى القديمة والوافدة وبين هذه الأخيرة نفسها. ومن أقدم هذه الموجات الحسانية مجموعة أولاد يونس[153] التي استقرت في ولاتة (ولاتا) منذ عهد مبكر ودخلت في حروب دامية مع المجموعات المقيمة وتلك الوافدة، سعيا إلى التحكم في الإتاوات المفروضة على السكان وإلى تكريس السيطرة على المدينة.

لقد وفد أولاد يونس إلى شمال الحوض منذ القرن 9هـ/15م، واستقروا في الحيز الغربي من الإقليم الواقعة غرب ولاتة (ولاتا).

ودخلوا في صراعات مع سكانها من البيض والسود، ثم قاموا بتخريب مدينة تازّخْتْ الشهيرة لأسباب لم تذكرها المصادر. لكن رواية العالم الثقة **أبّ بن أنّا الولاتي**[154] تجعل سبب خراب تازّخت راجعا إلى حادثة قتل صيّاد تازختي لفتاة من أولاد يونس، فحاصر هؤلاء المدينة حتى أشرف سكانها على الهلاك، واحتالوا على المُحاصِرين بتعليف ثور بالحبوب حتى شبع، ثم أطلقوه خارج السور وذبحه أولاد يونس، وحين لقوا جوفه مليئا علفا تيقنوا عدم جدوى البقاء وفكوا الحصار، ثم عادوا بعد مدة لينقضوا على المدينة نهائيا. وقد خرج من تازخت مائة رجل من أعيانها بعضهم من العلماء[155] محتمين برئيس ولاتة (ولَاتَا) اعلي أسْرِ بن الفاروق المحجوبي الذي أمنهم لدى رئيس أولاد يونس. ويذكر البرتلي[156] أن العالم الولاتي الوافي بن محمد بن شمس الدين الغلاوي (تـ1040-1045هـ) سكن بتازخت عشرين سنة قبل خرابها.

ويرى نفس الزاوية أن سكان تازخت كانوا من قبائل ماسينة "ماسينا" المعروفة في تيشيت، لكننا نعتقد أن سكانها كانوا خليطا من المجموعات الصنهاجية من قبائل مسُّوفة، ولا سيما قبائل: إدَرْ أمْشَاكَة[157]، بني ينصر "كل انصر"[158]، وغيرها من التشكيلات المسوفية التي عمرت مدن القوافل وأسست معظمها، حسب الرواية الدقيقة لصالح بن عبد الوهاب الناصري (تـ1271هـ) والذي وُلد في ولاتة (ولَاتَا)، وسكن

بها مدة طويلة، وشاهد نقض تازخت، وسمع رواية هدمها من الثقات. لكننا نميل إلى أن السبب هو ما ذكره المؤرخ صالح عبد الوهاب الناصري، بهذا الخصوص، بما نصه[159]: "إن أولاد يونس هم الذين خربوا تازخت وتقول لها العامة تيزغت (...) وهي غربي ولاتة (وَلَاتَا) علي على نحو الميلين منها، وكانت قرية علم ودين إلا أنّ رؤساءها لهم مغرم على ولاتة (وَلَاتَا) وإضرار بأهلها حتى اضطروا إلى الجلاء منها إلى تُنْبُكْتُو. ولما خربها أولاد يونس دخل بعض أهلها ولاتة (وَلَاتَا) وصار في عداد المحاجيب رؤسائها. وأدركت منهم رجالا بها (...)، إلا أنهم انقرضوا في هذا العهد رحمهم الله تعالى. وقريتهم منذ خربها أولاد يونس شاخصة إلى الآن...". ثم يضيف ابن عبد الوهاب أنها إلى سنة 929هـ تاريخ وفاة الإمام الولي عبد الله عمر بن محمد أقيت التنبكتي بها كانت ماتزال حية. ويستدرك: "وهذا التاريخ يقتضي أنها عامرة" حسب قوله. لكننا نعتقد أن سكان تازخت كانوا من قبيلة ماسنة المسوفية ومن قبيلة إدر مشاكة المسوفية "التارقية" التي انزاحت شرقا نحو أزواد ربما بعد هدم المدينة.

وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر (ق 17) خضعت ولاتة (وَلَاتَا) لسيطرة مجموعة العروسيين القادمة من غرب البلاد أوائل القرن، وانتشرت في بلاد الحوض، فيما يبدو. ويُفهم من الروايات أنّ مهاجمي ولاتة (وَلَاتَا) كانوا الجناح الشرقي الأقصى للحملة العروسيّة. وكانت الحملة العروسيّة على ولاتة (وَلَاتَا) بقيادة شنان العروسي وأبنائه. وقام

شنّان ببناء "قصبة" (قلعة) خارج ولاتة (وَلاتا) –في إجراء عسكري احترازي على ما يبدو – وفرض على سكانها ضرائب باهظة، لم ينقذهم منها إلا تدخل أولاد يونس الذين هزموا شنّان وقومه في معركة حاسمة بعد مكيدة حبكوها بعناية. وقد لخص المؤرخ القدير محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي فصول هذا الصراع بقوله مانصه[160]: "**وكانت أرض ولاتة (وَلاتا) دار أولاد يونس في القديم ولذلك كثر سكانها منهم ومن أحلافهم، وقتلوا عندها شنّان بن ابراهيم لعروسي في سنة أربعين بعد الألف (...).**

وكان شنّان العروسي قد نزل على ولاتة (وَلاتا) بطائفته التي هو أمير عليها، وبنى قصبة على العين التي تسمى عين النخلة وهي شرقي القرية أكثر عيونها ماء، وجعل عليها حائطا يدوربها، وبها القصبة بحيث يأخذ العشر من أهل ولاتة (وَلاتا) حتى من قلال الماء الذي يشربون منه، ومن التراب البيضاء التي يفرشونها في بيوتهم، واسمها عندهم تراب مامر، ومن الحطب الذي يحتطبونه للطبخ والدفء، فضلا عن غير ذلك، وأضر بهم غاية الإضرار. فلما نزل أولاد يونس أرض ولاتة (ولاتا) أحتالوا بأن تفرقوا فرقتين متحاربتين ففرت إحداهما بعدما أظهروا من التحارب مع الأخرى إلى شنان، فأدخلهم معه في قصبته وصاروا من جيشه فلما غزتهم الفرقة الأخرى، خرج بفرقته إلى قتالهم، فلما تقاتلوا قطعت فرقتهم ظهور قومه فأنهزموا وقتل

لى يد رجل من أولاد يلوى أحلاف أولاد يونس في ذلك العهد (...) تفرق أصحابه وهدمت قصبته وحمل نقضها إلى ولاتة (وَلاتَا)...".

وكان من نتيجة المعركة أن كرّسَ أولاد يونس سلطانهم على لاتة (وَلاتَا) وعلى شرقي بلاد الحوض بينما سيطر أولاد بوفايدة على غربها. وبعد أن ضعف كيان أولاد يونس خلفهم أولاد زيد لاسيما بعد غلبهم على بني عمومتهم أولاد علوش، في معركة دامية، قرب بئر كاط سنة 1073هـ ثم لم تلبث القوى الحسّانيّة الأخرى أن توالى استقرارها لتدخل في معارك دامية، لم تنته إلا مع سيطرة أولاد امْبارك على الإقليم، لاسيما بعد معركة كساري سنة 1124هـ/1712م، على أولاد بو فائدة وأحلافهم من يادّاس والسودان[161]. وستصبح ولاتة (وَلاتَا)، منذ تلك الفترة، ضمن نفوذ أولاد امْبارك وإلى نهايتهم أواخر 1841، عهد صعود مشْظُوفْ الذين سيرثون السلطة على المدينة وأعوازها من عموم شرقي بلاد الحوض إلى مجيء الفرنسيين.

أصول السكان وتوزيع الخطط الدينية

يعتبر السود أقدم المجموعات التي قطنت مدينة ولاتة (وَلاتَا)، والظاهر أنهم كانوا من السوننكى[162]، ثم اختفوا في ظروف غامضة ويرجح أنها ترجع إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري (ق 17م)، بدليل ماذكره الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي[163] عن انتقال السودان عن ولاتة (وَلاتَا) بعد مضي مائة من السنين، على وفاة سيد

أحمد البكّاي (تـ 920هـ)، وكان سمّى المجموعة السودانية نفسها باسم "أسنَكيتن" فهل كان يعني المجموعة السوننكية، أم يقصد السُّنغاي، لاسيما وإن لغة هؤلاء كانت مستعملة في المدينة كما مرّ آنفا.

وبغض النظر عن هذا النقاش، فإن المهم بشأن سكان ولاتة (وَلاتَا)، هي المجموعات العربية ـ الصنهاجية المختلفة الأصول والمرجع، والتي أضحت منذ القرن العاشر الهجري/ (16م) على الأقل، تنتمي إلى مجتمع البيضان الناطق بالحسَّانيّة والمنتشر على الرقعة الترابية المنسوبة إليه، والتي صدرنا بذكرها هذا العمل. وأهم هذه المجموعات البيضانية هي على التوالي حسب أهميتها العددية ووزنها الثقافي والديني: المحاجيب، الشرفاء، إديلبه، شرفاء الأقلال، ثم المجموعات ذات الأصول الحسَّانيّة، والتي لم تكن مستقرة في المدينة بفعل الصراعات المختلفة، لكن آخرها وجودا واستقرارا هي مجموعة أولاد داوْد، التي ستقوم بدور مهم في تاريخ المدينة في عهد آخر.

– **المَحاجيب**: يُعتقد أنهم **أول** من سكن ولاتَة (وَلاتَا) من البيض[164] في تاريخ لانعرفه ضبطا. وقد جاء في حوليات توات (جنوبي غرب الجزائر)، أول ذكر للمحاجيب في أحواز هذه الواحة في حدود سنة 667هـ[163]. أما الرواية الشائعة عن أصول المحاجيب فلخصها ابن حامد بما نصه: "**.. يطلق هذا الاسم على ثلاث قبائل تظاهروا وتعاقدوا في ولاتَة (وَلاتَا)**، وهم: أولاد الفقيه عثمان بن محمد بن يحي بن ينومر (أو تنمرة)،

ثانيا: آل انداُعْلي ونسبهم إلى محمد بن الحنفية وهم أخوال المحاجيب وقضاتهم قديما، وأولهم قدوما على ولاتة (ولاتا) وتازخت ثم صاروا الى تُنبُكتُو.

ثالثا: الإمامات ونسبتهم إلى سعيد ابن العاص الصحابي وكانو يتولون إمامة الصلاة حتى انقرضوا. عاش هؤلاء البطون الثلاثة قرونا في ولاتة (ولاتا) وتازَّخت وقامت لهم هناك دولة علم ودين ودنيا، وكان منهم جميعا أئمة وعلماء مدرسون، وقضاة، ومفتون، ورؤساء مشهورون. وكان للمحاجيب عادات شريفة يحترمونها، منها أن نساءهم لايتزوجن من الأجانب ولا يخرجن من البيوت، بذلك سمي أولاد الفقيه عثمان بالمحاجيب، ثم أطلق الاسم على الجميع..(166).

ونعتقد أن أولاد الفقيه عثمان هم الأقدم، ولعلهم من ذرية الأسرة المسوفية التي لقي ابن بطوطة بعض رجالها من القضاة والمدرسين في "إيولاتن" سنة 752هـ تاريخ وصوله إليها وذكر منهم: القاضي محمد بن ينومر وأخاه المدرس يحي. وتذكر رواية العالم الولاتي "ابّا بن النّا" أنّه أدرك نخلا لأبناء القاضي، فهل هو القاضي المسوفي أم القاضي من آل "اند اعليه".

اما آل اند أعليّه فهم المعروفون محليا بـ"القظية" أي القضاة، ولعلهم هم المسمون "أولاد واعلي البلبالي" الذين وصلوا إلى الوات في القرن السادس.

أما المحاجيب فيذكرون، في روايتهم الخاصة أنهم ينحدرون من جدهم الأعلى يحي الكامل، المنتمي إلى سلالة الشرفاء البغداديين، وأنه كان معاصرا للشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة 651هـ[167]. كما تذكر هذه الرواية أن يحي الكامل مرّ باتوات وفيها ترك ابنه أحمد[168].

فهل يعني ذلك وجودا قديما للمحاجيب في تلك الواحة الصحراوية؟ لاسيما وقد مر بنا وجود ذكر لهم هناك في القرن السابع، لا نملك ما يسمح بالجواب عن مثل هذا السؤال، لكن الرواية نفسها تعزو لهذا الجد نشأة الحياة الفكرية والدينية في مدينة ولاتة (ولاتا) بينما تُرجع الرواية الكنتية هذا التأسيس إلى سيد أحمد البكّاي[169].

وعن ذلك يقول حفيده الشيخ سيد المختار الكنتي في كتابه الحافل الإرشاد (ويُسمى أيضا: المنّة في اعتقاد أهل السنة) ما نصه[170]: "حدثني الفقيه محمد بن عبد الله الولاتي، قال حدثه أبوه الفقيه محمد ابن الفقيه أحمد عن الفقيه أحمد عن جده سيد عبد الرحمن المحجوبي أنه تقطب وأخذ العلم عن القطب الكامل سيد أحمد البكّاي... "واستطرد" عزم البكّاي على متابعة الرحلة وكيف تعلق به المحاجيب في الإقامة وقبل بعد تردد وشرط عليهم شروطا منها أنه أمرهم بالحجاب ففعلوا، وأن لايدخل أحد بيت أحد إلا أن

كون مَحرَمًا فاستقاموا على السنة وأخذوا عليه العلوم....". وبغض النظر عن هذا النقاش العريض فإن جُلَّ التقاليد المكتوبة والمروية تجمع على أقدميتهم في المدينة، وسيطرتهم على مقاليد الأمور فيها، من خطط دينية (إمامة، قضاء..) وتحكمهم في المدينة، على الرغم من كونهم أحيانا –ربما لحنكتهم السياسية– يتنازلون عن "الرئاسة" جزئيا، وبشكل رمزي في الغالب لصالح إحدى طائفتي الشرفاء تُوات: أهل مولاي صالح وأهل مولاي اخليفه، وذلك بشكل دوري، مما جعلهم يتحكمون في اللعبة السياسية المَدِينيِّة، ويمسكون بخيط الرئاسة الفعلية فيها، والمتمثلة في الإمامة التي ظلوا يتوارثونها، ولا يسمحون لأي كان بالتصدر فيها، ولو ظرفيا، لقيمتها الدينية والسياسية، مما سيكون بذرة خلاف في المستقبل بينهم وبعض أعيان علماء المدينة. أما المجموعة التالية، للمحاجيب، من حيث الأهمية، فهي الشرفاء.

– **الشرفاء**: ويضم مشمول هذا الإصطلاح كل المجموعات الشريفية من بني سيد أحمد بن الحاج بن سيد حمو، وجمهورهم في ولاتة (أولاتا) والنعمة. وكانوا قدموا إلى هذه من تلك في سياق يأتي ذكره. وقد ورد ذكر سيد حُمُّ هذا في الوثيقة الملكية المغربية المعنونة "تقييد ما اشتمل عليه إقليم تُوات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى". جاء بعد ختم السلطان

الحسن (الأول) ما نصه: "ليعلم من نظر كتابنا هذا أعلى الله مناره وجعل في تلك.. والتوفيق مداره أننا ولينا مالكه إبن عمنا مولاي علي ابن اسماعيل العلوي المحمدي على إخواننا الشرفاء العلويين آل سيد حم بن الحاج الذين بإقليم توات" ثم جاء في صفحة أخرى ".. وفيها عدد كبير من الشرفاء العلويين المنحدرين من أصلاب ملوك المغرب..."(171).

وأهم شرفاء ولاتة (وَلَاتَا) من أبناء سيد حَمُّو. وسَيُسَلِّمهم المحاجيب الرئاسة بصورة رمزية تقديرا لمكانتهم للنسبة الشريفة، وسينقسمون قسمين: **أهل مولاي صالح، وأهل مولاي خليفة.**

- **إديلْبَهْ**: هم فرع من قبيلة تجكانت. ولاتصرح الرواية الولاتية بتاريخ قدوم إديلبه ولا من أين جاؤوا. وإن كان البعض رجح قدومهم من جهة الساقية الحمراء حيث بنو عمومتهم من الجواكين المعروفين بين آيت يوسي من قبيلة تكنه، حسب وايتكنب Whthcomb ويذكر أيضا أن أصلهم من تينيكيِ، تفرقو بعد خرابها ولجؤوا إلى ولاتة (وَلَاتَا)(172).

- **الأغلال (أو الأقلال)**: ومن أبرز القاطنين منهم بولاتة (وَلَاتَا) أولاد سيد بُبكّر، وهم شرفاء ينتسبون إلى الأغلال من جهة أمهم فاطمة بنت محمد غلّي. وبرز من بينهم أعلام من أمثال العالم

النوازلي محمد بن أبي بكر ابن الهاشم الغلاوي (1098هـ). إضافة إلى مجموعة أخرى من بطون أغلالية مختلفة. ويرجح أن يكون هؤلاء جميعا قدموا من تكانت ولعلهم جاؤوها قادمين من شنقيط، منطلق القبيلة الأصلي[173].

1-2- **تيشّيت:** تقع تيشّيت إلى الشرق من مدينة تجكجة من ولاية تكانت ضمن النطاق الشرقي من موريتانيا الحالية. تأسست تيشّيت سنة 536هـ/1142م، على يد الشريف عبد المومن. وكان تلميذا القاضي عياض(544هـ/1149م)، هو وزميله الحاج عثمان، ثم رحلا إلى الصحراء في ظروف غامضة. وليس هناك من تفسير لاسم المدينة يركن إليه، إلا أن بعض الباحثين يرجّحون أن يكون الاسم الأصلي للمدينة شيتو، وهي صيغة سودانية سونتكية، ثم أضاف إليها السكان المتهاجيون إضافة أخرى فأصبح الاسم تيشّيت[174].

ومهما يكن من أمر فإنّ أوّليّة تأسيس المدينة تعود إلى ما ذُكر، وأقدم من لخص هذه الرواية محمد ابن أحمد الصغير في كتابه "**إثارة المبهم في أخبار شرفاء تيشّيت وطلبتها بني محمد مسلم**"، وفيه جاء مانصه[175]: "أعلم أنه مما اشتهر أنه أول من بدأ في بناء تيشّيت الشريف عبد المومن بن صالح. ويقال إنه مر بموضعها قبل أن يبني فيه، فقدم على البناء فيه وموضعها أكم مرتفع عن الأرض. ومما يقال في خبر قدوم عبد المومن للبناء فيه، أنه ارتحل

عن شيخة القاضي أبي فضل عياض،حين كان يقرأ عليه، وارتحل معه صاحبه الحاج عثمان المشهور المدفون معه بمسجد تيشيّت في جهة الشمال، فصرفا إهتمامهما إلى التوجه نحو بلاد التكرور، فلما حلاّ فيها تفرّقا، فارتحل الحاج عثمان إلى بلاد آدرار، ونزل بها على جد الوتيدات وبني يعقوب من إدوالحاج، وصار عبد المومن إلى بلاد تيشيّت، وساكنوها يومئذ أهل أخصاص، على قدر فرسخ من جهة جنوب موضع القرية، فندب بعضهم إلى البناء، فلم يساعدوه لعجزهم عن ذلك قائلين: لم يبق من الدهر ما تبني فيه القرى. فارتحل عنهم إلى موضع القرية الذي هي به الآن، وكان أستصحب حين قدومه من له حرفة بالبناء وآلات البناء. فابتدأ بالبناء للمسجد، ثم أبتنى داره حذوه. ثم لما سمع الحاج عثمان بخبره ارتحل إليه فأقام معه.(...) ثم إن عبد المومن توفي وبقي نسله وبنوه بها إلى الآن. فهي دار سكنهم من القرى، لم يستوطنوا غيرها". ولم تلبث تيشيّت أن أصبحت منذ القرن العاشر الهجري/ ق16م، محطة متقدمة لمركز ملح "الجل" بين وادان وولاتة (ولاتا)[176]. وبالإضافة لبني عبد المومن، توالى قدوم المجموعات الأخرى. والمجموعات القاطنة بتيشيّت أربع مجموعات هي:[177]

ماسنة: وهم مجموعة بيضانية ذات أصول صنهاجية – سودانية مختلطة، الشرفاء: أبناء عبد المومن، والطلبة: أبناء محمد مسلم (أهل هند

سلم)، ثم أولاد بلّ (من بني حسان). وقد استقل كل عنصر من هذه العناصر بجهة خاصة من جهات المدينة: حسب النطق المحلي للجهات، في الجنوب: ماسنة، والشرفاء (أهل سيد شريف وشرفاء تيشّيت) يعرفون بـ"أهل الايزاء القبلي". أما في الشمال فقطن أهل محمد مسلم (طلبة تيشّيت)، ويعرفون بأهل "الإيزاء الساحلي"، أما جهة الشمال الشرقي فيقطنها أولاد بلّ وتسمى "التّل".. وتعود الأغلبية السكانية في تيشّيت إلى قبيلة ماسنة، التي يعود مقدمها –حسب الروايات المحلية– إلى تيشّيت انطلاقا من قرية ترنّي في جنوب الحوض[178]. أما الطلبة (أهل محمد مسلم) فهم ينتسبون إلى عقبة بن نافع الفهري، الجدّ الذي تنتسب إليه قبيلة كُنتَة وبعض إدوالحاج (بطن إدياقب) وتجكانت (بطن إديقوب) والمحاجيب[179].

وتذكر رواية أهل محمد مسلم أوّليّة قدوم جدِّهم على المدينة فتقول: "أعليم أنه فيما بلغنا من خبر مجيء محمد مسلم أولاد تيشّيت إنه لما جاء نزل على بني عبد المومن بتيشّيت، فطلبوا منه السكنى معهم، فأجابهم فيما طلبوا منه، ثم إنه طلب من بعضهم أن يزوجه ابنته فتزوج منها، فعاتبه الناس على ذلك وقالوا له: تزوج ابنتك من رجل لا تعرف نسبه؟ فقال لهم: إنما فعلت ذلك لأجل ما رأيت فيه من الدين، فأتت أم بني محمد مسلم الأولى شريفة، ثم بعد ذلك اختلطوا مع الشرفاء اختلاط اللحم والدم،

حتى أنه قلما يوجد شريف إلا أمه أو جدته من بني محمد مسلم، وقلما يوجد أحد من بني محمد مسلم إلا أمه أو جدته من الشرفاء. (...) (و) ظهر لي أن مجيء محمد مسلم لتيشيّت كان في أوائل المائة التاسعة (...) أو آخر المائة الثامنة (...)"[180].

أما أولاد بلّ فهم من آخر المجموعات الحسّانيّة التي توالى حكمها على المدينة، ذكر ذلك صاحب إنارة المبهم بقوله: "... وقد تداولت فيها قبائل شتى وبنوا كلهم وآخر دولة بها دولة أبناء بل بن داوود ابن محمد بن عثمان بن مغفر بن ودي بن حسان، وقد انقرضت في سنة سبع (...) وستين ومائتين وألف (1267هـ /1850م) انقرضت في حربهم بينهم..."[181]. ويعود قدوم أولاد بلّ إلى المدينة، إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري/ (18م) حيث دخلوا المدينة سنة (1195-1205هـ/ 1781-1790م). وأثناء تمركزهم هناك واجهوا الحملة الشهيرة التي نظمها ضدهم الشيخ سيد المختار الكنتي (1226هـ)، بتحالف مع أولاد الناصر ومشظوف، في معركة ضارية قرب "كنك لَمْدَن"(؟) ودارت فيها الدائرة على أولاد بلّ وحلفائهم من طلبة تيشيّت الذين وقفوا إلى إزائهم معنويا[182].

وفي بحر القرن التاسع عشر (1262-1267هـ/1845-1850م) وقعت الحرب بين ماسنة وأولاد بلّ داخل المدينة نفسها

تنتهي بخروج أولاد بلّ من تيشّيت ليؤسسوا قريتهم الخاصة غريجيت حوالي 1850م. وتذكر رواية إدوالحاج وجودا قديما لبعض بني عمومتهم في تيشّيت من ذرية الحاج عثمان زميل مؤسس المدينة، وتشير بهذا الخصوص إلى ذريته من أبناء المسمى بوزو بن واطبول[182]. ونرجح أن جده هو المذكور في (تاريخ السودان 169-170)، حيث جاء ذكر المسمى بوزو بن أحمد أدّ عثمان بوصفه أحد أعيان تيشّيت الذين قتلوا مع آخرين من أعيان المدن، ضحوة الأربعاء 24 محرم 1002هـ/1593م، من قبل الباشا محمود بن زرقون، عقابا لهم على تلكئهم عن البيعة للمنصور السعدي بعد غزو تنبكتو والسودان.

ولعل هذا الوجود القديم لإدوالحاج في تيشّيت، هو ما يعنيه الشيخ سيد محمد الكنتي بحديثه عن "..حرب ماسنة وإدوالحاج تيشّيت أزمان، كانوا تحت كنفهم حلفاء لقبيلة من ماسنة، فانهزموا وقتلت من إدوالحاج مقتلة عظيمة يزعم أهل تيشّيت أنهم طمّوا على أشلاء جماعة وافرة منهم بئرا بصفات عظيمة...". وعلى لرغم من أن الشيخ سيد محمد الخليفة عدل ونقل عن عُدول، إلا أنه دون هذه الرواية في ظروف خاصة (الحرب بين كنتَة وأهل سيد محمود (إدوالحاج))، ثم إنّ تاريخ هذه الحرب، غير معروف، وإن كان ورد في (فتح الشكور: 74) ضمن ترجمة أبي بكر بن أحمد بن ألفغ

(...) المسلمي التيشيتي إنه "ما قصّر الصلاة قط إلا فترة لأجل الإتيان بادوالحاج من انيوداش (قرب آوداغست بالحوض) لما أخرجهم أخيار انتاج الماسني من تيشّيت...". والفقرة التي أوردناها هنا في أصلها اضطراب ضمن النسخة المطبوعة من الفتح.

ويُرجّح أن ذلك كان في القرن الثاني عشر الهجري، أو في النصف الأول منه تحديدا، حسب ما يفهم من التواريخ المَدِينيّة: حوليات ولاتة (وَلاتَا)، حوليات تيشّيت.

3.1– **وادان:** تقع على بعد 100 كلمتر تقريبا، إلى الشمال الشرقي من مدينة شنقيط في ولاية آدرَار من الشمال الموريتاني الحالي، أسسها رجال من قبيلة إدوالحاج سنة 536 هـ/ 2–1153م[184]، دار علم عريقة تعتبر مدرستها الفقهية، إلى جانب ولاتة (وَلاتَا)، أم المدارس العلمية في البلاد، وقد أضحت منذ القرن العاشر الهجري (ق16م) مركزا تجاريا نشطا على الطريق بين المغرب والسودان، ولا سيما في تصدير الملح المستخرج من "كديت الجل" (جبل الحديد في شمال موريتانيا حاليا). ويرى الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي أن الاسم الأصلي لوادان هو: "أنوالان معناه بالبربرية: ذو الملاحس، أي التي يأوي إليها الوحش من سباخ اليطرون"[185].

وابن خلدون (808 هـ/1405م) هو أقدم من أشار إلى وادان، على حدّ العلم، في سياق وصفه لمجالات عرب بني منصور، حيث

قال: "ومصب وادي درعة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس، ويمتد إلى أن يصب في البحر ما بين نون وودان وفيافيه قصور لا تحصى..."(186). ولم يرد ذكر للتسمية التي اشار إليها الكنتي، ضمن أي من المصادر الأجنبية التي وصفت الإقليم منذ القرن التاسع الهجري/ (15م) وتاليه. بينما وردت التسمية العربية "وادان" بتحريف بسيط في رسائل البرتغالي زرارة إلى الملك اخوان الثاني (857هـ/م1453) بصيغة اودام إبان تأسيس المركز التجاري البرتغالي قرب المدينة، قبل أن تتم تصفيته بفعل مقاومة السكان(187). وذكرها الوزان في أوائل القرن الخامس عشر بنفس الاسم العربي(188)، لكن الأوصاف التي ذكرها تدل على أن المدينة كانت تعيش تدهورا اقتصاديا. أما خلفه مارمول كاربخال فذكر أن سكان ودان لعهده هم من "الآزير" (مجموعة مهجنة بين صنهاجة والسوننكى)، وأنهم يعيشون في ظل سيطرة القبائل الحسّانية(189). والتسمية نفسها وردت ضمن تاريخ السودان للسعدي (خلال القرن 11هـ/17م)، ونقل الطالب احمد بن اطوير الجنة (ت.1265هـ/1849م) عن شيخه سيد عبدالله بن الحاج ابراهيم (ت.1233هـ/1814م) أن وادان اسم عربي وأنه تثنية لوادين: واد من العلم وواد من النخيل؟ وذكر الطالب أحمد في رحلته (المنى والمنة) دهشته من المثل السائر

لدى الطرابلسيين والقائل "العلم ودانى والتمر فزانى..."[190] والظاهر أن المقصود ودّان بتشديد الدال، وتقع في الصحراء الليبية الحالية بالموضع المعلوم. والأرجح أن تكون التسمية بناء على تثنية وادي: إفنوان وافرزي القديمين في الإقليم[191]. وعن أوّليّة تأسيس المدينة يقول الكنتي إن ودان إبان مجئ إدوالحاج كان يسمى أنوالان وكان سبخة ملحة، وهو "دويرات وأخصاص تعمره تيزكة". فاستوطنه إدولحاج في ظل دولة ابْدُوكَلْ اللمتونية[192].

أما رواية إدو لحاج فيقول بعضها إنّ أوّليّة عمارتهم لوادان "أنه قدم عليه ثلاثة رجال فوجدوه لاعمارة فيه، فشرعوا في تدريس العلم والغراسة للنخيل والبناء للدور حتى حصلت فيه القرية الموجودة حيننذ. وسكنوه وتناسلوا فيه إلى الآن. والرجال المذكورون أحدهم الحاج عثمان جد أولاد الحاج، والحاج اعلي جد إدويح والونيدات، الحاج يعقوب جد إدياقب ثم بعد ذلك بثلاث سنين قدم عليهم أحمد صايم جد الصيام، وصار يعمل معهم في كل مايعملون فيه..."[193].

ثم تكونت قبيلة من نسل هؤلاء الأربعة رجال. وتضيف الرواية القول إن السكان الأصليين لوادان قبيلتان هما: تفتل (أو تفرلي) وتامكون (كولانه) وهما من أصل مسوفي.

وفي أوائل القرن الحادي عشر الهجري / (17م) انفجرت في وادان حرب طاحنة بين تفتل وتامكونه أدت إلى هزيمة تفتل

وخروجها من وادان مع حلفائها من بعض إدوالحاج، إلى القبلة. وقد بقيت العناصر الأساسية المقيمة في وادان مشكلة من بطون إدوالحاج وهم: إدياقب، لوتيدات، إدوبج، الصيام، الأقيتيون، وحلفائهم من الشرفاء(آل سيد المنتقي)، ثم من أقاربهم من كنتة (أولاد المتغنبري)، وتقاسمت هذه المجموعات الخطط الدينية والنظر الأهلية، حسب وزنها البشري والديني، والثقافي والاقتصادي[194].

4.1- **شنجيط:** شنقيط في الأصل مدينة من "آدرار" إلى الشمال الغربي من موريتانيا الحالية.

تأسست شنقيط سنة 660 هـ/1261م، قرب مدينة أخرى تعرف ب "ابير" بنيت حسب التقاليد المدونة لسكان الإقليم سنة 160هـ/776م. ثم اندثرت في ظروف اختلاف سكانها في توقيع عقد القصاص على أحد أعيان المدينة، مما أدى إلى هجرة بعض قبائلها إلى جهات مختلفة، وبعضهم هاجر إلى موضع قريب من المدينة القديمة، وفيه أنشؤوا المدينة الجديدة[195]. وللباحثين الغربيين نقاش حول أقدمية المدينة، جمعه الباحث **(هـ.ث. نوريس H.th.Norris)** وخرج بخلاصة رجح فيها تلك الأقدمية[196].

وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نعرف، على حد العلم، ذكرا لمدينة شنقيط في أي مصدر مكتوب قبل القرن التاسع الهجري/ (15م)[197].

وفي أواخـر القـرن الحـادي عـشـر الهـجـري وبـداية تـاليـه (17–18م) أضـحى اسم مـدينة "شنقـيط" رائجـا في المـشـرق والمغرب، نظرا لنشـاط ركاب الحـاج القادمة من هذه الوجهة حيث صارت المدينة منطلقا لركاب الحاج الصحراوية[198].

وتقـول الرواية المحلية إن الذين بنوا شنقـيط هم: محمد غلي جد قبيلة الأغلال، ومعه رجال من قبيلة إدَوِ اعْلي، منهم: اعمر يَبْنِ جد آمكاريج ويحي جد جمهور إدَوِ اعْلي الكحل، وآخر هو جد إديجر من إدَوِأعْلي. وقد تقاسم المذكورون الرئاسة والخطط الدينية مدة طويلة[199]. ولم يخـرج أهل شنجـيط على تقليد "الإجْمَاعْ" المَدِينِي القائم على جماعية تحمل النوائب والتساوي في القيام بالمصالح.

جاء في وثيقة "إجماع" أهل شنقيط ما نصه[200]: "... هذه فتوى نسبها... أحمد بن محمد بن القاضي **لأشياخ شنجيط**، وأن عليها عملهم **بتسوية الفقير وغيره، ومن يجمعهم أب وغيرهم، وأن التناصر كاف في العصبية**. ووقفت أنا على فتوى له أنه إن قَصرت النِّسْبَةُ صير إلى التناصر ثم إلى المسلمين.. أما أن العلة التناصر فحسن وموافق في المعنى لعصبية الديوان، وإن كان الأصل فيه وضع السلطان لمصلحة الجهاد. **فكثيرا ما تُناط الأحكام بالجماعة عند عدم السلطان**. ومصلحة المداراة عن الجماعة، وجلب

مصالحها لا يستقيم أمر الناس إلا بها، كجهاد السيف. وانضر إلى هذا أن آية: "والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم" محكمة إلا في التوارث، فبقي التناصر والمعونة، وانضر إليه أيضا أن عمل أهل الإسلام دأبا وديدنا والأشياخ متوافرون من غير نكير مساواة المتألفين بالنوائب والتعاون..".

واستمرت مؤسسات المجتمع الأهلي الشنقيطي قريبا من القرن. يقول عبد الله بن الحاج ابراهيم (ت.1233) "... وقد كان العلويون يقدّمون من معهم من الزوايا لإمامة الصلاة وجعلوها أولا للشماسدة ثم جعلوها للأغلال، فتغيروا لذلك وخرجوا من شنقيط، فذلك سبب خروج الشماسدة من شنجيط، وقد خرجَتْ يوما من شنجيط رفقةٌ (قدرها) ثمان وثلاثون ألف بعير موقورة (موقرة) بالملح، عشرون لأهله واثنا عشر لأهل تيشيّت، وباعت الرفقة كلها في زار (قرية في مالي) فتعجب الناس أي البلدين اعْمَرُ، مع اتفاق الكلمة إذا مات منهم شيخ رأسوا عليهم آخر، فبقيت دولتهم بشنجيط دولة دين، وعلم، ودنيا، ثلاثا وثمانين سنة مدة حياة الشيخ سيد أحمد بن الوافي (الغلاوي). فلما توفي وقعت بينهم الحرب العوان واعتزلها خلق..."[201]. وفي العهد الحساني أضحت شنقيط ضمن سلطة أولاد يحيى ابن عثمان (امارة آدرار)، مع بقاء النظام الأهلي الشنقيطي مستمرا على الرغم من الضغوط الجبائية المنظمة والعشوائية التي

كانت تفرضها على المدينة بعض قبائل الإمارة وفلول من أهل الشوكة القادمين من جهات مختلفة.

قيام الإمارات الكبرى

عرف التاريخ الموريتاني وجود كيانات دولوية شبه مركزية، عبارة عن إمارات ظهرت جلها في بداية القرن الثاني عشر الهجري/ (18م) نتيجة السيطرة الحسانية على شرقي البلاد وغربها فشمالها. وهذه الإمارات هي: إمارة **أولاد امبارك** في بلاد الحوض الشرقية وماوالاها جنوبا من بلاد السودان "مالي"، إمارة **البراكنة** في جنوب غربي البلاد، إمارة **النرارزة** في أقصى الجنوب الغربي، إمارة **أولاد يحي ابن عثمان** في بلاد آدرار في الشمال الغربي. وإلى جانب هذه الإمارات العربية، نشأت إمارتان صنهاجيتان قويتان: إمارة **إدوعيش** في بلاد تكانت إلى الوسط من شرقي البلاد، إمارة **مشظوف** في بلاد الحوض من شرقي البلاد، وقد ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أنقاض إمارة **أولاد امبارك**، وإلى جانب هذه الإمارات قامت رناسات حربية قوية لقبائل أخرى مثل **رناسة أولاد الناصر، رناسة أولاد داود**، كلتاهما في شرقي البلاد، وغيرها من الرناسات القوية التي كانت أقل تنظيما من الإمارات لكنها لم تكن أضعف منها حربيا. هذا المجتمع السياسي – العسكري كان السند المباشر للمجتمع الأهلي، رغم التعارض الوظيفي بين قبائل

الشوكة التي تقود الإمارت وقبائل الزوايا التي تسيّر المؤسسات الأهلية، وكانت "إيديولوجية" القبائل الزاوية هي مصدر الشرعية لتلك الكيانات السياسية، أي أن الزوايا هم الذين "يُمَجْتعُونَ" (من الاجتماع) المؤسسة السياسية بواسطة خطابهم الديني – المعرفي.

والحق أن هذه الإمارات كانت وريثة إمارات صنهاجية تكونت بعد نهاية دولة المرابطين في الصحراء، وساهم العامل الديني الماثل في إفتاء الفقهاء وشوراهم على تمييز الإمارات على القبائل ذات الشوكة الأخرى، وكان معروفا أن أية إمارة لا تقوم إلا على زعامة روحية تدعمها: إمارة إدوعيش بحثت عن "شريف" يكون أساس شرعيتها، فتأمل!

ورغم اختلاف وظائف الزوايا عن وظائف بني حسّان ومن لفّ لفهم من قبائل الشوكة الصنهاجية، فقد ظلت الإمارات والرئاسات الحسّانية تحمي قوافل الزوايا في المدن والبوادي، وأحيانا يكون ذلك مقابل "غفر" (رسم الحماية والمرور) وتكون الاتفاقات بشأنه موثقة طبقا للمعاير الشرعية أو "العرفية" التي قبلها الفقهاء. **وهو مايدل على أن المجتمع الموريتاني كان منظما، ولم يكن يعش حالة فوضى وسيبة كما ادّعى منظرو الاستشراق الاستعماري.**

وينبغي التنبيه على أن لمفهوم "السّيْبة" عدة دلالات منها الفقهي ومنها التاريخي ومنها "الايديولوجي" وحتى الاستعماري.

السّيبَةُ: غياب السلطة وشيوع الفوضى، ولم تكن الحالة السائدة في البلاد الموريتانية، بل كانت هي الاستثناء لاسيما أنها لا تتبلور إلا في أوقات الجوائح والمجاعات والأزمات في بيوتات السلط الأميرية، أما الوضع العام فكان عاديا وطبيعيا، في ظل إمارات ورناسات تقودها عشائر مسلحة، وإلى جانبها يقوم مجتمع أهلي قوي وراسخ، تسيّره قبائل مسالمة (قبائل الزوايا). وقد سعى المنظّرون الاستعماريون استخدام مفهوم "السيبة" في تفسير تاريخ بلاد المغرب. راجع مثلا روبير مونتاي "البربر والمخزن في جنوب المغرب"

Montagne(R.)-"Les berberes et le Makhzen dans le Sud du Maroc" Paris, A.colin1932.

أما الفقهاء فقد درجوا على استخدام مفهوم "السيبة" لوصف فراغ السلطة، وغياب "تنفيذ الأحكام"، مع اعتبارهم "الحاكم المتغلب" (من أهل الشوكة، بنوا حسّان)، له حظ من الشرعية.

وهناك من الرحالين الأوروبيين من ذهب بعيدا في اعتبار "السيبة" الموريتانية، فوضى منظمة، وفضاء لإنتاج ممارسات سياسية مميزة، شبهها بـ "النظام الجمهوري" من حيث الجوهر، معتبرا طبيعة التشاور والتعاضد والنسيان في المجتمع الصحراوي مخففة من "القمع" و"الظلم" و" الإقصاء". أما الباحثون الغربيون المعاصرون فيفسرون نشأة النظام الأميري تفسيرات شتى، انطلاقا من خلفياتهم المعرفية، التي تؤسس لفهمهم الخاص لمجتمع "البيضان"[202].

وقد مرّ بنا ذكر تاريخ سيطرة قبائل بني حسّان على صنهاجة الصحراء في الحرب الكبرى بين ابْدُوكَلْ وأولاد الناصر، وقد ظل الوضع السياسي قائما مدة على وجود المجموعات الحسّانية مسيطرة على أقاليم الغرب والشرق.

وقد وصف الرحالة الأجانب مجالات انتشار تلك القبائل وأسماءها والعلاقات السياسية والحربية السائدة في تلك الجهات.

وأشهر الرئاسات والإمارات الحسّانية التي تشكلت منذ القرن العاشر الهجري (16م) حتى القرن الحادي عشر والثامن عشر: رئاسة البرابيش في أزواد (10–13هـ)، ورئاسة أولاد دليم في الشمال، ورئاسة أولاد رزك في جنوب غرب البلاد ما بين القرنين الهجريين التاسع والحادي عشر.

وشكل بنوعمومتهم المغافرة[203] عدة رئاسات أشهرها: رئاسة أولاد الناصر، رئاسة أولاد داود محمد، رئاسة أولاد اعروق بن أودي.

أما الإمارات المغفرية فأشهرها:

إمارة البراكنة: من ق11هـ حتى ق13هـ في جنوب غرب البلاد أسستها ذرية عبد الله بن كرّوم بن بركنّي، ثم اقتسمها ابناه: احمد واعلي. وهي أم الإمارات المغفرية في هذه البلاد، وكان المغافرة يعترفون للأمير محمد بن عبد الله ولآبائه بالسيادة العامة زمن وحدة المغافرة. واستمرت السلطة في بنيه ضمين جذمين

كبيرين، مع انقسامات دورية. وللتوسع، يمكن مراجعة الدراسة الفرنسية المهمة: إمارة البراكنة، تأليف بول مارتي.

إمارة أولاد امبارك: في بلاد الحوض (جنوب شرقي موريتانيا وما يلاصقه من بلاد السودان "مالي") تأسست سنة 1124هـ/1712م بعد انتصار أولاد امبارك وحلفائهم على قبائل أولاد أبي فايدة وحلفائهم في معركة "كساري الرحى" الشهيرة في بلاد الحوض، وأولاد امبارك هم ذرية أمبارك بن امحمد بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان، من قبائل المغافرة القوية، ساهمت في الحرب ضد زوايا الجنوب الغربي، ثم انتقلت نحو بلاد الحوض، حيث أسست إحدى أكبر الإمارات المغفرية في البلاد ما بين 1711–1841م.

كانت السلطة في شرقي الحوض لأولاد بوفايدة[202]، قبل أن يزيحهم عنها أولاد امبارك بعد معركة، كساري (شوال 1124هـ/ نوفمبر سنة 1712م) التي هزم فيها أولاد بوفايدة هزيمة حاسمة، بعد سبعة أيام من المعارك الدامية. وسبب الواقعة قتل أولاد بوفايدة "ديد بن هنون العبيدي" المباركي، رغم أنهم أخواله، لأن أمه بوفايدية.

ويقول صالح بن عبد الوهاب بهذا الخصوص[205]: "ديد أمه بوفايدية لاشقيق له، قتله أخواله أولاد بوفايدة، وقتله هو بسبب وقعة كساري، وأطنبت أمه في النياحة عليه والتحريض على حرب قومها

...) وقتلت حوار ناقة وباتت تحن إلى الصباح وقام هنون لعبيدي وابن عمه علي بن مختار بن أوديكة واستجاشا بآزناكه (إدوعيش)، ورأسهم يومئذ اعْمَرْ بن امحمد بن خونه، وبأولاد الناصر ورؤسائهم بهدل بن هنون بن اعمر بن شبيشب وبهدل بن امحمد بن حماد من أولاد عبد الكريم، فصالوا إلى أنول -بتفخيم اللام- المنهل المشهور بالحوض، فهمّوا بالرجوع، جهلا بما وراء أنول من أرض، حتى أتاهم هرتوم الزيدي بقومه فقادهم دليلا إلى موضع كساري الذي به أولاد بوفائدة، وإخوانهم أولاد منصور، وأصحابهم يداس، وطلبتهم إجمّان وغيرهم، فكانت الوقعة على أولاد بوفايدة ومن معهم، قيل إن يدّاس يومئذ ستمائة فارس، وكانت وقعة كساري المذكورة في عام أربعة وعشرين ومائة وألف هجرية، وكانت الحروب فيها سبعة أيام وماهزم أولاد بوفايدة وشيعتهم حتى أعان سودان أهل ذلك البلد، في ذلك الزمن أعداءهم عليهم...".

وبانتصار أولاد امبارك في كساري، توطّد ملكهم في الحوض، وبدأ تحكمهم في موارد الإقليم التجارية والرعوية. وفي فترة، هنّون بن بهدل، مؤسس الإمارة، رسخ ملك أولاد امبارك في "باغنه"[206] بعد أن توطدت سلطتهم في الحوض. كما تميزت فترة ملك ابنه اعْمَرْ (1155-1171هـ/1742-1757م) بتركيز السلطة في يد ذرية بهدل، التي أصبحت منذ تلك الفترة أسرة السلطة العامة في أولاد

امبارك، لا سيما بعد هزيمة اعمر لخصمه اعلي بوزكرارة من مجموعة "فاته"[207]. وبلغ أولاد امبارك من القوة، والهيمنة درجة أنهم تخلوا عن لقب الأمير –رسميا– واتخذوا بدله لقب السلطان، لكن التجربة السياسية لهؤلاء السلاطين، لم تنضج – إلا في عهد اعلي ابن اعمر (1171–1211هـ/1758–1779 م)، الذى وطد سلطنة أولاد امبارك، بعد إقصاء عمه اعلي الشيخ، عن السلطة بعد صراع دام سبع سنين، آل إلى موت الأخير منفيا في مدينة سيكو امن بلاد مالي حاليا)[208].

لكن هذه الفترة الوجيزة، التى انشغل فيها الأمير اعلي بن اعمر ابن هنون عن شؤون القوى المحيطة به، انتهزها إدوعيش (الذين كانو آنذاك تحت سلطة أولاد امبارك) ليوقعوا الهزيمة بطرف من أولاد امبارك سنة 1172هـ/1759م سعيا إلى التخلص من الهيمنة المباركية، قبل أن يعلنوا رفضهم تسديد الغرامة (المُدَارَاة الإجبارية) لأولاد امبارك، في عهد رئاسة امحمّد شين بن بكار بن اعمر، الادوعيشي سنة 1762/1175م. مما كان سببا مباشرا في وقوع حصار لحنيكات الشهير[209]. وعلى الرغم من ذلك استطاع اعلي بن اعمر، بفضل دهائه وحنكته السياسية، أن يوسع مجال إمارته جنوبا، مستفيدا من الصراع والحروب الطاحنة، بفعل العداء التقليدى، بين الإمارات البمبارية والزنجية الأخرى (الفولان

(الفولبة)). كما نشر الرخاء والعدل في عموم الحوض ضمن النطاق المجال الأميَري المعروف محليا باسم: "مجال التيكفيت" وهي ورقة من شجر معروف كان نطاق انتشاره يحوي بلاد الرقيبة وبلاد الحوض عموما. وقد وصفه صالح بن عبد الوهاب بقوله: "كان اعلي بن اعمَر هذا أرفع ملوكهم (أولاد امبارك) ذكرا وأنفعهم للمسلمين طرا وأطولهم في الملك مدة، وأكثرهم عددا وعدة.."[210]. ونتيجة لطول عهده وشيوع الأمن فيه، أصبحت فترة حكمه مقياسا زمنيا لتحديد "تواريخ وفيات الأعيان من العلماء ومشائخ الإقليم". ولضمان استمرار الرخاء، اتبع هذا الأمير نظاما أمنيا صارما كاد يقضي على أسباب النزاعات والحروب. والدليل على ذلك أن المصادر المحلية لا تذكر أكثر من وقعتين في بلاد الحوض "الشرقية" طيلة فترة حكمه التي دامت زهاء أربعين سنة. والوقعتان هما: يوم "النعومر" بين فصيلتين من أولاد امبارك هما أولاد العالية، و"فونتي" سنة (1202هـ/1788م) ووقعة "أرَطَان" بين أولاد الناصر من جهة، وأولاد علُّوش وبعض أولاد امبارك من جهة أخرى، سنة 1203هـ/1784م[211].

ومن الواضح أن الوقعتين كلتيهما كانتا في أواخر أيام الرجل، كما أنَّ إحداهما (وقعة أرَطان) كانت قرب هذا الموضع البعيد نسبيا عن مجال الآمارة إذ أن "بئر آرَطَان" هي نقطة التقاء حدود إمارتي

أولاد امبارك وإمارة إدوعيش[212]. وخلال عهد ازدهار الإمارة (1171-1244هـ/1758-1829م) تعاظمت سلطنة أولاد امبارك، بفعل تنامي قوتهم العسكرية، وشيوع الرخاء الاقتصادي وتراكم الثروة والموارد البشرية في مجالهم الآميري.

وتدل شهادة الرحالة مونكو بارك **Mongo park**، خلال هذه الفترة، على ازدياد نشاط القوافل التجارية المارة من خلال بلاد أولاد أمبارك، قادمة من المغرب (الشمال) أو من السودان (الجنوب). ومن هذه القوافل تلك القادمة من المدن الصحراوية (ولاتة (ولاتا)، تيشّيت، وادان، شنقيط..) وقد استفاد أرباب هذه القوافل من الإعفاءات الضريبية التى كان أولاد أمبارك يقدمونها إلى كبريات قبائل الزوايا وللاسر العالمة والشريفة في المدن والبوادى. بينما كان الأمراء المباركيون يجبُون المُدَاراة على النطاقات السودانية التى يحمونها مثل بلدة "زارة" ذات الأهمية التجارية للمدن الصحراوية خلال القرن السابع عشر الميلادي إلى الثامن عشر، والتي دفع سكانها، في يوم واحد **200** من الأنعام لـ"اعلي ابن اعمَرْ" وذلك مقابل حمايتهم[213].

إمارة الترارزة: نشأت تقريبا نهاية سنة **1721**م، وهو تاريخ تخلص هذه المجموعة الحسّانية من هيمنة بني عمومتها من البراكنة، وكان ذلك بقيادة اعلي شنظورة أول أمير فعلي بعد أبيه هدي بن أحمد بن دامان الذي كان رئيسا من رؤساء المغافرة في القرن الحادي

عشر الهجري/ (17م). ويمكن اعتبار سنة 1871م، بداية تفكك الإمارة إلى أحلاف رغم بقاء بنيتها العامة.

وقد ظلت هذه الإمارة مستفيدة، في المقام الأول، من علاقاتها التجارية بمستعمرة السنغال الفرنسية، وكلفها ذلك حروبا شهيرة مع الوالي الفرنسي "فيدرب" ومن تلوه، ولعبت مادة الصمغ (العلك) الدور البارز في ذلك الصراع، حيث كانت محور اهتمام الفرنسيين لحاجتهم لها في صنعة النسيج، وارتبط بها أمراء الترارزة لما يجنونه وراءها من ضرائب عرفية، وتأسس عليها كذلك اقتصاد سكان الإمارة، لدرجة يمكن معها القول إن "**إمارة الترارزة هبة العلك**". وقد اهتم الفرنسيون بإمارة الترارزة، وأنجزوا حولها العديد من التقارير والدراسات والمنشورات وأشهرها: إمارة الترارزة (بالفرنسية) للإداري الفرنسي بول مارتي.

إمارة أولاد يحي بن عثمان (بلاد آدرار): (1145هـ-1321هـ).

كانت هذه الإمارة في بيتين من قبيلة أولاد عمني من ذرية يحي بن عثمان بن مغفر، وهما:

1- آل كيراف بن عمني، كانت فيهم الإمارة قديما، وآخر أمرائهم عبد الرحمن بن حمو.

2- آل بوبه بن عمني. وهم الذين آلت إليهم الإمارة أخيرا واستمرت فيهم.

توطدت الإمارة في عهد سيد أحمد بن عثمان، وطالت مدته، وكان حيا إلى سنة 1242هـ، وتولى بعده ابنه أحمد الملقب "وِلْد عيدة"، وأغار وأنجد في الحرب والسلم حتى توفي سنة 1277هـ ثم توطد الملك بعد أزمة، للأمير احمد بن امْحمّد بن أحمد "ولد عيدة" وانتشر في عهده السلم والأمن على نحو لم تعرفه بلاد آدرار. وتولى الملك في نفس الأسرة إلى دخول الاستعمار.

وقد كان لقبيلة أولاد غيلان وحلفائها الدور المركزي في تاريخ هذه الإمارة، سلما وحربا، تنصيبا للأمير وعزْلا له، وبرزت منها أسر بارزة أشهرها في القرن التاسع عشر أسرة أهل مكيّة. وقد دُرِستْ هذه الإمارة في عمل شامل باللغة الفرنسية معنون: "إمارة أدرار" أنجزه بيير بونت.

وإلى جانب هذه الإمارات العربية الحسّانية، عرفت البلاد إمارتين صنهاجيتين مهمتين:

إمارة "إدوَعيشْ" (بلاد تكانت): هو النطق الحسّاني للاسم الصنهاجي "إدَوْ ـ يدَرْ" أولاد إعيش، ومعناه أبنـاء نمـط العيش أو الحياة الواحدة، لأنهم قبائل عديدة منها الصميم والحليف.

ينتسب إدوعيش إلى أوديَكَ بن آكر بن يدرّ أن بينْك بن أنمز ابن عثمان بن (أو حفيد) يحي بن عمر اللمتوني (تـ446هـ). وأمهات قبائلهم: أهل امْحمّد بن خونه (بيت الرئاسة) والأنباط، ثم أولاد اعلي انتونفه، تغده (تكده)، سارة، وغيرهم، وقد اندمج تغده وسارة في أهل سيد محمود من إدوَالحاج بحيث أصبح يطلق عليهم أهل سيد محمود.

كان إدوعيش يُسَمّوْنَ قديما بَخْوَاكَة، وينتجعون تيرس، ويرجعون نحو أطراف تكانت، واستمروا في ذلك منذ القرنين السادس والسابع الهجريين (12-13م) ثم واجهوا الزحف الحساني مع بني عمومتهم من صنهاجة بقيادة ابْدُوكَلْ "لمتونة"، لكنهم أخضعوا بعد القرن الثامن الهجري/(14م) واستمر الوضع هكذا قريبا من القرنين "وكانت المغافرة تمتهن بيت الإمارة بالقتل والسبي حتى قيل إن بنيوك بن أوديكه أحد قدامى زعمائهم، وعرفاء بيت إمارتهم أودع ابنه امْحَمّدْ لأحد رجال إدوعلي خوفا عليه من القتل فكان أبناء العلوي المودع عنده يسمونه (خونا) أي أخونا، لأن والدهم ذكر لهم أنه أخوهم، فكان هذا الولد النواة التي نبتت منها شجرة (الملك) في إدوعيش "[214].

وتوفي امْحمد بعد أن وضع لبنيه الحجر الأساس للملك، وخط لهم طريقة استرجاع عزهم، فكان أول رئيس عرفوه بعده أعمر بن امحمد بن خونه المعروف بأعْمر الإعيش، وكان حج فلما عاد بدأ مشروع استرجاع ملك إدوعيش، لكنه ظل حليفا لأولاد امبارك لشدة بأسهم، وكان إلى جانبهم في معركة كساري الشهيرة (1224هـ/1712م) في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا، وبعدها استطاع أولاد امبارك تأسيس إمارتهم ذات الشهرة الأسطورية، واستمرت متحدة بقيادة آل هنون بن بهْدَلْ بن امحمد الزناكي مدة ما بين 1712 و1841م، قبل أن يقتتل أمراؤها في معارك دامية

أشهرها يوم "مدد الله" (1252هـ) والذي تحولت الإمارة بعده إلى مشيخات متصارعة، أخضعتها إمارة مشظوف التي حكمت بلاد الحوض إلى الغزو الاستعماري الفرنسي. وخلفه اعلي فانتزع الإمارة منه أخوه بكار بن أعمر (ت.1175هـ/1761م)، ثم تلاه امحمد شين بن بكار، ثم بعد وفاته انقسمت إدوعيش إلى جيشين عظيمين (مكزوزة وبخواكة "الاسم القديم احتفظت به إحداها") ثم خلص الأمر لمحمد بن امحمد شين (1208–1236هـ/1793–1821م)، وانقسمت الإمارة بعده إلى قسمين:

– **إمارة الشراتيت**: وهم شيعة المختار، واعلي وغيرهما من أبناء امحمد شين (إخوة الأمير الخامس)، وكانوا في الرقيبة "من شرقي البلاد".

– **إمارة أبكاك**: وهم شيعة اسويد أحمد بن محمد بن امحمد شين (ت.1245هـ/1829م) (ابن الأمير الخامس)، وكانوا في "تكانت".

ومن وجه آخر، فإن تاريخ قيام إمارة إدوعيش، كان وليد التخلص من هيمنة بني حسّان ولا سيما أولاد امبارك. فمع أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ (18م) كانت إرادة إدَوْعيش في الانعتاق من ربقة مغارم أولاد امْبارك، قد أضحت قوية لاسيما في عهد بكار بن اعْمَر بن محمد بن خونه (1761/1175)[215] وابنه خليفته امْحمّد شين (1202هـ/1788م)[216] حيث أعلن الأول إلغاء الضرائب التي كان أولاد امبارك يفرضونها على قومه في إقليم تكانت، وكان ذلك من أسباب حصار الحنيكات الشهير[217]

بعد معارك دامية، لم تسفر عن نتائج حاسمة إلا في عهد امْحمّدْ شين، ولاسيما بعد انتصاره على المغافرة وحلفائهم، في حصار الحُنَيْكَاتْ الموضع المعروف محليًّا بـ"أحنيْكَاتْ بَغْدَادَ" (قرب تجكجة الحالية)، (1292هـ/1778م). وقد استطاع امْحمّدْ شين أنْ يَفُلَّ عزم المغافرة، بعد أن حاصروه ستة أشهر كاد يهلك فيها الخف والكراع[218]. كما استطاع امْحمّدْ شين أن يخرج إقليم تكانت نهائيا من هيمنة أولاد امْبارك لكن موته المفاجئ فتح بابا للصراعات الدامية بين الإخوة والأبناء حول الخلافة، ولم يحسم هذا الصرع إلا مع محمد بن امْحمّدْ شين (1208هـ/1793م=1236هـ/1814م) الذى امتاز عهده بالأمن والاستقرار واحترام المجموعات الزّاويّة، وقد قرّبَ عالمَ مدينة تجكجة عبدالله بن الحاج ابراهيم (1233هـ/1814م) وجعله مستشاره الخاص[219].

لكن وفاة محمد بن امْحمّدْ شين أيضا فتحت الباب أمام الصراعات الداخلية بين إدْوعيش (اشراتيت ضد أبْكاك) وصعود قوة أهل سيد محمود الذين سيدخلون في حرب دامية مع كنتة مما سيزيد الطين بلة، ويزيد من تعقيد نظام التشابكات السياسية بين كنتة، ومشْظُوف، وأولاد الناصر، وأهل سيد محمود مع كلا الطرفين من إدَوْعيش.

– **إمارة مشظوف:** من انتصاف القرن التاسع عشر الميلادي حتى القرن 20م.

– **مَشْظوف**: تعريب اللفظ الصنهاجي: شظّش:الستة! اسم قبائل محاربة أسست في القرن 19م كبرى إمارات بلاد الحوض بعد إمارة أولاد امبارك الشهيرة، عُرف مشظوف بالعدل والجلد في الحرب. مواطنهم بلاد الحوض (الشرق الموريتاني)؛ وفيه جناحهم الرئيس، ومركز إمارتهم، ومنهم فرقة موفورة في الشمال ويُعرفون بمشظوف الساحل (الشمال في الإصطلاح المحلي). وقبائل مشظوف تنظمها ثلاثة فروع هي: النبيطات، والحمنات، وأولاد بوهماد. ورد أول ذكر مشظوف بجذمهم الأصلي، في ما نعلم، ضمن كتاب الحلل الموشية، واستطرد روايته عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان (أصول التوارق). وفي مفهوم الرواية ما يحيل إلى أن المذكورين هم قبيلة مسوفة الصنهاجية التي كانت المجموعة الوحيدة التي حافظت على مقومات وجود بشري واقتصادي ملموس في غرب الصحراء، بعدما أدت تفاعلات الحركة المرابطية إلى هجرة واسعة للصنهاجيين نحو المغرب، مما أفرغ الصحراء الصنهاجية من خيرة المنتجين والمتعلمين ولاسيما من لمتونه حسب رأي الباحث ددود بن عبد الله، (في الفصل الأول من الحركة الفكرية). وكان لمسوفة حضور قوي في الممالك الإسلامية السودانية، فمنهم المستشارون وخاصة البطانة، كما كان منهم، في آخر دولة مالي وجل عهد السنغاي، من كانوا ولاة على بني جلدتهم. كما كانت لهم أدوار قوية في تجارة الصحراء فعمروا مدن تيشيت وولاتا التي بنيت في ذلك العهد، والراجح أنهم مؤسسوها.

والمفهوم أن مشظوف العهد الحساني (تمييزا لهم على مسوفه قبل ق16م) هم نتيجة عمليات التّعرُّب، والهجرة والاختلاط التي عرفتها جل قبائل موريتانيا الحالية، وميّزتها على نظيراتها المجاورة. كانت قوة مشظوف متمركزة أولا في تكانت ثم أزعجها إلى الحوض ما كان ينالها من ادوعيش، وقد كانت هجرتها في عجز القرن الهجري الثالث عشر، خلال فترة إمارة بكار بن اسويد أحمد (ت.1256–1323)، وقد سيطر مشظوف على الحوض سيطرة شبه مطلقة، وبمجرد أن تم لهم ذلك (أورثهم الله (...) ملك أولاد أمبارك في تلك الناحية، وغلبوا على من كان فيها من الناس (...) وبلغ أميرهم أحمد محمود بن المختار بن المحيميد، من العظمة والملك والقوة، مالم يلغ مثله أحد من أمراء هذه البلاد الصحراوية، وبلغ سائر مشظوف من الكثرة مالم تبلغه قبيلة من قبائل هذه الصحاري (...)، حسب ما جاء في راوية الشيخ سيديا بابه "تاريخ إدوعيش ومشظوف" (220-221).

أزمة المجتمع الأهلي وتجذر السيبة

كانت الحروب داخل المدن، أوفي محيطها المرتبط بها ذات نتائج يمكن التغلب عليها، ولذلك ظل المجتمع الأهلي مستمرا على الرغم من تلك الأزمات الداخلية، وعلى الرغم من الجوائح (قحوط وأوبئة) التي كانت تأتي دوريا، لكن انحطاط الإمارات الكبرى،

وتزايد الصراعات والحروب في إقليم السودان، مصدر التموين بالحبوب، أدى إلى أزمات هيكلية مست سكان المدن في الصميم، وأضعفت من تطور الزوايا الصوفية في البوادى.

فقد عرفت إمارة أولاد امبارك بداية تفككها، من عهد آماش ابن اعمر بن اعلي الذى لم يلزم الحياد في الصراعات بين فروع الإمارة على الرغم من كون ذلك محل إجماع من "مجلس الإمارة"، كما انغمس خلفاؤه في الاقتتال على اقتضاء المغارم من السودان، ولم تعد قوافل المدن تتخلص من إغارتهم إلا بعسر.

أما إدوعيش فقد دخلوا في حروب متوالية بين فرعيهم الكبيرين (أبكاك واشراتيت)، واستفحل الأمر مع حرب كنتة وأهل سيد محمود التي شملت رقعة ترابية واسعة (الحوض، تكانت، الرقبية..).

ونطاقا قبليا كبيرا (أولاد الناصر، إدوعيش، وكنتة، وأهل سيد محمود، مشظوف..) ولذلك كانت وفاة محمد بن امحمد شين فاتحة الفوضى والنهب التي اجتاحت بعض القبائل الزاوية التى كان الأمير الهالك يحميها حتى قيل إن "أهل الآبار من الزوايا لم يعطوا ذراعا من الخنط لأحد من أهل تكانت في المداراة إلا بعد وفاة محمد بن محمد شين"[220]. وبموته "انفتح على إدوعيش، بل وعلى غيرهم من أهل تكانت باب الفتن الذى كان قفله.." على حد تعبير الشيخ سيديه بابه[221]. وفى الفترة مابين النصف الأول من

القرن 13 الهجري ونهايته، تلاحقت الآحداث بسرعة في طريق أزمة الحياة العامة وتفكك المجتمع الآهلي نهائيا.

تعطى حوليات تيشّيت وولاتَة (وَلاتَا) صورة عامة عن تدهور الأوضاع في تينك المدينتين وفى عموم البلاد في أخر النصف الآول من القرن الثالث عشر الهجري ضرب ولاتَة (وَلاتَا) قحط شديد، شمل أغلب بلاد التكرور حتى بيعت العدبلة بمُدٍّ واحد في ولاتَة (وَلاتَا)، والمخزومة بنصف مُدٍّ، وكان ضغط هذه المجاعة على المجموعات التابعة ولاسيما الأرقاء، مضاعفا حيث "مات فيه خلق كثير من العبيد وغيرهم".

وابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري بدأت الرفاق تواجه هجمات المجموعات السودانية، من ذلك غارة الفولاّن (الفولبة) على "رفقة ولاتَة (وَلاتَا) وأبناء بورده عند صنصندي... ويسمّى عام طَيْحَةُ الكَوَرْ"*.

وبين أعوام 1260–1271 تعرضت ولاتَة (وَلاتَا) لهجمات مختلفة الحجم والنوع والمصدر والنتائج من قبل كنتة، وأولاد الناصر، والأغلال، وأهل اسويد[222]، وإكلاد[223] وغيرهم.

وقد أدت الهجمات المتكررة من قبائل الفُلّانْ السودانية، وغيرهم من المجموعات السودانية والبيضانية على قوافل ولاتَا

* مصبحه: غارة الزنوج.

(وَلاتَا)، إلى تحولها نحو الاسترفاد من مصادر أخرى في الشمال (مملحة تاودَنِّي)، والتوجه نحو أسواق جديدة كما هو الشأن مع بلدة كَالة في دولة مالي حاليا.

على الرغم من ذلك اضطر أهل ولاتَة (وَلاتَا) سنة 1290، إلى دفع أموال جزيلة لأحمد بن الحاج عمر[224]، وكانَ حبس عنهم الميرة وضايق قوافلهم، كما لم يسلموا، في طريقهم إلى مملحتهم الجديدة، من هجمات القوى الحسَّانيّة المُنهكَة مثل البرابيش الذين أغاروا سنة 1292 على (رفقة أهل بورده وأهل ولاتَة (وَلاتَا) في تاودني، فأخذوا منها خمسمائة من الإبل، حسب كلام مدوني الحوليات. وكان لوباء سنة 1286 أثره الماحق على البلاد والعباد قبل ذلك، وفي ولاتَة (وَلاتَا) على نحو خاص، حيث مات ثلاثمائة ونيف من سكانها.

أما تيشّيتْ فقد عانت الأمرّين من الحرب الدامية بين سكانها، لا سيما بين ماسنة وأولاد بل (1257–1266)، حيث تضررت الأحياء السكنية في القطاع الشمالي من المدينة أكثر من مرة، وسقط العديد من الضحايا من الفريقين، قبل أن يخرج أولاد بلّ ليؤسسوا حاضرة جديدة هي آغْرَيْجيتْ في 17 ذي الحجة سنة 1266هـ. ومما ضاعف من الأزمة في مدينة تيشّيتْ الغلاء الماحق الذي ضر بها عام 1272 (حتى بيعت العديلة بثلث مُدِّها) واستفحلت أزمة

التجارة مع السودان، بفعل الصراعات السياسية بين الحاج عمر وأبنائه ضد خصومهم، وبين هؤلاء أنفسهم، وقد أدى ذلك إلى محاولة القوافل تغيير خط سيرها المعهود نحو السودان، بارتياد مسالك جديدة، لكن النتائج كانت في أغلب الأحيان فادحة "كما هو شأن "رفقة إدو اعلي التي توفي من فيها من البيضان، وقطعت إبلها حاملة للملح من البحر إلى سيكو. وقد كانت عجيبة لم تكن فيما مضى" حسب مدون الرواية في حوليات تيشّيتْ.

واستفحل الوضع مع تجدد إغارة القوى الحسَّانيّة على الرفاق (القوافل) ولاسيما أولاد امْبارك – حماة قوافل تيشّيتْ بالأمس، إذ أغاروا على رفقة من أهل تيشيث وقتلوا بعض أربابها سنة 1280هـ.

واشتدت وطأة أولاد الناصر على ولاتَة (وَلاتَا) بين 1260 و1261 وعلى تيشّيتْ سنة 1280، نزلوا بأحيائها مقيمين بها أربعة أشهر، وتكرّر الأمر نفسه على مدينة النعمة حيث اشتد ضغط محاربي أولاد الناصر بقيادة درباي بن صَنَيْبَ ورفاقه خلال نفس الفترة تقريبا.

ولم يكن الشمال بأحسن حال من شرقي البلاد حيث نشرت قبائل الساحل(225) التي امتلكت البنادق سريعة الطلقات (ألوَرْوَارْ: 0,8 مم) السلب والنهب في عموم آدْرَارْ في ظل عجز الإمارة، وانهيار اقتصادها لتعطل قوافل التجارة وهجرة السكان بحثا عن الأمن والهدوء، إضافة إلى تجدد الأوبئة والمجاعات في وقت كان الزحف الاستعماري قاب قوسين أو أدنى من البلاد.

، وقد لخص صاحب **حوليات تيشيت** هذه الأزمة بقوله: "وفي العام الثاني والثمانين (1282 هـ) أتى الجراد لجميع البلدان ووقع وباء البقر ووقعت الشدة وهي المجاعة في تيشيت وشنجيط وولاتة (ولاتا) وأروان وتنبكتو، بل في بلاد التكرور. وفيه إغارة مشظوف الساحل والكرع، على قارب أهل تيشيت ولم يتركوا لهم إلا القليل نحو العشر أو عشره، وأكلت أبناء عبد الكريم رفقة تيشيت راجعة إلى قصرها من غب. وأغارت قوم من أولاد اللب والكرع على إبل أهل آغريجيت بشنجيط وقتلوا منهم نحو أربعة وفيه غزا أهل الساحل كلا، وتكنه، والرقيبات، وأبناء أبي السباع وأولاد الدليم، لأهل آدرار: نعني أهل سيد امحمد ومشظوف ويحيى بن عثمان، وتركوهم شذر مذر وقتلوا منهم مائة ونيفا كبيرا...)[226]. وكان ذلك رداً على الهزائم التي ألحقها قبل ذلك أهل أدرار بالقبائل المنتشرة في الساحل.

واستمر مثلث الغزو، والوباء، والقحط يضرب بعنف الكيانات السياسية والأهلية في بلاد البيضان، حتى الغزو الاستعماري الفرنسي الذي واجه مقاومة ضارية (1905–1934) جعلته يراجع حساباته أكثر من مرة.

ويمكن القول بثقة إن الاستعمار الفرنسي، قد أوقف ديناميكية المجتمع الموريتاني، وتحولاته السياسية، والمجتمعية السريعة

والغربية، والتي كانت تتجه إلى تكريس جديد لسيادة الإمارات والقبائل الصنهاجية المحاربة، التي كادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي أن تستعيد هيمنتها على البلاد، في وقت تراجعت القوى العربية الحسّانية التي تآكلت من الداخل بفعل الحروب والغارات المستمرة، وظاهرة الإغتيال في البيوتات الأميرية، فضلا عن عامل الزمن الذي طال السلطان العربي.

والدليل على ذلك أن القوى غير الحسّانيّة كانت قوتها في تصاعد –أعني– تكنة، والرقيبات وأولاد بسباع يزحفون من "الساحل" (الشمال)، أما الإمارات والقبائل الصنهاجية فها هي تُجدّد بنيتها: إدوعيش يجدون رمزا قويا في بكار بن سويد أحمد، ومشظوف يتقدمون في بلاد الحوض في زحف أسطوري على أنقاض إمارة أولاد امبارك العتيدة، أما أهل سيد محمود فهاهم يوطدون أركان اتحادية مهيبة. وهناك نحو الشرق في أزواد وشمال عقفة النيجر، تستعيد سلطنات التوارق زمام المبادرة من دولة الرماة والبرابيش، وتعيد رسم ميزان القوى بشراكة مثيرة للإعجاب مع الزاوية الكنتية. وبالمقابل كانت "الطرق الصوفية" يتألق نجمها بالتوازي مع الصعود الصنهاجي المسلح، ويمتد إشعاع "الحضرات" يمنة ويسرة، وكأنه صعود زاوي مماثل: الزاوية الكنتية تقود حربا ضارية ضد الحاج عمر، وأهل الشيخ محمد فاضل يجددون القادرية،

والشاذلية في نسختها "الغظفية" (الأغظفية) تنسج شبكاتها الدينية والتجارية في طول البلاد وعرضها.

وإذا كان التاريخ لا يعيد نفسه، فإنه هنا قد كاد يفعل، على نحو بدا معه وكأن الكتلة الصنهاجية، وما في معناها، كان مصرا على إعادة الحال على ما كان عليه قبل الحرب المشهورة بين صنهاجة وبني حسّان في القرن الثامن الهجري/14م.

إنه مشهد غريب حقا، لا يسامته في الغرابة إلا كون "المنقذ" كان المستعمر الفرنسي الذي أدخل تلك التحولات الدراماتيكية في نفق للتجميد، ثم أجهز عليها الواحدة تلو الأخرى في سياسته المعهودة لترتيب أحوال البلاد والعباد.

الهوامش:

1- راجع: بوبة بن محمد نافع وآخرون: موريتانيا القديمة، نواكشوط، جامعة نواكشوط، 2000 ص.80-81.

2- ولد أيده: 145.

3- الأستاذ محمد حمار. المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، الرباط، 2004، ج1، ص. 48.

4- تاريخ إفريقيا العام، ج .462/2-463.

5- ولد أيده: مرجع سابق، ص.144.

6- العبر... ج.186/6.

7- راجع مثلا: أبوبكر بن علي الصنهاجي المكنّى بـ"البيذق": أخبار المهدي ابن تومرت وبداية دولة المُوَحّدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، ص62، 85، 92. وفي تلمسان: حي المرابطين الذي بنوه تاكرارت.

وفي الصحراء الموريتانية: تاكرارت قرب ولاتة، وكرارة ابن دهموش البوفائدي التي آلت إليه من حروبه مع صنهاجة الصحراء قبل أن ينتزعها منه أمراء أولاد أمبارك.

8- المغرب، 170.

9- طريق اللمتوني: ينطلق من بلاد السودان صاعدا عبر شرقي موريتانيا اظهر النعمة ـ ولاتة إلى تكانت نحو آدرار منحرفا نحو الشمال الشرقي ثم نحو الشمال الغربي عبر جبل الجل نحو الساقية الحمراء فوادي درعة.

10- ابن عذاري: البيان المغرب... ج. 4، ص.17.

11- حسن الوزان "ليون الإفريقي": وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية د.محمد حجي ود. محمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، طبعة ثانية، 1983، ج2، 164

12- عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى: العبر.. (بيروت: دار الفكر، 1399هـ/1979م)، ص. 198.

13- هويثي ميرندا: التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، المترجم عبد الواحد أكمير، الرباط: دار النجاح الجديدة، 2004، ص.131 ومابعدها.

14- نفسه.

15- ابن بابا حيدة (محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم)، القول البسيط في أخبار تمنطيط، ص.16 ملحق بـ: فرج محمود فرج: أضواء على إقليم توات في القرنين 18-19، الجزائر، 1977.

16- هذه الرواية نقلها أحد أعيان تجكانت من النص المذكور، وأفادني بها مشكورا الأخ الباحث يحي بن محمد بن حريمو.

17- أحمد بن خالد الناصري السلاوي: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954، مجلد 1، ج 2، ص. 23.

18- العبر... ج6/185-186

19- هويثي ميرندا: مرجع سابق، ص. 142

20- ميرندا: نفسه.

21- البيذق: مصدر سابق، ص. 77، 79، 85.

22- ابن خلدون: العبر... ج6/

23- هويثي ميراندا: مرجع سابق، صص 320-311، ومواضع مختلفة أخرى.

24- قراقش: مغامر أرميني الأصل دخل إفريقية سنة 568هـ في فصيلة من الغز تنتمي أصلا إلى جيش تقي الدين (ابن أخي صلاح الدين)، واستولى على واحتي أوجلة وفزان، وأمير رياح مسعود بن سلطان، قبل أن يحتل طرابلس. وقد انضم كل العرب الرحل في إفريقية إلى التحالف الذي شكله قراقش وعلي بن غانية.

25- صحيحة النقل، مخطوط، نقلا عن: الوسيط، 425.

26- ابن خلدون: العبر...، ج6.

27- تمييزا لها عن المدن "الدارسة" مثل: كمب صالح، أو دانسك، كلتاهما في شرقي موريتانيا الحالية، أزوكي في آدرار...

28- مثل: ورقات سيد احمد البكاي الكنتي، والأنساب لأحمد بن الحاج عبدالله الرقادي، محمد امبارك اللمتوني: نظم تاريخ الدولة اللمتونية، كتاب الأنساب لوالد بن خالنا...

29- كالكتابات البرتغالية.

30- مثل كتابات المؤرخ الثقة الراحل المختار بن حامد.

31- راجع مثلا: ابن حامد: الجغرافية، ص.63

32- القبلي: مراجعات حول الثقافة والمجتمع في المغرب الوسيط، الدار البيضاء، توبقال، 1987، ص.17

33- حدثني بها الباحث محمد بن مولود بن داداه الشنافي في قرية عين السلامة قرب أبي تيليميت، وكان تلقى الرواية في الخمسينيات من رجال البرابيش نقلا عن كنتة.

34-Dearte Patchico Pereira: Esmeraldo de situ orbis, trad R.Mony, Bisaoo,1959,p 43

35- يخلط محمد امبارك اللمتوني في "نظم تاريخ الدولة اللمتونية" بين أدد هذا وبب الذي سيرِد ذكره في حرب "شرُ ببّ".

36- راجع: ابن حامد: السياسي، ص.83

37- السعدي: مصدر سابق، ص.22 (من النص العربي)، ولد عبد الله، مرجع سابق، ص.45.

38- السعدي : مصدر سابق، ص.27.

39- انظر: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي عرف بابن بطوطة، تحفة النظار شرحه وكتب حواشيه طلال حرب، (بيروت : ط2. دار الكتب العلمية، 1413هـ/1993م)، ص. 684-688.

40- CHENNAFI,M, OP CIT, P.100.

41- راجع: ابن بطوطة : مصدر سابق، ص.687 وما يليها

42- راجع: جبريل ت. نيانى "مالي والتوسع الثاني للماندانغ" : تاريخ افريقيا العام (باريس : اليونسكو، 1988)، ج4، ص.158.

43- .جبريل : مرجع سابق، ص.160.

44- نفسه، ص.163.

45- إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الإفريقي (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973)، ص. 94-95.

46- ابن بطوطة: تحفة النظار، مصدر سابق، ص.687.

47- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الفصل الخاص بالإخوة المقربين

48- نفترض أن ولاته (في تلك الأزمنة) كانت قد أصبحت ضاحية من ظل السلطان المالي، ولم يبسط عليها الصانغاي (السادة الجدد) هيمنتهم بعد.

49- راجع: ما دينا -لي- نال، "تدهور امبراطورية مالي" في: تاريخ افريقيا العام (باريس، اليونسكو، 1988) ج4 ص.182.

50- السعدي : تاريخ السودان، ص.64 (من النص العربي).

51- السعدي : مصدر سابق، ص.65

52- السعدي : نفسه، ص.64

53- نفسه : ص.65.

54- راجع: ولد عبد الله : الحركة الفكرية، فصل 2، "التحولات المؤسسية".

55- مقابلة معه بعين السلامة بتاريخ (1994/9/30)

56- "المدافعون عن سنى علي، باحثون عديدون أبرزهم ر. مونى؛ راجع : س. سيسوكو : "الصنغي من القرن 12-16" في تاريخ افريقيا العام، (باريس، اليونسكو، 1988) ج4، ص.204.

57- نفسه.

58- محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد: دار الرشيد، 1982، صص 162-169.

59- نفسه، ص.176

60- الغربي، 206-207.

61- الغربي، 254 وما يليها.

62- الغربي، مرجع سابق، ص. 282

63- نفسه: صص. 325-328

64- أورد اليدالي ما معناه أن ناصر الدين كان يُقال بحضرته إنه المهدي فلا ينكر ذلك.

65- راجع: جان دوفيس: "التجارة والطرق التجارية في غرب أفريقيا"، تاريخ أفريقيا العام، ج3، ص.403-479.

66- Braudel (f), Ecrits sur l'histoire, A.collin, paris .1984, pp. 41 ect.

67- تقصد الفترة الوسيطة وفق التحقيب المحلي.

68- محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء: دار توبقال، ط1، 1987، ص. 16-17.

69- القبلي، مرجع سابق، 17

70- راجع: البكري، المغرب، مصدر سابق، ص. 163-164

71- القبلي: مراجعات... مرجع سابق، ص. 17

72- العبر (ط دار الكتاب، بيروت، 1967)، ج 6، ص. 118

73- chennafi(m) sur les traces dawdagust PP: 100-101

74- حول هذا المشكل، راجع: مارك ابلوك، مشكل الذهب في العصر الوسيط، ترجمة مر. إسكندر، منشورات الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة، 1968.

75- راجع حول الكشف البرتغالي وتوابعه: تاريخ إفريقيا العام، مرجع سابق، ج4، ص: 305و 326 و635 و670.

76- الكاف معتودة تنطق جيما مصرية، ويأتي ذكر هذه المدينة.

77- آبَيْر: حاضرة عتيقة، تأسست في نهاية القرن الخامس تقريبا وتدهورت في النصف الأول من القرن السابع. وكانت إلى جانب تينيكي، أهم المدن الصحراوية التي عرفت نظام "الجماعة" التي تسيّر المجتمع الأهلي. وكانت تعمر آبير عشرات القبائل تسمى "إدواعلي"، وقد تشتت بعد خلاف داخلي وأزمة اقتصادية نتجت عن انتقال طريق التجارة شرقا، وبقي الاسم خاصا بذرية يحي العلوي التي أسست شنقيط وتجكجة، وانتقلت ذراريها نحو غرب البلاد "إدوعلي الجالة". راجع: سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم: صحيحة النقل، مخطوط.

78- راجع: ابن سليمان الناصري الحوضي (بيّه)، الحوليات، نشرة الامارات 2001م ص: 32-33

79- راجع: ابن حامد: الحياة السياسية، مرجع سابق، ص. 61-62.

80- العروسيّون: قبيلة من الشرفاء الحسينيين، تنحدر من جدها الجامع

الشريف الشيخ سيد أحمد بن عمر العروسي العابد الزاهد المعروف، وكان لذريته دور سياسي مهم في تاريخ موريتانيا، لاسيما في القرن الحادي عشر وتاليه (17–18م). راجع، الطالب أخيار بن ماميناً: الشيخ ماء العينين، علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار الفرنسي، الرباط: مؤسسة مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، 2005، ج1، صص 57–58.

81– ولد محمد محمود "إزيد بيه": "تكبة: حاضرة الركيز الشرقي "في بلاد الحوض"، مقال في مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث، العدد 5، 1995

82- WIHITCOMB (T),OP.CIT:PART II.

83- WIHITCOMB, Ibidem.

84- Ibidem.

85- فقيه كنتي ضائع الأخبار (عاش في القرن 11 هـ/17م)، جمع روايات كنتة ونقل عن كتابات سيد احمد البكّاي (هـ920).

86- راجع: الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي، الطرائف والتلائد، سبق ذكره، ج 2، ص.69

87– خليل ولد أنحوي: بلاد شنقيط، المنارة والرباط، (منظمة ألكسو، تونس، 1987)، ص.106

88– إبن حامد: الحياة السياسية، مرجع سابق.

89- راجع: الونشريسي، المعيار، مصدر سابق: ج 9 ص. 543

90– راجع حول مفهوم "الطلبة" لدى الموحدين:

The almohad hierarchy,BSOAS,1954,T16,pp.94-112 Hopkins

91-OULD CHEIKH, element d.histine de mauritaniede la Element d'histoire (Nouakchott,1991); PP 25-26

92 – الكنتي: الغلاوية، مصدر سابق، ص.151.

93 – محمد المامي بن البخاري الباركلي: جمان كتاب البادية (مخطوط بحوزتي نسخة منه وهو مقدمة لكتاب (فقه) البادية).

94ـ سيديا بابا، تاريخ إمارة، ادوعيش ومشظوف، تحقيق ازيد بيه بن محمد محمود (نشره المطبعة المدرسية. ط2، نوكشوط 1994)، ص. 172–173.

95– نفسه، ص. 176.

96– ابن الشيخ سيديا، المصدر نفسه، ص. 177.

97– ابن انتهاه، نيل الأوطار، مصدر سبق ذكره، غير مرقم.

98– السعدي، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص.13

99– البرتلي الولاتي، فتح الشكور، مصدر سابق: ص.108

100– البرتلي الولاتي، مصدر سابق، ص.87–88 و112

101- يرد ذلك في قصيدته الفخرية الشهيرة، وفيها يقول:

ونحن أقمنا للحجيج طريقهم ونحن سننّا توبة للمغافر

ونحن حمينا باركالله حسبةً إلى مكة الغرّا وتلك المشاعر

102– صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية، مصدر سابق، المقدمة.

103- حرب شرْببَّة هي الحرب المحدودة في الزمان والمكان التي دارت بين تجمع من زوايا منطقة القبلة بقيادة الشاب اللمتوني الأصل أوبك بن أبهم الملقب ناصر الدين ضد قبائل المغافرة المحاربة (فقد دارت رحاها بين 1675– 1677) وانتهت بهزيمة الزوايا في إقليم القبلة (جنوب غرب موريتانيا) وفرض المغارم المادية والمعنوية.

راجع: ولد الحسن (أحمد جمال): "حركة ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا" مجلة حوليات الأدب، العدد الأول.1989.

104– راجع: ولد عبد الله: الثقافة والفكر ببلاد شنقيط، ضمن: حماه الله ولد السالم وآخرون: تاريخ موريتانيا، فصول ومعالجات"، منشورات مخبر التاريخ، كلية الآداب، 1999، ص. 86

105- ددود، مرجع سابق، ص. 86–87

106– راجع: ولد عبد الله، مرجع سابق.

107- النحوي، مرجع سابق، صص.121 – 124.

108– الشيخ محمد الحافظ العلوي: مرت بنا ترجمته.

109– شريط من رواية أحمد بن حيمود الديشلاوي بحوزة الفقيه الطالب أخيار بن ماميا (بانواقشوط).

110– النحوي : مرجع سابق، ص.274.

111– نفسه.

112– أحمد الدرديير بن محمد العالم الحضيري: المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان، خلال الفترة ما بين القرن التاسع والثالث عشر الهجري.. الخامس عشر والتاسع عشر الميلادي. قام بتحقيقه والتقديم له أبوبكر عثمان أبوبكر القاضي الحضيري، (طرابلس : د.ن، 1996)، ص. 13–14

113– راجع: بحيد بن الشيخ يربان: أعلام الشناقطة في الحجاز، ص. 217–218.

114– ولد السالم : موريتانيا في الذاكرة، مرجع سابق.

115– نفسه.

116– نفسه.

117– السعدي: تاريخ السودان، مرجع سابق، ص. 52(من النص العربي).

118– نفسه.

119– الإرشاد: مصدر سابق.

120- LERICH, Notes Pure servir a l'histoire maure. 1953, pp. 739-790 .

121– الوزّان: وصف إفريقيا،ج 1، ص.65

122– ولد السالم: مرجع سابق.

123– مرجع سابق.

124– راجع مثلا:حديث الطرائف: ص.72) عن سيد أحمد بن سيد محمد الرقاد وعلاقته بشيوخ الشاذلية من أمثال، "صاحب أكرزاز" وهو سيد أحمد بن موسى الكرزازي الآخذ بواسطة عن زروق، وسيد أحمد آذفال السوسي الشاذلي السند أيضا فتأمل.

125– راجع بول مارتي، كنتة الشرقيون، مرجع سابق، ص.37–38.

126– لاتوجد وثائق تتحدث عن تنظيم الزاوية مباشرة لكن هذه المعلومات تستشف بوضوح من الطرائف والغلاوية، والإرشاد وكتاب الأخبار لهارون بن الشيخ سيديا. (ط.نواكشوط بعناية باب بن هارون 1998،م).

127– راجع مثلا: كتاب الأخبار، مصدر سابق، ج1، مواضع مختلفة.

128– د. عزيز بطران، الشيخ سيد المختار، مصدر سابق.

129– نفسه.

130–راجع: المدينة الإسلامية، منشورات عالم المعرفة، الكويت.

131- هذا الرأي للشيخ الطلعاء، أبّا ولد أنه الولاتي، راجع مقدمة محمد عبد الله ولد زيني التاريخ جدو (مذكرة متريز 1993).

132– راجع تعليق محمد حجي على كلام مؤلّف "وصف إفريقيا، مصدر سابق،ج2، ص. 162-161.

133- Meunié (d.Jacque),Cités Anciennes de Mauritanie. Librairie. C.KLINCKSUECK; Paris, 1961, P.72.

134- Idem, p .72.

135- Idem .

136- Idem.

137– راجع: الرحلة: تحفة النظار، مصدر سابق، صص.687–688.

138– "أكل": كلمة بربرية تعني الرئيس، السلطان، القائد..

139– السعدي: تاريخ السودان، مصدر سابق، ص. 22.

140– نفسه، ص. 65 ومايليها.

141– نفسه، ص. 69.

142– راجع.ابن حامد: الحياة السياسية، صص.60–61–62.

143– الحسن الوزان الملقب ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، مرجع سابق،ج 2، ص.161–162.

144– مَناقبي Hagiographique متأسس على الكرامة والبركة وما يقدمانه من جاه وخطاب. راجع: محمد القبلي وآخرون: التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، (الرباط: منشورات عكاظ، 1989).

145– راجع: الرسالة الغلاوية. (الفصل الخاص بتاريخ كنتة وإدوالحاج)، الطرائف والتلائد،ج.2، صص 69–72 تحقيق عابدين بن حمر لمين (المعهد الموريتاني،1994).

146– إبن انبوجه التيشيتي: فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، مخطوط، مودع في خزانة المكتبة الوطنية، باريس، رقم 5409، ص. 5 .

147– رحال بوبريك: المدينة في مجتمع البداوة، التاريخ الاجتماعي لولاتة خلال القرنين 18 و19 مع تقديم ونشر تاريخ ولاتة، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2002، ص. 13.

148– نفسه: ص.14.

149– نفسه، ص. 17.

150– أولاد يونس: ذرية أغروق بن أودي بن حسّان، من أولى القبائل الحسّانية التي دخلت بلاد الحوض من شرقي البلاد. راجع: صالح بن عبد الوهّاب الناصري الحوضي: الحَسْوَةُ البيْسانيّةُ في علم الأنساب الحسّانيّة، نسخة مرقونة.

151– مقابلة معه في منزله في انواكشوط (حي تفرغ زينه)، بتاريخ 2005/12/3.

152– من هؤلاء العلماء التازختيين: أحمد بن أيد التازختي.

153– فتح الشكور، مصدر سابق، ص. 215 .

154– جاء ذلك في ورقات أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي.

155– هذه القبيلة كانت تسمى في عهد البكري (ق5هـ): بنو ينتَسِر وهو عينه اسم قبيلة: ينصر كل أنصر كل أنصار، وفروعها الحاملة للاسم اليوم منتشرة في مالي، أما المجموعات الأخرى فهي منتشرة في موريتانيا تحت أسماء مغايرة!

156– صالح بن عبد الوهاب الناصري: الحَسْوَةُ البَيْسَانيّةُ في علم الأنساب الحَسَّانيّة، سيد أحمد وأزيد بيه (ط. المعهد الموريتاني للبحث، أنواكشوط،1998) ص.53.

157– راجع:الحسوة، مصدر سابق، ص. 53–54.

158– راجع:الحسوة، في مواضيع مختلفة.وكذا الحوليات.

159– السّوننكى: مجموعة من شعوب الماندانغ السودانية المنتشرة في حوض نهر النيجر، ومنهم مؤسسو مملكة غانة.

160- راجع: الطرائف، سبق ذكره، ص.70 والغلاوية، مصدر سابق، ص.160، الهامش: 317.

161- راجع: مقدمة تحقيق: تاريخ جدو بن الطالب الصغير البرتلي، سبق ذكره.

162- راجع: فرج محمود(فرج)، أضواء على اقليم توات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، الخارطة.

163– ابن حامد: موسوعة، مرجع سابق، جزء المحاجيب، ص.1 وما يليها.

164- راجع: حمادي بن المرتجي، الشعر في ولاتة، ص.8.

165– حمادي: نفسه، ص.8.

166– راجع: الطرائف، مرجع سابق.

167– المختار الكنتي: الارشاد، ص.189و 192 "نسخة زاوية الشيخ سيد المختار الكنتي بانواكشوط".

168-169– راجع ابن حامد: جزء الشرفاء، (مرقون).

170– Wihtcomb.op.cit.

171– meunie.op .cit .p.71

172– (مقابلة مع محمد بن مولود بن داداه، 2000/11/15م).

173– راجع: المخطوط نسخة زميلنا د. محمد بن مولود الأستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب.

174- Meunie .op cit .p. 58.

175- (idem), p. 57.

176- Chennafi (M) Sur les Traces, Op. Cit.

177– راجع: ساطع الانارة، (مخطوط). م. س وفيه الرواية الواردة في إنارة المبهر.

178- إنارة المبهر، نقلا عن ابن حامد: التاريخ السياسي: مرجع سابق.

179- نفسه.

180- راجع: الطرائف: الجزء الرابع (من المخطوط).

181– الرسالة الغلاوية، مصدر سابق، ص 132–133.

182– راجع: المختار بن ابلول، رسالة في نسب إدو الحاج، تحقيق فاطمة بنت أوامذكرة نهاية.الدراسة، كلية الآداب، 97 – 98).

183– الرسالة الغلاوية: ص. 133

184– ابن خلدون: العبر، مرجع سابق، الجزء 6، ص. 67.

185– راجع: الهامش رقم 28 من تحقيق فاطمة بنت أو لرسالة ابن بلول، مرجع سابق.

186– وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج 2، ص.116.

187– ابن بلول، المرجع الساب والصفحات.

188– إبن بلول، نفسه. 44.

189– نفسه.

190– ابن كتاب، المنهاج...، مرجع سابق، ص. 1 وما يليها.

191– ابن كتاب، نفسه: مواضع مختلفة.

192– ابن كتاب، نفسه، مواضيع مختلفة. وابن كتاب، نفسه(مر مختلفة).

193– راجع: عن تأسيس شنجيط.

– أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط، (الفصل الخامس شنقيط وخططها).

– ابن الحاج ابراهيم (سيد عبد الله)، صحيحة النقل (مخطوط). توجد نسخة من ملحقه ضمن ترجمتها للإنجليزية في عمل نوريس الآتي ذكره

194 -NORRIS (ht) "the history of chinguit according to the idw aly tradition" in B: IFAN DAKAR, T24, seri B, n 3-4 (1962), pp. 393-449.

195– ذكرها عبد الرحمن السعدي (قبل 1433)، تاريخ السودان، مصدر سابق، ص.22.

196– راجع: د.حماه الله ولد السالم: موريتانيا في الذاكرة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005م)، ص.2–7.

197– ابن حامد: حياة موريتانيا، مرجع سابق، "جزء الأغلال"، ص.1 وما يليها.

198– نقلا عن: عاقلة تشمشة، تحقيق.

199– عبد الله بن الحاج ابراهيم: صحيحة النقل، مخطوط ملحق، دراسة نوريس الآنفة.

200– شارل استيوارت Ch.Stewart يتبنى طروحات النظرية الإنقسامية ويرى أن الإمارة مجرد نظام سياسي أقامته قبائل الشوكة المحاربة يوازيه المجتمع الديني للطرق الصوفية وقبائل الزوايا.

راجع عمله:

Stewart: "Political authority and social stratification in Mauritania" in E.GELLNER et C.MICAND: Arabs and Berbers, Londres 1973 (375-393).

أما هامس C.Hames يعتبر السبب في ظهور الإمارات هو التغلغل البضاعي الأوروبي على السواحل، الذي جعل القبائل تتكتل للحصول على مغانم من التجارة الأطلسية، لكن ذلك جعلها رهينة للتجار الأوروبيين مما دق إسفين الصراع داخل تلك الإمارات.

H.ames: l'evolition des Emirats Maures sous l'effet du capitalisme marchand eropeen,in: Production pastorale et societe, Paris, MSH, 1979,(375-398).

والحق أن هذا التفسير يصدق فقط على إمارتي الترارزة والبراكنة القريبتين من مستعمرة السنغال الفرنسية ومن السواحل النهرية والأطلسية، أما إمارات:

أولاد امبارك وادوعيش ويحي بن عثمان ومشظوف فكانت بعيدة عن السواحل وركز بعضها كاولاد امبارك على موارد الضرائب المفروضة على ممالك السودان وعلى مصادر الذهب والزراعة هناك. ولعل ذلك هو مايفسر نهاية أمارة أولاد امبارك قبل الإمارت الأخرى بنعل صعود الممالك الوثنية وبداية الحروب بين حركات الجهاد الإسلامية التكرورية ـ الفلانية ضد وثنيي البمبارة أولئك.

201– المغافرة: أولاد مغفر بن حسّان، وهم عدة قبائل.

202– أولاد بوفاندة: من ذرية اعلي بن داود "امحمد" بن عثمان بن مغفر بن أودي بن حسان، أسسوا رئاسة في بلاد الحوض قبل أن يطيح بهم أولاد أمبارك في معركة كساري سنة 1124هـ/1712م.

203– صالح بن عبد الوهاب: الحسوة، مصدر سابق.

204– باغنة: إقليم من جمهورية مالي الحالية يلاصق الجنوب الشرقي الموريتاني الحالي.

205– راجع: النانى بن الحسين: إمارة أولاد مُبارك في بلاد الحوض من 1712حتى 1841 امذكرة نهاية الدراسة، كلية الآداب، نواكشوط، 1985–1986)، ص. 65.

206– نفس المرجع، ص. 96.

207– نفس المرجع.

208– صالح بن عبد الوهاب العياسي الناصري الحوضي: الحسوة، مصدر سابق، ص. 99 .

209– راجع الناتى، مرجع سابق، ص.97.

210- Meunie, op. cit ,

211– ولد الحسين: مرجع سابق، ص. 99 .

212– ابن حامد: تاريخ إدوعيش، مرقون، ص.2.

213– بكار بن أعمر بن محمد بن خونا (ت1175هـ/1761م): انتزع الإمارة من عمه أعل بن محمد بن خونا. خاض عدة معارك منها دركل سنة 1152 هـ/1739م وانكدى سنة 1159 هـ/1746م. راجع: ابن حامد، الموسوعة، 1:174.

214– أمحمد شين بن بكار بن أعمر (ترأس ما بين 1761–1777): من أقوى أمراء إدوعيش: اشتهر بالشجاعة وحسن التدبير، استطاع إخراج إدوعيش نهائيا من قبضة أولاد أمبارك، وقد انتصر على المغامرة في عدة معارك منها يوم ((آرزاك)) سنة 1191هـ/1777م، ويوم ((الحنيكات)) سنة 1192هـ/1779م وقد استطاع في هذا الأخير أن يقل عزم المغامرة ويشتت شملهم بعد معركة طاحنة. (ابن حامد،174/1:174)

215– نفسه، ص. 96.

216– راجع: الشنقيطي: الوسيط، المرجع سابق، ص. 37.

217– راجع: الشيخ موسى كمرا، المجموعة النفيس، نقلا عن: بابه بن الشيخ سيديا: إمارتا إدوعيش ومشظوف،مصدر سابق، ص. 136.

218– المصدر نفسه.

219– فصيلة من إدوعيش استقلت بنفسها بقيادة الرسول بن اعلي انبكة وأبنائه وصار لها دورها المهم لا سيما في تاريخ مدينة تيشيت.

220– من كبريات قبائل التوارق وأقواها شوكة وأهمها في تاريخ الصحراء الكبرى. راجع:

Marty (Paul), les Igillad, Ernest Leroux, Paris, 1916.

221– أحمدو بن الحاج عمر الفوتي تـ.1895م: أحد أبناء الحاج عمر الفوتي. تولى حكم منطقة كارتا من عاصمتها سيكو، وظل أبرز خلفاء الحاج عمر، والمفاوض الرئيس مع الفرنسيين، واستطاع إخضاع البامبرا وتوحيد معظم البلاد التي فتحها الحاج عمر، وقام بتأمين القوافل التي عانت الأمرين من ويلات الحروب التي تلت وفاة الحاج عمر سنة 1864م، ومنها قوافل مدن ولاتا، تيشيت، شنقيط... وغيرها.

رغم المعاهدات التي عقدها أحمدو مع الفرنسيين، استطاعوا في النهاية الهجوم على مناطق نفوذه بقيادة العقيد لويس أرشينار والقضاء على امبراطورية التكولور نهائيا.

222– الساحل: الشمال في العُرف المحلي، والساحل: البلاد الصحراوية الجنوب شرقية المتاخمة لبلاد غرب إفريقيا، حسب الإصطلاح الفرنسي: راجع الهامش المتعلق باللفظ في المقدمة.

223– يلخص ادريدل بن محمد عبد الله بن آوليل هذه الوضعية قائلا من قصيدة حسانية:

لكوارب عـــادت تخصـــر اولعديل خسرت سبختـــه
وافرق من شرك ازرع لكـــور وولات خسرت رفـكتـــه
وِلات ينشاف المكطـــرو النخـــل نكرت تمرتـــه

أولا: المصادر العربية المحلية

تشمل النصوص التاريخية وسجلات الحوادث ودواوين الأنساب ومجاميع الفتاوي والنوازل ووثائق الحياة اليومية، منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. **الإنحاف المبتغى في أخبار تندغا**: للشيخ عبد الله بن صلاح التندغي. ذكر فيه بطون تندغة وشجرة بني حسان.
2. **إنارة المبهم** من أخبار عبد المؤمن (جد شرفاء تيشيت) ومحمد مسلم (جد طلبة تيشيت)؛ للعلامة محمد بن أحمد الصغير المسلمي التيشيتي (ت-1324هـ) تكلم فيه عن أنساب القبيلتين، وأوّليّة بنائهما لمدينة تيشيت.
3. **تاريخ البرابيش وأزواد**: تأليف الفقيه المؤرخ محمد محمود بن دحمان الأروانبي.
4. **تاريخ الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الواداني (ت- 1265هـ)**، وهو حوادث السنين.
5. **الحَسُوَة البيسانيّة في علم الأنساب الحسّانيّة**: لمحمد صالح بن عبدالوهاب الناصري (ت-1272هـ/1855م)، وهو أبرز مؤرخ موريتاني قديم، وكتابه الحسوة أهم مصدر عن تاريخ وأنساب بني حسّان لاسيما في شرقي موريتانيا وأحوازها.
6. **حوليات النعمة**: حوادث سنين.
7. **حوليات تيجكجة**: حوادث سنين.

8. **حوليات تيشيت**: حوادث سنين.

9. **حوليات ولاتة**: حوادث سنين.

10. **الدفاع عن شرف أولاد أبي السباع**: للعلامة عبد الله بن عبدالمعطي السباعي، احتج لنسبهم الإدريسي ورد على من نفاه.

11. **ديوان الأنساب**: تأليف أحمد بن الحاج عبد الله الرقادي الكنتي (ت1130هـ/1717م)، وهو أقدم نسابة ومؤرخ موريتاني معروف.

12. **رحلة الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي الوادانى**: وهي رحلة تضم معلومات مهة عن تاريخ الثقافة المحلي والبلدان المزورة.

13. **رحلة محمد يحي الولاتي**: وهي من الرحلات الحجازية الهامة.

14. **الرسالة الغلاوية**: للشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي (ت1242هـ)، وهي أهم نص في آداب قبائل الزوايا حول تفسير الجينيالوجيا والسلطة والشرعية الدينية والمجتمعية.

15. **رسالة في بطون إيديلبة (من سكان ولاتة)**: تأليف عبد الله بن الطالب عثمان الإيديلبي الجكني (ت1260هـ).

16. **شجرة أنساب إداشغرة**: لمحمدو بن الغزالي الشقروي (ت 1350هـ).

17. **صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد قل**: تأليف سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (ت1233هـ)، وهو تأليف في الأنساب.

18. **عيون الإصابة في مناقب محنض بابه**: لميلود بن المختار خي.

19. **فتح الشكور في معرفة علماء التكرور**: مصنف قيم في تراجم كبار علماء البلاد لاسيما في مدن ووبوادي شرقي موريتانيا، تأليف العلامة محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت1219هـ) فتح الشكور

في معرفة أعيان علماء التكرور لمؤلفه محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت-1219هـ/1804م)، وهو معجم ضخم لتراجم علماء البلاد الموريتانية وأغلبهم من شرقي البلاد لاسيما من مدينة ولاتة (ولاتا) التي كانت قلب الثقافة العربية ـ الإسلامية في غرب الصحراء وبلاد السودان عبر القرون الماضية. وورود كلمة التكرور في عنوانه اصطلاحٌ أطلقه المشارقة على مسلمي غرب الصحراء وغرب افريقيا من مختلف الشعوب دون تمييز لغوي أو عرقي، قبل أن يستقل شعب التكارير المسلم بهذا اللفظ في عهود قريبة تعود لأواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

20. **فتح القدوس في إبطال أسوس المكوس**: تأليف أحمد الصغير المسلمي التيشيتي (ت- 1272) يرد فيه على قبيلة ماسنة والعلماء الذين أفتوا بالزام الشرفاء والطلبة.

21. **كتاب الأنساب**: أغلبه مفقود، تأليف والد بن خالنا التاكاطي نسبا الشمشوي وطنا (ت- 1212هـ).

22. **كتاب الأنساب**: تأليف محمد بن أمينو الشُكاني التندغي (ت-1334هـ) في أنساب وشجرات بعض القبائل، والموجود منه قطع قليلة.

23. **كتاب البادية**: للشيخ محمد المامي البار كلي اليعقوبي المعقلي. وهو مصدر مهم لتاريخ النظر الفقهي في البلاد.

24. **كتاب الطرائف والتلائد في مناقب الوالدة والوالد**: للشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي (ت-1242هـ)، والكتاب موسوعة قيمة في التاريخ، والأنساب والأخلاق مصاغ بلغة متقنة السبك لا نظير لها في النثر الصحراوي.

25. **مجموع نوازل ابن الأعمش العلوي**: أغلبها لكبير فقهاء مدينة شنقيط في القرن الحادي عشر الهجري، الطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي (1036–1107هـ/1626–1695م). وتمتاز هذه النوازل بعرضها المبكر لظواهر متأصلة في الاجتماع الأهلي: اختلاف جماعات الحل والعقد في المدن الصحراوية، وضغط أهل الشّوكَة على المدن وأحوازها.

26. **مجموع نوازل الغلاوي الولاتي**: وهو محمد بن أبي بكر ابن الهاشم الغلاوي الولاتي (ت 1098هـ/1686م)، وهو تلميذ وخِلٌّ ابن الأعمش. وكان له موقفه المتشدد من التعامل مع المجموعة الحسّانيّة.

27. **مجموع نوازل الكصري**: تأليف الكَصْري ابن محمد ابن المختار ابن عثمان بن الكصري الجكني الديلبي الولاتي ـ النعماوي (ت.1235هـ/19–1820م). وهو أكبر مجاميع الفتاوى والنوازل في غرب الصحراء. ويعكس تطور الحياة العامة في شرقي البلاد وأحوازها السودانية، خلال الفترة مابين النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري والثلث الأول من القرن الموالي، أي المدة الزمنية التي تصدى خلالها الرجل للتدريس والإفتاء. وتترد في فتاويه، أيضا، مظاهر من الرتابة والاستمرارية في نحل العيش والسلوك لدى سكان البلاد، في القرون الماضية، من خلال عزوه لفتاوى أسلافه من الفقهاء والعلماء. وهناك مَجَاميع أخرى رجعنا إليها بصورة مجملة في البحث محال إليها في الهوامش.

28. **مجموع نوازل حمَى الله التيشيتي**: وهو من تأليف محمد نالله احمَى الله) ابن أحمد ابن الإمام التيشيتي المَسْلَمي (ت1269هـ/1852م).

وتمتاز بإيراد طائفة صالحة من القضايا المحورية في الحياة المَدِينيّة: المُدَارَاة، والعقوبة بالمال.....

29. **نبذة في تاريخ إدوعيش ومشظوف:** للشيخ سيديا بابا، وهي نقول تاريخية مفيدة بعضها منقول من الغلاوية والإستقصا للناصري.

30. **تزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ:** تأليف بدي بن سيدينا العلوي (ت-1264هـ)، ذكر فيها حياة الشيخ وبعض من أخذو عنه.

31. **وثائق وكنانيش: منها وثائق مدن:** تيشيت، وولاتة، والنعمة، الموجودة في ميكروفيلمات قسم المخطوطات بدار الثقافة. وهي وثائق غنية بالوثائق عن العلاقة بين أهل الشّوكَة وسكان وهذه الواحات الصحراوية، وبالمعطيات الاقتصادية والاجتماعية عن حياة أهلها اليومية.

ثانيا: المصادر العربية الخارجية:

أغلبها نصوص من كتب الجغرافيين العرب القدماء وكتب التاريخ العام للمؤرخين المغاربة والمشارقة التي اهتمت بالصحراء وبلاد السودان، أو بالدول القريبة منهما. ومن أمثلتها:

1. **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى:** للناصري السلاوي (ت-1315).
2. **الأنيس المطرب بروض القرطاس:** لابن أبي زرع.
3. **تاريخ السودان:** عبد الرحمن السعدي التنبكتي (ت-1066).
4. **تاريخ الفتاش:** محمود كعت التنبكتي.
5. **تاريخ الموصل:** للأزدي (ت-334).
6. **تذكرة النسيان:** لمجهول.

7. **ترتيب المدارك** للقاضي عياض (ت.544).
8. **جمهرة الأنساب**: لابن حزم (ت.456).
9. **الحلل الموشية**: لمجهول من أهل القرن الثامن الهجري.
10. **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**: لابن بسام (444هـ).
11. **رحلة ابن بطوطة** (ت.779).
12. **صورة الأرض**: لابن حوقل النصيبي القرن الرابع الهجري.
13. **عجائب المخلوقات** لابي حامد الأندلسي (ت.565).
14. **العيلم الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر**: لأبي محمد مصطفى بن حسن الجنابي (ت.999).
15. **فتوح البلدان**: للبلاذري (ت.279).
16. **فتوح مصر وأخبارها**: لابن عبد الحكم (ت.257هـ).
17. **كتاب البلدان**: لليعقوبي القرن الرابع الهجري.
18. **كتاب العبر**... المعروف بتاريخ ابن خلدون (ت.808).
19. **كتاب المُغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** (وهو جزء من كتابه المسالك والممالك) لابي عبيد البكري (ت.487).
20. **كتاب بسط الأرض**: لابن سعيد (ت.685).
21. **معجم البلدان**: لياقوت الحموي (ت.626).
22. **نزهة المشتاق**: للإدريسي (ت.548).
23. **نيل الإبتهاج**: أحمد بابا التنبكتي (ت.1032).
24. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: لابن عذاري كان حيا (712هـ).

الكتاب التاسع

المؤلف: حماه الله ولد السالم

- استاذ التعليم العالي في قسم التاريخ بجامعة نواكشوط؛
- رئيس الجمعية التاريخية الموريتانية؛
- خبير في المخطوطات والتراث العربي في الصحراء الكبرى.

صدر للمؤلف

- **موريتانيا في الذاكرة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005؛
- **تحقيق الرسالة الغلاوية**، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2003؛
- **دور موريتانيا في التواصل المشرقي-المغربي**، القاهرة، اتحاد الجمعيات الفلسفية العربية، 2003؛
- ما يقارب 30 بحث ومقال في الدوريات المحكمة المغربية والمشرقية؛
- مشاركة في عشرات المؤتمرات العربية والدولية.